

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

صورة الخلافة في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين

إعداد

ساهرة عبد الحفيظ محمد حمدان

إشراف

د. عبد الخالق عيسى

قدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس - فلسطين

2010

صورة الخلافة في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين

إعداد الطالبة

ساهرة عبد الحفيظ محمد حمدان

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2010/6/24 م وأجيزت .

التوقيع

.....
.....

.....
.....

.....
.....

أعضاء لجنة المناقشة

1- د. عبد الخالق عيسى (رئيساً)

2- أ. د. وائل أبو صالح (ممتحنا داخليا)

3- د. فيصل عواودة (ممتحنا خارجيا)

الإهداء

أهدي هذا البحث إلى روح والدي رحمه الله
إلى نبع الحنان الشمعة التي تذوب لتنير
طريق من حولها أمي الغالية
إلى زوجي العزيز وأولادي الأحبة محمود
ومجاهد وأحمد ومنال
إلى الإخوة الأحبة وزوجاتهم وأولادهم
إلى مديرتي العزيزة الأخت: إيمان اعمر
إلى أرواح شهدائنا الأبرار
وإلى كل العاملين المخلصين لإقامة حكم الله
في الأرض

الشكر والتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، قال تعالى: " لئن شكرتم لأزيدنكم"، ومن هذا المنطلق فإنني أتقدم بجزيل الشكر والتقدير والعرفان للدكتور الفاضل: عبد الخالق عيسى، الذي تكرم بالإشراف على هذه الرسالة حيث بذل من جهده وضحي بوقته، فغمرني برعايته وتوجيهاته السديدة، فجزاه الله خيرا على عمله ونفع الأمة بعلمه.

كما وإنني أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى عضوي لجنة المناقشة اللذين تشرفا بقبول مناقشة هذه الرسالة وهما:

الأستاذ الدكتور الفاضل: (وائل أبو صالح)
(جامعة النجاح الوطنية)

والدكتور الفاضل: (فيصل غوادرة) جامعة
القدس المفتوحة

كما وأتقدم بخالص شكري وعظيم امتناني إلى مديرتي الفاضلة: (إيمان اعمر)،

وأتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إنجاز هذا العمل المتواضع وأخص بالذكر الأخ

العزیز: (أبا البراء) لما بذله من نصح
وتوجیه وإرشاد، فجزاهم الله خیر الجزاء .

إقرار

أنا الموقع أدناه، مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

صورة الخلافة في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت
الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة
أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى .

Declaration

**The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the
researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any
other degree or qualification.**

Student's

اسم الطالب:

Name:

التوقيع:

Signature:

Date:

التاريخ: / / 2010م

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ب	التواقيع
ت	الإهداء
ث	الشكر والتقدير
ج	الإقرار
ح	مسرد المحتويات
ر	الملخص
1	المقدمة
4	تمهيد في معنى الخلافة
5	الفصل الأول: الخلافة عند شعراء القرنين الثاني والثالث الهجريين
6	تمهيد في نشأة الدولة العباسية
16	المبحث الأول: الخلافة عند شعراء الدولة العباسية
20	من شعراء الدولة العباسية:
20	مروان بن أبي حفصة
23	سلم الخاسر

28	أبو دلامة
30	علي بن الجهم
33	مروان بن أبي الجنوب
35	البحثري
38	المبحث الثاني: صورة الخلافة عند شعراء الشيعة
39	السيد الحميري
45	منصور النمري
49	دعبل الخزاعي
54	المبحث الثالث: صورة الخلافة عند شعراء الزهد
54	عبد الله بن المبارك
56	أبو العتاهية
63	المبحث الرابع: الخلافة عند شعراء المجون واللهو والزندقة
63	أبو نواس
71	مطيع بن إياس
73	الفصل الثاني: العوامل المؤثرة في صورة الخلافة
74	المبحث الأول: العوامل الدينية والفكرية المؤثرة في الخلافة:
74	المطلب الأول: الخلافة عند أهل السنة والجماعة
80	المطلب الثاني: الخلافة عند الجماعات والفرق الإسلامية الأخرى
80	أولاً: الخلافة عند الشيعة
87	ثانياً: الخلافة عند المعتزلة
91	ثالثاً: صورة الخلافة عند أهل الزهد والتصوف
98	المطلب الثالث: الخلافة عند أهل الزندقة والمجون والشعبية
105	المبحث الثاني: العوامل السياسية المؤثرة في صورة الخلافة

105	المطلب الأول: اضطراب أمر الخلافة
111	المطلب الثاني: قيام الثورات
111	أولاً: ثورة الزنج
116	ثانياً: ثورة القرامطة
117	المطلب الثالث: الثورات التقليدية
117	أولاً: ثورات الشيعة
119	ثانياً: ثورات الخوارج
122	المبحث الثالث: العوامل الاجتماعية والاقتصادية المؤثرة في صورة الخلافة
122	المطلب الأول: التركيب العرقي للدولة
125	المطلب الثاني: التفاوت الطبقي
130	الفصل الثالث: دراسة فنية لشعر صورة الخلافة
131	المبحث الأول: الصورة في شعر الخلافة
131	تمهيد في مفهوم الصورة
135	المطلب الأول: الصورة بمعناها العام
135	الجانب الأول: أنواع الصور
135	أولاً: الصور الإيجابية
140	ثانياً: الصور السلبية
141	ثالثاً: الصور الحيادية
141	الجانب الثاني: خصائص الصور
141	أولاً: الصورة المتكاملة
143	ثانياً: المبالغة في الصور
146	ثالثاً: هجاء الأعداء والخصوم
147	رابعاً: الازدواجية في الصورة

147	المطلب الثاني: الصور الفنية والمحسنات البديعية
147	الصور الفنية
149	الكناية
150	الاستعارة
150	المجاز المرسل
151	المبحث الثاني: الأسلوب واللغة
151	أولاً: أسلوب الخطاب
155	ثانياً: أسلوب الاحتجاج العقلي، والحوار والمناقشة
158	ثالثاً: أسلوب الشعر من حيث التقليد والتجديد
162	رابعاً: أسلوب الموازنة
163	خامساً: الأفكار ومصادرها
167	سادساً: الألفاظ والمعاني
169	المبحث الثالث: الموسيقى الشعرية
169	المطلب الأول: الموسيقى الخارجية
169	أولاً: الوزن العروضي
173	ثانياً: القافية
175	المطلب الثاني: الموسيقى الداخلية
176	أولاً: التجسيم والتشخيص
177	ثانياً: السيولة والتدفق
179	ثالثاً: التكرار والمشتقات
181	رابعاً: ملاءمة اللفظ للمعنى
184	الخاتمة
187	فهرس الآيات القرآنية

189	المصادر والمراجع
b	Abstract

الخلافة في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين

إعداد

ساهرة عبد الحفيظ محمد حمدان

إشراف

د. عبد الخالق عيسى

الملخص

تتناول هذه الدراسة صورة الخلافة في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، في أشعار فئات مختلفة من الشعراء؛ منهم شعراء الدولة العباسية، ويلاحظ أنهم بالغوا في مديحهم للخليفة وأضفوا عليه هالة من القداسة. أما شعراء الشيعة، فقد تأثرت صورة الخلافة عندهم بموقفهم من الخلافة العباسية، ونظراً لتنوع طوائف الشيعة فقد تنوعت مواقفهم بين تأييد، أو مناهضة، أو حيادية. أما شعراء الزهد، فقد انقطعوا عن ملذات الحياة، وانصرفوا إلى شؤون الآخرة، وتأثرت صورة الخلافة عندهم بموقفهم من الدنيا وزهدهم فيها. أما شعراء المجون والزندقة، فقد أظهروا التأييد للخلفاء العباسيين بهدف التكسب طلباً للتستر على تجاوزاتهم.

وتناولت الدراسة العوامل المؤثرة في صورة الخلافة؛ ومن ذلك العوامل الدينية والفكرية، وأثرها في مفهوم الصورة، فقد اختلفت هذه الصورة عند أهل السنة والجماعة عما

هي عليه عند الشيعة، كما اختلفت طوائف الشيعة فيما بينهم. أما الأحزاب الأخرى فقد تنوعت مواقفها كذلك.

وعالجت الدراسة أثر العوامل السياسية، وما أدى إليه ظهور الأحزاب والتيارات السياسية، في بيان هذه الصورة، وكشفت أثر العوامل الاجتماعية والعرقية، وما نجم عن هذا الخليط العرقي من تنوع في الطبقات، وأثر ذلك كله في صورة الخلافة. ومن خلال هذه العوامل مجتمعة تبين أن مفهوم الصورة قد تطور تبعاً لأثر هذه العوامل في نفوس الشعراء.

وقد خصص الفصل الأخير للدراسة الفنية من حيث تم توضيح مفهوم الصورة الفنية، والأسلوب واللغة والأفكار، وكان ذلك من خلال الأشعار التي وردت في هذه الدراسة. وختمت هذه الدراسة بخلاصة تبين أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة.

المقدمة:

يعد الشعر العربي، على مر عصوره، مرآة لواقع الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية، ويمثل من جهة أخرى، فلسفة من ينظمونه، وأفكارهم وتوجهاتهم. ولما ارتبط الشعر بالحياة العامة، وما تشتمل عليه من تعقيد أو بساطة؛ فإن الشعر في العصر العباسي، في القرنين الثاني والثالث الهجريين، قد تأثر بالحياة العامة التي كانت سائدة آنذاك.

وعندما نتكلم عن هذين القرنين، فإننا نتحدث عن أوج الحضارة الإسلامية، وما حققته من إنجازات على عدة أصعدة؛ فمن الناحية السياسية، بلغت الدولة العباسية، منتصف هذه الفترة، أوج قوتها، وسدّدت سهاماً مصمياً إلى أعدائها على المستويين الداخلي والخارجي؛ فعلى المستوى الداخلي، شهد العصر العباسي احتضار العديد من الأحزاب التي استنفدت جهود الدولة في القرن الأول الهجري؛ كالخوارج والعلويين. أما على المستوى الخارجي، فإن الدولة العباسية، في هذه الفترة، حققت إنجازات مهمة على صعيد تأمين الثغور الإسلامية، وتأديب الإمبراطورية البيزنطية. والحكايات التي تروى عن هارون الرشيد، مثلاً، الذي كان يحج سنة، ويغزو أخرى؛ أشهر من أن تذكر. ولعل التاريخ الأدبي يسعنا بالإشارة إلى الانتصارات التي حققها المعتمض على الروم، وفتحه لعمورية، على نحو ما خلده أبو تمام في رائعته البائية التي مطلعها:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعِبِ⁽¹⁾

[البسيط]

أما من الناحية الفكرية، فقد بلغت الحضارة الإسلامية، في هذين القرنين أوج تقدمها وازدهارها، حيث ازدهرت حركة الترجمة ونقل العلوم الأخرى إلى العربية، على نحو ما نجده في عصر المأمون. وكان من النتائج المباشرة لهذه النهضة العلمية، رقي الحياة العقلية، وظهور مختلف العلوم، كعلم الكلام، وما نجم عنه من مذاهب الاعتزال. كما وجدت بعض المذاهب الأخرى التي كانت بتأثير من الولاء السياسي أو الديني؛ فنشطت مذاهب الشيعة المختلفة.

(1) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: ديوانه. بشرح الخطيب التبريزي. ت محمد عبده عزام. دار المعارف. القاهرة. ط5. 40/1.

وأدت التطورات الحضارية إلى ظهور الترف، وأقصد به ترف الطبقة الخاصة، على حساب الطبقة العامة المحرومة التي كانت تقاسي شظف العيش، ولا تجد ما يقيم أودها. وأدى التفاوت الطبقي إلى ظهور تيارين متضادين، وهما تيار الترف واللهو والمجون، وتيار الزهد والتقشف. ولكل فريق أنصاره وشعراؤه. وقد صدح شعراء هذين القرنين بأشعار تعبر عن مواقفهم السياسية، أو المذهبية، أو الاجتماعية، أو الفكرية. وتعددت مواقفهم من الخلافة، تبعاً لهذه المتغيرات.

وقد حاولت في هذه الدراسة، بيان مواقف هؤلاء الشعراء من الخلافة العباسية، من خلال توضيح صورة الخلافة لدى شعراء هذين القرنين. وقد جعلت هذه الدراسة في مقدمة وثلاثة فصول، أتبعها بالخاتمة؛ ففي الفصل الأول وعنوانه: صورة الخلافة عند شعراء القرنين الثاني والثالث الهجريين. وتكون هذا الفصل من تمهيد حول نشأة الدولة العباسية، وأربعة مباحث، وهي:

المبحث الأول: الخلافة عند شعراء الدولة العباسية

المبحث الثاني: الخلافة عند شعراء الشيعة

المبحث الثالث: الخلافة عند شعراء الزهد

المبحث الرابع: الخلافة عند شعراء المجون واللهو والزندقة

أما الفصل الثاني، فتحدثت فيه عن العوامل المؤثرة في صورة الخلافة، وتألف من ثلاثة مباحث، هي:

المبحث الأول: العوامل الدينية والفكرية المؤثرة في صورة الخلافة.

المبحث الثاني: العوامل السياسية المؤثرة في صورة الخلافة.

المبحث الثالث: العوامل الاجتماعية والاقتصادية المؤثرة في صورة الخلافة.

وفي الفصل الثالث وعنوانه: دراسة فنية لشعر الخلافة، وفيه المباحث الآتية:

المبحث الأول: الصورة في شعر الخلافة.

المبحث الثاني: الأسلوب واللغة.

المبحث الثالث: الموسيقى الشعرية.

ثم ختمت الدراسة بخلاصة رصدت فيها أبرز النتائج.

ونظراً لأن الدراسة وصفية تحليلية، وتتعامل مع شعراء على مدار قرنين من الزمن، وبسبب اختلاف مذاهب هؤلاء الشعراء ووجهات نظرهم؛ فإن ذلك كله قد شجعني على التنوع في المصادر والمراجع لأتمكن من تغطية الموضوع على الوجه الذي يستحقه؛ فكانت من المصادر التي عدت إليها، مصادر في التفسير والحديث، ومصادر في التاريخ واللغة، ومصادر في تاريخ الأدب وكتب الأدب العامة، بالإضافة إلى كتب التراجم ودواوين الشعراء.

فمن كتب التاريخ اعتمدت بالدرجة الأولى على كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبري، نظراً لموثوقيته. أما كتب الأدب العامة، فاعتمدت بالدرجة الأولى، على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، نظراً لاهتمام مؤلفه بالفترة التي أدرسها من ناحية، وكون هذا الكتاب، من أهم المصادر التي استند إليها محققو دواوين شعراء هذه الفترة. ولم أنس أن أرجع باستمرار إلى تراجم الأعلام، وبشكل خاص إلى معجم الأعلام للزركلي؛ لأهمية هذا الكتاب، وإشارته إلى مراجع ومصادر يمكن الرجوع إليها. ومن أهم المراجع الحديثة التي عدت إليها، كتب الدكتور شوقي ضيف، مثل العصر العباسي الأول، والعصر العباسي الثاني، والفن ومذاهبه في الشعر العربي.

وإنني إذ أقدم لهذه الدراسة، لأرجو من الله أن أكون قد قدمت فيها كل ما هو جديد ومفيد.

تمهيد في معنى الخلافة:

الخلافة لغة: مأخوذة من الفعل "خلف"، ومن معاني الفعل ومشتقاته⁽¹⁾: خلف فلان فلاناً، إذا كان خليفته، وفي التنزيل: (وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي)⁽²⁾. وخلفته، إذا جئت بعده. ويقال: خلفت فلاناً أخلفه تخليفاً واستخلفته أنا، جعلته خليفتي. واستخلفه: جعله خليفة. والخليفة: الذي يستخلف ممن قبله. والجمع خلائف جاؤوا به على الأصل، مثل كريمة وكرائم. وأما سيبويه، فقال: خليفة وخلفاء، كسروه تكسير فعيل لأنه لا يكون إلا للمذكر. وقال ابن سيده: وأما خلائف فعلى لفظ خليفة. ونقول ثلاثة خلفاء، لا غير. ونقول: ثلاث خلائف أو ثلاثة خلائف؛ فمرة يذهب به إلى المعنى ومرة يذهب به إلى اللفظ.

والخلافة: الإمارة وهي الخليفة، وإنه لخليفة بين الخلافة والخليفة. الخلف: ما استخلفته من شيء، والولد الصالح يبقى بعد الإنسان. والخلف: القرن يأتي بعد القرن، والرديء من الكلام، نقول: سكت ألفاً ونطق خلفاً. ولا يكون الخلف إلا من الأخيار، قرناً كان أو ولداً، ولا يكون الخلف إلا من الأشرار.

الخلافة اصطلاحاً: ومن معانيها: رئاسة الدولة الإسلامية⁽³⁾. ويعرفها الماوردي في الأحكام السلطانية، بقوله: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"⁽⁴⁾. وعرفها آخرون: "رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا. أو بأنها خلافة الرسول في إقامة الدين، وحفظ حوزة الملة، بحيث يجب اتباع الخليفة على الأمة كافة"⁽⁵⁾. وعرفها ابن خلدون بقوله: "هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة. فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"⁽⁶⁾.

(1) ابن منظور: لسان العرب. دار صادر. بيروت. مادة خلف.

(2) سورة الأعراف: آية (142).

(3) القاسمي، ظافر: نظام الحكم في التشريع والتاريخ الإسلامي (الحياة الدستورية). ط 2. دار النفائس. بيروت. 1977م. ص 119.

(4) ابن منظور: لسان العرب. 9/ 83 - 85.

(5) موسى، محمد يوسف: نظام الحكم في الإسلام. ص 8 وما بعدها.

(6) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. ت حامد أحمد الطاهر. ط 1. دار الفجر للتراث. القاهرة. 2004م. 244.

الفصل الأول

الخلافة عند شعراء القرنين الثاني والثالث الهجريين

تمهيد في نشأة الدولة العباسية

المبحث الأول: الخلافة عند شعراء الدولة العباسية

المبحث الثاني: الخلافة عند شعراء الشيعة

المبحث الثالث: الخلافة عند شعراء الزهد

المبحث الرابع: الخلافة عند شعراء المجون واللهو والزندقة

تمهيد في نشأة الدولة العباسية:

مرت الدولة العباسية في نشوئها، بمراحل ثلاث، هي:

المرحلة الأولى: مرحلة التهيئة

لم تكن فكرة انتقال الخلافة إلى بني العباس واردة في الأذهان، أثناء الخلافة الراشدة، ولا فيما بعدها من خلافة بني أمية، ففي العصر الراشدي، كانت الخلافة تنتقل من خليفة إلى آخر بكل سلاسة ويسر، ومن دون أية مؤامرات أو ثورات.

فقد تولى أبو بكر الصديق الخلافة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وظل يحكم الأمة بأمر ربها ودينه، حتى وافته المنية⁽¹⁾، ليصبح عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين. ولم تظهر في خلافة عمر أدنى ثورة، على الرغم من أنه قتل غيلة. وقد استدعى عمر عند وفاته نفراً من الصحابة الذين توفي الرسول وهو راض عنهم، وأوكل إليهم اختيار خليفة من بينهم، وتم اختيار الخليفة عثمان بن عفان⁽²⁾.

وفي أواخر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، بدأت الفتن بالظهور؛ وكانت الذرائع المعلنة - حينئذ - شكوى فساد العمال، وتحكمهم في رقاب المسلمين، وعلى الرغم من أن عثمان رضي الله عنه، قد رد عليهم رداً حسناً، ووعدهم خيراً، إلا أن الفتن، في نهاية المطاف، أودت بحياته لما اقتحم الثائرون بيته وقتلوه⁽³⁾.

ولما تولى الخلافة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، سنة (35) هـ، ثار في وجهه بعض المسلمين، ممن لم يبايعوه؛ كعواوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وعائشة أم المؤمنين. وقد كانت الدوافع التي تعطل بها هؤلاء الثائر لعثمان بن عفان. وتخللت هذه الفتن حربان ضروسان: هما معركة

(1) توفي أبو بكر في العام الثالث عشر للهجرة عن ثلاثة وستين عاماً. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك. ط 1. 348 / 2. 1407هـ

(2) اغتيل عمر بن الخطاب، في العام (23) للهجرة، على يد أبي لؤلؤة المجوسي. المصدر السابق. 360 / 2، 361.

(3) السيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين: تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. بيروت. 1989م. ص 179.

الجمال، ومعركة صفين. وإن كانت معركة الجمل⁽¹⁾ قد انتهت بانتصار علي وفرار أصحاب عائشة – رضي الله عنهما – إلا أن معركة صفين قد انتهت بقبول ما سمي حينئذ بالتحكيم⁽²⁾.

وقد رأى الخوارج (الذين خرجوا على علي لقبوله التحكيم) أنه لا مفر من خلع علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص؛ من أجل حقن دماء المسلمين، فتعاهدوا على قتلهم، فقتل علي سنة (40) هـ، ونجا معاوية وعمرو من الاغتيال، فانتهى بذلك عهد الخلافة الراشدة⁽³⁾.

وبعد مقتل علي بن أبي طالب انتهت الخلافة الراشدة ليبدأ عهد الخلافة الأموية بخلافة معاوية بن أبي سفيان، وعلى الرغم من أن الحسن بن علي بن أبي طالب بوبع له بالخلافة بعد مقتل أبيه، إلا أنه تنازل عنها لمعاوية حقناً لدماء المسلمين. وبذلك بدأ عهد الدولة الأموية الذي استمر حتى أطاح بهم العباسيون في العام (132) هـ⁽⁴⁾.

ولما أوصى معاوية ليزيد بالخلافة، أباي الحسين بن علي بن أبي طالب أن يبايعه، ودعا أهل العراق الحسين إليهم ليعهدوا إليه بالخلافة، فأرسل يزيد بن معاوية جيشاً كبيراً إلى الكوفة لقتال الحسين الذي خذله أصحابه كما خذلوا أباه من قبل، وقتل في يوم عاشوراء مع ستة عشر نفرًا من أهل بيته⁽⁵⁾.

وفي سنة (64) هـ، ثار أهل المدينة ومكة على يزيد لإتيانه المعاصي؛ فوجه إليهم جيشاً كبيراً، وحاصر جيش الأمويين مكة، فجاء الخبر بوفاة يزيد فانفض جيش الأمويين، وتسمى عبد الله ابن الزبير بالخلافة؛ فبايعه الناس إلا الشام ومصر، وظل خليفة حتى أرسل إليه عبد الملك بن مروان جيشاً كبيراً بقيادة الحجاج، فقتل ابن الزبير في العام (73) هـ⁽⁶⁾.

(1) بلغ عدد القتلى في معركة الجمل (10) آلاف جندي. الطبري: تاريخ الأمم والملوك . 58 / 3.

(2) لما شارف أصحاب معاوية على الهزيمة لجأ معاوية وجنده إلى حيلة رفع المصاحف، في تعبير عن تحكيمهم للقرآن في القضية. وانتهى التحكيم بحيلة عمرو بن العاص حينما انتظر فراغ أبي موسى الأشعري من خلع علي، فعهد إلى معاوية.

وظهر بعد ذلك ما سمي بالخوارج الذين رفضوا التحكيم. المصدر السابق. 110 / 3، وما بعدها.

(3) قتل علي سنة (40) للهجرة على يد عبد الرحمن بن ملجم. المصدر السابق. 161 / 3.

(4) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص222. والطبري: تاريخ الأمم والملوك. 164 / 3.

(5) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 234، 235.

(6) ينظر في ذلك الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 360 / 3 وما بعدها. والسيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 237-241.

وبعد مقتل الحسين، صار الشيعة ينادون بإمامة محمد بن الحنفية، وهو الابن الثالث لعلي ابن أبي طالب، ولم تغلح جهود أبناء علي في الوصول إلى الخلافة طوال العهد الأموي، في حين أن أحداً لم يكن ينادي بإمامة أحد من أبناء العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم.

ولم يصبح موضوع إمامة أحد من أبناء العباس مطروفاً إلا عندما لمع اسم " علي بن عبد الله بن عباس"؛ إذ كان " أبو هاشم ابن محمد بن الحنفية " قد عهد بنصيبه من الخلافة إلى علي هذا عندما كانا مقيمين في "الحميمة"⁽¹⁾، فصارت الشيعة الكيسانية في جانب علي بن عبد الله بن عباس⁽²⁾.

وأوصى علي قبل وفاته بالخلافة من بعده لابنه محمد. وقد رأى محمد هذا، "أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبق بإعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل، وأن كل محاولة فجائية لا بد أن تكون عاقبتها الفشل، فرأى أن يسير الناس في المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم؛ فعهد إلى شيعته أن يؤلفوا دعاة يدعون الناس إلى الرضا من آل البيت، دون أن يسموا أحداً خوفاً من بني أمية أن يقضوا على المدعو إليه إذا عُرِف، ورأوا أن أحسن منطقة ييثون فيها الدعوة، هي الكوفة وخراسان. أما الكوفة، فهي مهد التشيع لأهل البيت من قديم؛ فيمكنهم أن يأووا إليها، ويجعلوها نقطة مواصلاتهم. وأما خراسان، فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين: الأول: أن فكرة التشيع يفهمها الخراساني من المسلمين بسهولة؛ لأن مؤداها نقل الخلافة إلى بيت النبي. والثاني: أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين؛ ولذلك فائدة كبيرة في حياة النفوس، وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد⁽³⁾.

ولما توفي محمد هذا انتقل ولاء الشيعة إلى ابنه إبراهيم. وكان من أبرز دعاة الشيعة في الكوفة آنذاك بكير بن ماهان⁽⁴⁾.

(1) بلد من أرض الشراة من أعمال عمان في أطراف الشام. ينظر ذلك: الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن ياقوت: معجم البلدان. بيروت: دار الفكر.

(2) الخضري، محمد بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية. ط1. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية. 1995م. ص 13.

(3) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية. ص 16، 17.

(4) بكير بن ماهان أبو هاشم الحارثي أحد دعاة بني العباس؛ قدم على محمد بن علي بن عبد الله بن عباس إلى البلقاء وأقام عنده وأخذ عنه. ينظر في ذلك الوافي في الوفيات. 1/ 1420.

ولما توفي بكير شيخ الشيعة بالكوفة، أقام إبراهيم بن محمد بن حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال مكانه⁽¹⁾.

وهكذا بدأت تظهر إلى الوجود الدعوة إلى أبناء العباس، ومن أجل تقوية الدولة عمل إبراهيم على تأمين مركزين للدعوة: أحدهما في الكوفة لوجود كثير من الشيعة هناك، والآخر في خراسان لبعدها عن مقر الخلافة من ناحية، ولكون الأمويين كانوا يعاملون غير العرب معاملة دونية، فأحفظهم ذلك، ورأوا أن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبوة⁽²⁾.

ثم اتصل إبراهيم بن محمد بشاب من خراسان، وهو أبو مسلم الخراساني، وكان ظاهر النجابة فولاه خراسان؛ فصار يعمل أبو مسلم على جعلها قاعدة للخلافة العباسية، وأوصاه بقوله: "يا عبد الرحمن، إنك رجل منا أهل البيت، فاحفظ وصيتي، وانظر إلى هذا الحي من اليمن، فأكرمهم، وحلّ بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر إلى هذا البيت من ربيعة، فاتهمهم في أمرهم، وانظر إلى هذا الحي من مضر، فإنهم العدو القريب، فاقتل من شككت فيه، ومن كان في أمره شبهة... وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل"⁽³⁾.

وهكذا، كانت الدعوة العباسية، ومنذ بداية عهدها، تعتمد اعتماداً كبيراً على العنصر غير العربي، وهي بذلك تلعب على الوتر الحساس الذي عاناه غير العرب من الاضطهاد زمن الدولة الأموية، وهو ما جعل أهل الأمصار يوالون الدعوات الخارجة على الدولة الأموية، ومنها الدعوة العباسية؛ فكانت خراسان مهد الدعوة العباسية ومنها انطلقت ثورتهم.

وقد جدّت أمور مهمة في السنوات السبع التي سبقت الإطاحة بالدولة الأموية، ومنها استتباب الأمور في خراسان لأبي مسلم الخراساني، داعية العباسيين وقائد جيوشهم. واختلاف البيت الأموي وانشغال أقطابه بالصراعات بينهم. ويروى السيوطي⁽⁴⁾ أنه لما توفي يزيد بن عبد الملك، كان ابنه الوليد ما زال صغيراً، فأوصى بالخلافة من بعده لأخيه هشام، على أن يكون الوليد ابن يزيد خليفة من

(1) الخضري، محمد بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية. ص 22.

(2) الخضري: مرجع سابق. ص 16.

(3) الخضري، مرجع سابق. ص 23.

(4) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 125 - 127.

بعده. ولما توفي هشام في العام (125) هـ تقلد الخلافة الوليد بن يزيد، وكان فاسقاً ماجناً، وقد استغل العباسيون ذلك في دعوتهم ضد الأمويين. ثم ما لبث أن انقلب الأمويون على الوليد بن يزيد، وقتلوه، وتولى الخلافة من بعد يزيد بن الوليد الملقب بالناقص؛ لأنه نقص الجند من أعطياتهم⁽¹⁾، ولم يتمتع بالخلافة كثيراً؛ فكانت خلافته ستة أشهر ناقصة، وأوصى من بعده إلى أخيه إبراهيم بن الوليد الذي لم تستمر خلافته أكثر من سبعين ليلة؛ إذ ثار عليه مروان بن محمد ابن الحكم، الملقب بمروان الحمار⁽²⁾ في العام (127) هـ، وهكذا، بلغ التفكك في الأسرة الأموية حداً بحيث تعاقب على الخلافة خلال سنتين فقط (127-125) أربعة خلفاء. واستمرت خلافة مروان بن محمد حتى أطاح به العباسيون في العام (132) هـ.

المرحلة الثانية: مرحلة قيام الدولة

على الرغم من أن الدعوة العباسية كانت، في بادئ أمرها، سرية؛ إلا أن اتساع رقعتها، وكثرة أتباعها جعلت من بقائها سرية أمراً غير واقعي. وقد ترددت الأخبار إلى مروان آخر خلفاء بني أمية، وإن كانت في وقت متأخر جداً، أن هناك دعوة لخلافة بني العباس، وتحقق من الأمر؛ فدلَّ على إبراهيم بن محمد.

ويذكر ابن كثير أن مروان اطلع على كتاب من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني يأمر فيه بأن لا يبقى أحداً بأرض خراسان ممن يتكلم بالعربية إلا أباده، فلما وقف مروان على ذلك سأل عن إبراهيم: فقيل له: هو في البلقاء؛ فكتب إلى نائب دمشق أن يحضر، فبعث نائب دمشق بريداً ومعه وصفته ونعته، فذهب الرسول فوجد أخاه أبا العباس السفاح، فاعتقد أنه هو فأخذه فقيل له إنه ليس به إنما أخوه، فدل على إبراهيم فأخذه، وأوصى إلى أهله أن يكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة فارتحلوا من يومهم إليها... فلما دخلوا الكوفة، أنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم، وكنتم أمرهم نحواً من أربعين ليلة عن القواد والأمرء، ثم ارتحل بهم

(1) أول من لقبه بالناقص هو مروان بن محمد الملقب بالحمار، ثم لقبه الناس بذلك. الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 4/ 252.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية. 6/ 247.

إلى موضع آخر، ثم لم يزل ينقلهم من مكان إلى مكان، حتى فتحت البلاد، ثم بويع للسفاح، أما إبراهيم بن محمد الإمام فإنه سير به إلى أمير المؤمنين في ذلك الزمان مروان بن محمد وهو بحران فحبسه، وما زال في السجن إلى أن مات في صفر منها في السجن عن ثمان وأربعين سنة⁽¹⁾.

أما ما كان من أمر الدعوة العباسية في خراسان، فإن الأمور هناك، استتبت لأبي مسلم الخراساني بعد أن أوقع العداوة والحرب بين القبائل المضرية واليمينية حتى وهن الطرفان؛ فثار حينئذ أبو مسلم على والي خراسان للأمويين الذي استتجد بدوره بالخليفة مروان وعامله على العراق ابن هبيرة، ولكنهما كانا في شغل عنه في حروب الخوارج، فصارت الحواضر الخراسانية تسقط الواحدة تلو الأخرى في يد أبي مسلم الخراساني، حتى تم له الأمر هناك، ثم أرسل بقائده قحطبة⁽²⁾ لمنازلة عامل الأمويين على العراق ابن هبيرة، وقتل قحطبة في إحدى المعارك⁽³⁾، وخلفه ابنه الحسن، وما لبثت أن دارت الدوائر على ابن هبيرة، فهرب هو وقائده ابن نباتة، مخلفين وراءهم غنائم كثيرة، احتملها الحسن وأصحابه على السفن إلى الكوفة، لتظهر هناك الحكومة السرية لبني العباس، بقيادة وزيرهم أبي سلمة الخلال⁽⁴⁾.

وقد نودي في الكوفة بأبي العباس السفاح (وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب) خليفة، وذلك ليله الجمعة لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر⁽⁵⁾.

أما مروان، فإنه لما بلغه خبر أبي مسلم وأتباعه وما جرى بأرض خراسان، تحول من حران، فنزل على نهر قريب من الموصل، يقال له الزاب من أرض الجزيرة، ثم لما أبلغ أن السفاح قد بويع له بالكوفة، والتف عليه الجنود واجتمع له أمره، شق عليه جدا وجمع جنوده، فتقدم إليه أبو عون بن أبي يزيد في جيش كثيف، وهو أحد أمراء السفاح، فنازله على الزاب وجاءته الإمداد من جهة السفاح ثم ندب السفاح الناس ممن يلي القتال من أهل بيته، فانتدب له عبد الله بن علي فقال: سر على بركة الله، فسار في جنود كثيرة... وتقدم عبد الله بن علي بجنوده حتى واجه جيش مروان، ونهض مروان

(1) ابن كثير: البداية والنهاية. 10/39، 40.

(2) اسمه زياد بن شبيب. ينظر في ذلك الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 4/320.

(3) يرى الطبري أن معن بن زائدة قتل قحطبة في إحدى المعارك. المصدر السابق. 4/340.

(4) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية. ص 23 - 27.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية. 10/340.

في جنوده وتصاف الفريقان في أول النهار، ويقال إنه كان مع مروان يومئذ مئة ألف وخمسون ألفاً، ويقال مئة وعشرون ألفاً وكان عبد الله ابن علي في عشرين ألفاً فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : إن زالت الشمس يومئذ ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى بن مريم، وإن قاتلونا قبل الزوال فإننا لله وإنا إليه راجعون، ثم أرسل مروان إلى عبد الله بن علي يسأله المواعدة فقال عبد الله كذب ابن زريق لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله وكان ذلك يوم السبت لإحدى عشر ليلة خلت من جمادي الآخرة من هذه السنة ... وبدأ القتال ثم ما لبث أن انهزم أهل الشام، واتبعتهم أهل خراسان في أديارهم يقتلون ويأسرون وكان من غرق من أهل الشام أكثر ممن قتل، وكان في جملة من غرق إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع⁽¹⁾.

ويذكر السيوطي: أنه لما انكسر مروان قرب الموصل "رجع إلى الشام، فتبعه عبد الله، ففر مروان إلى مصر، فتبعه صالح أخو عبد الله، فالتقيا بقرية بوصير، فقتل مروان بها، في ذي الحجة من السنة نفسها"⁽²⁾.

المرحلة الثالثة: مرحلة توطيد دعائم الدولة

اتسمت الدولة العباسية، منذ بداية نشأتها، بتغلغل الصراعات فيها؛ نتيجة لتعدد مراكز القوى المتنافسة فيما بينها، وقد ظهرت هذه المنافسة في وقت مبكر، حتى قبل قيام الدولة في العام (132) هـ. ومن أهم الأقطاب التي تخلص منها العباسيون منذ بداية عهدهم:

أبو سلمة الخلال:

يعد أبو سلمة الخلال، أحد أهم دعائم الدعوة العباسية، وكان يميل إلى جعل الخلافة في آل علي بن أبي طالب، ويروي الخضري أن أبا سلمة قد راسل بعض أعيان آل علي، وهم جعفر الصادق، وعبد الله المحض، وعمر الأشرف، وعرض عليهم البيعة للخلافة، ولكنهم رفضوا طلبه؛ لعلمهم بأن

(1) ابن كثير: البداية والنهاية. 10/42، 43.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 296.

الأمر سيسير إلى العباسيين⁽¹⁾، وقد أحس أبو مسلم بذلك، فحقد عليه منذ ذلك الحين. ويذكر ابن كثير أنه "لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد، "أراد أبو سلمة الخلال أن يحول الخلافة إلى آل علي ابن أبي طالب فغلبه بقية النقباء والأمراء وأحضروا أبا العباس السفاح وسلموا عليه بالخلافة وذلك بالكوفة وكان عمره إذ ذاك ستا وعشرين سنة وكان أول من سلم عليه بالخلافة أبو سلمة الخلال"⁽²⁾.

ولما تولى الخلافة أبو العباس السفاح، أراد أن يفتك بأبي سلمة الخلال، ولكنه أراد إطلاع أبي مسلم الخراساني، والوقوف على حقيقة موقفه من ذلك؛ فأرسل إليه أخاه أبا جعفر المنصور، فأخبره بخبر أبي سلمة. فقال أبو مسلم: أنا أكفيكموه، وبعث إليه برجل وطلب إليه قتله أينما وجدته، ففعل⁽³⁾. ولم يتم الاكتفاء بذلك بل أرسل أبو مسلم الخراساني من يقتل عمال أبي سلمة كافة، فتم له ما أراد⁽⁴⁾. وبذلك تم التخلص من أهم المنافسين للخليفة العباسي في عهد أبي العباس السفاح.

عبد الله بن علي عم أبي العباس السفاح:

وقد كان عبد الله بن علي قدم على ابن أخيه السفاح الأنبار، فأمره على الصائفة فركب في جيوش عظيمة إلى بلاد الروم فلما كان ببعض الطريق بلغه موت السفاح فكر راجعا إلى حران ودعا إلى نفسه وزعم أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى الشام أن يكون ولي العهد من بعده⁽⁵⁾.

ولما علم عبد الله بن علي بأن المنصور أخذ البيعة بالخلافة لنفسه، أبقى ذلك وتسمى بالخلافة وهو في حران آنذاك⁽⁶⁾. فما كان من المنصور إلا أن وجه إليه أبا مسلم الخراساني في جيش كثيف. وقد التقى الطرفان في حران واقتتلوا خمسة أشهر، وعلى الرغم من أن جيش عبد الله كان أوفر عدداً وعدة، إلا أن الجيش الخراساني بقيادة أبي مسلم تمكن من الفتك به وإلحاق الهزيمة به وذلك سنة (137) هـ⁽⁷⁾.

(1) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية. ص 28.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية. 40 / 10.

(3) الخضري: مرجع سابق. ص 52. وابن كثير: البداية والنهاية. 53 / 10.

(4) ابن كثير: مرجع سابق. 55 / 10.

(5) ابن كثير: مرجع سابق. 61 / 10. والطبري: تاريخ الأمم والملوك. 4 / 377.

(6) الخضري: مرجع سابق. ص 56.

(7) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 4 / 377-379.

ولم يجد عبد الله بدأً من الفرار، ففر إلى البصرة، وتخفى عند أخيه سليمان بن علي. ولما علم المنصور به، أرسل إلى أخيه سليمان بأشخاصه إليه، فجاءه به، فحبسه حتى مات سنة (147) هـ⁽¹⁾.

أبو مسلم الخراساني:

بعد هزيمة عبد الله بن علي، أصبح أبو مسلم الخراساني صاحب الشوكة والسلطان في الدولة العباسية؛ فعلى يديه تم إخضاع خراسان وانضوائها تحت لواء العباسيين، وهو الذي هزم عبد الله بن علي، كما ورد سابقاً، وقد راودت المنصور كثير من الشكوك حول نفوذ أبي مسلم، فصمم على هدم هذا الصرح الذي يهدد ملكه. ويروي الخضري أنه بلغ المنصور أن "أبا مسلم لا يحترم كتبه ويستهزئ بها إذا وردت إليه؛ فصمم على الفتك بأبي مسلم"⁽²⁾. ويذكر الطبري كذلك أن أبا مسلم "يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين فيقرؤه ثم يلوي شدقه ويرمي بالكتاب إلى أبي نصر فيقرؤه ويضحك استهزاء"⁽³⁾.

ومهما تكن الأسباب؛ فإن أبا جعفر المنصور صمم على التخلص من أبي مسلم؛ ليسهل عليه سياسة الناس، من دون منافسة. أما الحادثة التي جعلت المنصور يعجل بتنفيذ قرار التخلص من أبي مسلم، فهي أنه لما جاء رسول من المنصور إلى أبي مسلم لإحصاء الغنائم التي كسبها بعد هزيمته لجيش عبد الله بن علي؛ غضب أبو مسلم، وهم بقتل الرسول، وقال: أأكون أميناً على الدماء، ولا أكون أميناً على الأموال. ولما علم المنصور بذلك اتخذ قراراً بالتعجيل في حسم قضية أبي مسلم⁽⁴⁾.

فخشي المنصور أن يتوجه أبو مسلم إلى خراسان، ويصبح القضاء عليه أمراً عسيراً؛ فكتب إليه أنه يوليه مصر والشام ليكون قريباً من أمير المؤمنين، فغضب أبو مسلم، وكتب إلى المنصور: "أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء"⁽⁵⁾.

عند ذلك لجأ المنصور إلى الحيلة، متخذاً من الترغيب والترهيب وسيلة لإحضار أبي مسلم إليه، فجاء إليه أبو مسلم، وكان المنصور قد أعد أربعة من الحرس خلف الرواق، وأمرهم بالخروج

(1) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية. ص 57.

(2) الخضري: مرجع سابق. ص 58.

(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 4 / 381.

(4) الطبري: مصدر سابق. 4 / 381. والخضري: مرجع سابق. ص 58.

(5) الطبري: مرجع سابق. 4 / 382.

وقتل أبي مسلم فور سماعهم تصفيق الخليفة⁽¹⁾. وبهذه الطريقة تم التخلص من الرجل الذي وهب حياته لخدمة الدعوة العباسية، والإطاحة بأعدائها.

محمد بن عبد الله من آل الحسن بن علي بن أبي طالب:

كان محمد بن عبد الله، وأخوه إبراهيم قد تخلفا عن الحضور إلى الرشيد عام حج في عهد ولاية أخيه السفاح، ولم يكونا من بين الهاشميين الذين حضروا إليه، فأضمر المنصور ذلك في نفسه⁽²⁾.

وقد اختفى محمد وإبراهيم عن المنصور الذي حاول جاهداً التعرف إلى أخبارهما دون جدوى؛ فحبس آل الحسن⁽³⁾. ويذكر الطبري أنه لما "ولى أبو جعفر رياح بن عثمان بن حيان المري المدينة، أمره بالجد في طلب محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن، وقلة الغفلة عنهما"⁽⁴⁾.

وقد لجأ المنصور إلى الحيلة لإخراج محمد، فكان يكتب له الكتب على أسنة قواده يدعونه فيها إلى الخروج، وأن الناس والقواد معه؛ فوقع محمد في الفخ؛ فظهر في المدينة ونادى بنفسه خليفة، وكان قد اتفق مع أخيه إبراهيم بالظهور في البصرة على نحو متزامن، لكن إبراهيم تأخر لعلة أصابته. ومهما يكن من أمر، فإن المنصور وجه جيشاً لمحمد ثم لإبراهيم وقضى على ثورتها، وكان ذلك في العام (145) هـ⁽⁵⁾. وبمقتلها استقر ملك العباسيين، وبذلك عدَّ المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية.

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 4 / 384.

(2) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية. ص 61.

(3) المصدر السابق. ص 62.

(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 4 / 420.

(5) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية. ص 68، 69.

المبحث الأول

الخلافة عند شعراء الدولة العباسية

تأثرت الخلافة عند شعراء الدولة العباسية بأمر عدة من بينها: اهتمام الخلفاء العباسيين بالشعر والشعراء، وازدهار الشعر في القرنين الثاني والثالث الهجريين، والظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي سادت في تلك الفترة.

فمن ناحية اهتمام الخلفاء العباسيين بالشعر والشعراء فإن الشواهد على ذلك من الكثرة بمكان بحيث لا يسعني في هذا المقام أن أعمد إلى ذكرها أو حصرها، ولا أدل على ذلك من أن الخلفاء والأمراء في تلك الحقبة كانوا يولكون مهمة تربية أبنائهم إلى كبار اللغويين والأدباء، ولا يفوتنا أن نذكر أن المفضليات (القوائد المختارة التي جمعها المفضل الضبي) قد جمعت من أجل تأديب المهدي ولي عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد. وتشتمل هذه المجموعة الرائعة على نحو من (128) أو (130) قصيدة من شعر الشعراء الفحول⁽¹⁾.

ومن الأمثلة على عناية الخلفاء العباسيين بالشعر كذلك ما ذكره الأصفهاني في كتابه الأغاني: "قال مروان بن أبي حفصة⁽²⁾ قدمت البصرة فأنشدت بشار⁽³⁾ قصيدة لي واستنصحتني فيها فقال لي: ما أجودها تقدم بغداد فتعطي عليها عشرة آلاف درهم فجزعت من ذلك، وقلت: قتلنتي. فقال: هو ما أقول لك، وقدمت بغداد، فأعطيت عليها عشرة آلاف درهم. ثم قدمت عليه قدمة أخرى فأنشده قصيدتي: (طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خِيَالَهَا ...) فقال تعطي عليها مئة ألف درهم. فقدمت، فأعطيت مئة ألف درهم. فعدت إلى البصرة فأخبرته بحالي في المرتين، وقلت له: ما رأيت أعجب من حدسك"⁽⁴⁾.

ويورد شوقي ضيف قصصاً أخرى منها، أن "خلفاء بني العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم، وبعثوا العلماء على مدارستها والتعمق فيها، ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأخبار وأشعار. وقد جعلوا مقياس وظائفهم الكبرى التفوق فيها؛ فكانوا لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا

(1) جامعة القدس المفتوحة: مصادر الدراسة الأدبية واللغوية. ص54، 55. 2007م.

(2) شاعر مجيد من شعراء العباسيين سيرد تفصيل ذكره في الصفحات القادمة بإذن الله.

(3) هو بشار بن برد وسيأتي ذكره.

(4) الأصفهاني، أبو الفرج: كتاب الأغاني. ت سمير جابر. ط2. دار الفكر. بيروت. 219/3.

من حذقها وبرع في أدائها...وبذلك سرى في القصر العباسي ذوق محافظ كان له أثره في الشعراء، إذ كانوا يمثلون بين أيدي الخلفاء مادحين لهم⁽¹⁾.

وذكر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه "الآداب العربية في العصر العباسي الأول" أن "أبا دلامة⁽²⁾ أقبل على المنصور فأشده:

لَوْ كَانَ يَفْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ لَقِيلَ اقْعُدُوا يَا آلَ عَبَّاسٍ
ثُمَّ ارْتَقُوا فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ كُلِّكُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَأَنْتُمْ أَطْهَرُ النَّاسِ⁽³⁾

[البسيط]

فهزَّ أريحيته، وأنساه حرصه وتشدده، فقال له: بأي شيء تجد أن نعينك؟ فقال: تملأ لي هذه الخريطة دراهم، فملئت فوسعت أربعة آلاف درهم⁽⁴⁾.

وقد أدى اهتمام الخلفاء العباسيين بالشعر والشعراء إلى ازدهار الشعراء على بلاطهم وأبوابهم، ونيلهم مكانة مرموقة من قلوب الخلفاء ومن جيوبهم أيضاً، ويذكر أنه لم يجتمع على باب أحد من الملوك ما اجتمع على باب المأمون والرشيد من الشعراء. وقد بلغ من منزلة الشعراء أنهم كانوا يحتكمون في أموال الخلفاء ويفرطون في الدالة عليهم، ويشفعون فيما لا ترجى الشفاعة فيه، فيفكون رقاب العناة، ويجيرون من الموت. ويروى أن الرشيد أجاز مروان بن أبي حفصة مرة على قصيدة له خمسة آلاف دينار، وخلعة وفرساً من مراكبه، وعشرة من رقيق الروم. ويقول الجاحظ: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره: وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف رحمه الله، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه، وحاجبه الفضل بن الربيع⁽⁵⁾.

وقد أدت المبالغة في الجوائز والهبات للشعراء إلى المبالغة في المدح، ومن الأمثلة على ذلك قول الحسين بن مطير مادحاً المهدي:

(1) ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول، ط2.. القاهرة: دار المعارف. ص139.

(2) سيأتي ذكره.

(3) السيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. بيروت. 1989م. ص 229.

(4) خفاجي، محمد عبد المنعم: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ط1. بيروت: دار الجيل. 1992م. ص 90.

(5) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ت محمد محيي الدين عبد الحميد. ص329.

لَوْ يَعْبُدُ النَّاسُ يَا مَهْدِيَّ أَفْضَلَهُمْ مَا كَانَ فِي النَّاسِ إِلَّا أَنْتَ مَعْبُودٌ
أَضْحَتْ يَمِينُكَ مِنْ جُودٍ مُصَوَّرَةٍ لَا بَلَّ يَمِينُكَ مِنْهَا صُورَ الْجُودِ
لَوْ أَنَّ مِنْ نُورِهِ مِثْقَالَ خَرْدَلَةٍ فِي السُّودِ طَرّاً إِذْنَ لَابْيَضَّتِ السُّودُ⁽¹⁾

[البسيط]

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل كانوا يشترطون في الجواري التي تعيش في قصورهم أن تكون على جانب من الثقافة والأدب، وربما شاعرة أيضاً، ويذكر السيوطي موقفاً على ذلك بقوله:

أهديت إلى المتوكل جارية شاعرة اسمها فضل، فقال لها: أنشدنا من شعرك، فقالت:

اسْتَقْبَلَ الْمَلِكُ إِمَامَ الْهُدَى عَامَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ
خِلَافَةً أَفْضَلَتْ إِلَى جَعْفَرٍ وَهُوَ ابْنُ سَبْعٍ بَعْدَ عِشْرِينَ
إِنَّا لَنَرْجُو يَا إِمَامَ الْهُدَى أَنْ تَمْلِكَ الْمُلْكَ ثَمَانِينَ
قَدَسَ اللَّهُ امْرَأً لَمْ يَقْتُلْ عِنْدَ دَعَائِي لَكَ: آمِينَ⁽²⁾

[المديد]

أما من ناحية ازدهار الشعر في القرنين الثاني والثالث الهجريين، فإن حركة التدوين التي نشطت في مرحلة مبكرة، قد أمدت الشعراء بالنامذج الشعرية القديمة، فضلاً عن السماح لهؤلاء الشعراء بالتعرف إلى مدى ملاءمة التقاليد الموروثة في الشعر للبيئة الحضرية الجديدة في القرنين الثاني والثالث الهجريين. فقد "انشغل علماء اللغة والرواية بجمع اللغة من مصادرها المختلفة، واستخدموها في دراسة القرآن الكريم... على أن الشعر الذي كان عنصراً أساسياً من عناصر تفسير القرآن الكريم، يمثل أيضاً قيمة في ذاته؛ فقد كان يحفل بتاريخ العرب ومآثرهم، مثلما هو مستودع أخبارهم"⁽³⁾.

وكان الرواة واللغويون يؤمنون بأن تهذيب سليقة الشعراء أو أهل الحضر عموماً لا يتأتى إلا إذا أمدهم بالنامذج اللغوية القديمة الأصيلة؛ لإيمانهم بأن الشعر القديم هو القدوة المثلى "ولم يعرض

(1) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ترجمة محمد يوسف نجم. ت إحسان عباس. دار مكتبة الحياة. بيروت. 1959م. ص 77.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 400.

(3) جامعة القدس المفتوحة: مناهج النقد الأدبي عند العرب. ط1. عمان 1997م. ص 65.

هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب، بل كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذج العويصة المليئة بالحوشي والألفاظ الغريبة، ومضوا فجعلوها مدار إملأاتهم ومحاضراتهم⁽¹⁾. ويقول الجاحظ: "لم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إغراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج"⁽²⁾.

وقد أدى عمل اللغويين والرواة هذا إلى تثقيف الشعراء بالعربية والأصول القديمة في الشعر، حتى أننا صرنا نجد شعراء من أصول غير عربية ولكنهم يتقنون اللغة العربية كأبي نواس مثلاً الذي حذق العربية وبرع فيها، وبشار بن برد الذي نشأ في بني عقيل وأخذ عنهم الفصاحة. لذلك صار الشاعر العباسي يحول إلى نفسه كل نماذج الشعر القديم، يعينه في ذلك اللغويون بما يعرضون عليه منها، لدرجة أن اللغويين لم يضعوا للشعراء أقيسة اللغة في الاشتقاق والتصريف والنحو، بل أساليب التعبير وفنون القول. ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن اللغويين هيؤوا للشاعر العباسي من العلم بالشعر القديم ما لم يكن يتهيأ لأصحابه أنفسهم⁽³⁾.

ومن الجدير ذكره أن إتقان غير العرب كبشار بن برد، وأبي نواس للغة العربية، لا يقتصر أثره في هذين الشاعرين، أو ما شاكلهما، بل إن أثر ذلك ظهر في الشعر العربي كله، وبخاصة أن العناصر غير العربية التي أتقنت العربية، تمكنت من نقل ثقافات شعوبها وأمها إلى العربية، وهو ما أدى إلى تطور المعاني الشعرية وعمق الأفكار الفلسفية في العصر العباسي على نحو ما يظهر عند أبي تمام مثلاً أو ابن الرومي.

وبذلك يكون الشعر في العصر العباسي وبخاصة في القرنين الثاني والثالث الهجريين قد شهد ازدهاراً وتطوراً كبيرين، في موضوعات الشعر القديمة وما تم تجديده فيها، وفي استحداث موضوعات جديدة لم تكن مطروقة من قبل. وتطورات متعلقة باستهلال القصيدة العربية ومطلعها، وما أثير من قضايا تتعلق بذلك، ناهيك عن التطورات المتعلقة بمعاني الشعر وأفكاره⁽⁴⁾.

(1) ضيف: العصر العباسي الأول. ص 138.

(2) الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين. 4/ 138.

(3) ضيف: العصر العباسي الأول. ص 145، 146.

(4) ينظر في ذلك ضيف: العصر العباسي الأول. ص 138 وما بعدها.

وفيما يتعلق بالظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي سادت العصر العباسي؛ فإن تلك الظروف قد ألفت بظلالها على صورة الخلافة في تلك الفترة؛ فمن ناحية نجد شعراء قد نذروا أنفسهم لخدمة الخلفاء العباسيين ومدحهم، والرد على خصومهم كأبي تمام، ومروان بن أبي حفصة، والبحتري، وعلي بن الجهم، ومن ناحية أخرى نجد شعراء آخرين يقفون ضد الدولة العباسية، ويتمثلون أفكاراً معادية لخلفائها، كالعلويين الذين كان لهم شعراؤهم، والمذاهب والأفكار الخارجة عن الدولة التي كان لها شعراء ينظرون لهذه المذاهب والأفكار ومن ذلك الزنادقة والشعوبيون⁽¹⁾.

وبين هذه الفئة وتلك، نجد شعراء قد ترددوا بينهما؛ فتارة نراهم يمتدحون الخلفاء، وأخرى نراهم في موقف آخر. ومما لا شك فيه أن إغداق الأموال والعطايا على الشعراء كان له أثر كبير في ذلك عند بعض الشعراء، وربما كان السبب عند شعراء آخرين هو التحفظ والتخوف، وبشكل خاص عند شعراء الزندقة والمجون الذين لا يستطيعون البوح بصريح أفكارهم.

وقد رأت الباحثة أن تحصر مصطلح شعراء الدولة العباسية في الشعراء الذين كان أغلب شعرهم في خدمة الدولة وخلفائها، أو بشعراء البلاط والحظوة. ويمكن أن يضاف إلى هذه الفئة، أشعار شعراء نالوا حظوة عند الخلفاء ونظموا قصائد في مدحهم، كما رأت أن صورة الخلافة اختلطت كثيراً بصورة الخليفة، حتى أصبح من العسير الفصل بينهما؛ فالخليفة يمدح لمنصبه لا لشخصه، علماً أن من بين الجوانب التي مدح بها الخلفاء جوانب شخصية بحتة؛ كالشجاعة والكرم، ورفع الأهل والنسب.

ومن شعراء الدولة العباسية:

مروان بن أبي حفصة:

هو "مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة واسمه يزيد مولى مروان بن الحكم . وأصلهم يهود من موالي السموأل بن عادياهم وهم يدعون أنهم موالى عثمان بن عفان وإنما أعتق مروان بن الحكم أبا حفصة يوم الدار . ويقال إن عثمان اشتراه غلاماً من سبي اصطرخ ووهبه لمروان بن الحكم ومروان بن أبي حفصة يكنى أبا السمط وكان يلقب بذلك ببيت قاله . وكان شيخاً متدانياً يستبشع منظره

⁽¹⁾ ينظر في ذلك نفسه. ص 202 وما بعدها.

ومنازل أهله باليمامة، وهو شاعر مفلق مدح معن بن زائدة في أيام المنصور. ووفد على المهدي وولديه ومدحهم. وكان ذا منزلة بينهم يجزلون عطاءه ويقدمونه على سائر الشعراء. ولد سنة خمس ومئة في شهر ربيع الأول، وهي السنة التي مات فيها هشام. وفد على الوليد بن يزيد وهو حدث مع عمومته وهلك في أيام الرشيد سنة اثنتين وثمانين ومئة في ربيع الأول ودفن ببغداد⁽¹⁾.

ومن أروع ما قاله في المديح قصيدته التي مطلعها:

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خَيَالَهَا بِيضَاءُ تُخْلِطُ بِالْحَيَاءِ دَلَالَهَا⁽²⁾
[الكامل]

وفي هذه القصيدة التي يستهلها بمقدمة غزلية تقليدية تستغرق الأبيات السبعة الأولى، ينبري لمديح الخليفة المهدي، ويصفه بأنه أحيا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ويمتدح أصله الكريم؛ فهو من آل هاشم، وفي ذلك يقول:

أَحْيَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا سُنَنَ النَّبِيِّ حَرَامَهَا وَحَلَالَهَا
مَلِكًا تَفَرَّعَ نَبْعُهُ مِنْ هَاشِمٍ مَدَّ إِلَهُ عَلَى الْأَنَامِ ظِلَالَهَا⁽³⁾
[الكامل]

ولا ينسى الشاعر أن يمدح الخليفة بالصفات التقليدية للممدوح كالشجاعة والكرم، فيقول:

لَمْ تَعَشَّهَا مِمَّا تَخَافُ عَظِيمَةً إِلَّا أَجَالَ لَهَا الْأُمُورَ مَجَالَهَا
حَتَّى يُفَرِّجَهَا أَغْرُ مُبَارِكٍ أَلْفَى أَبَاهُ مُفَرِّجًا أُمَثَالَهَا
ثَبَّتْ عَلَى زَلِّ الْحَوَادِثِ رَاكِبًا مِنْ صَرْفِهِنَّ لِكُلِّ حَالٍ حَالَهَا
حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ أَوَائِلُ خَيْلِهِ جِيحَانٌ بَثٌّ عَلَى الْعَدُوِّ رَعَالَهَا
أَدَمَتْ دَوَابِرَ خَيْلِهِ وَشَكِيمَهَا غَارَاتُهُنَّ وَأَحَقَّتْ آطَالَهَا⁽⁴⁾
[الكامل]

(1) الأصفهاني: أبو الفرج: كتاب الأغاني. ت سميير جابر. دار الفكر. بيروت. 219/13.

(2) المرزباني، أبو عبد الله بن محمد بن عمران: معجم الشعراء. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان 1/ ص 99. 1982م.

(3) مروان بن أبي حفصة: ديوانه. ص 97.

(4) المرجع السابق. ص 97، 98.

ثم يلتفت إلى العلويين، وينكر حقهم في الخلافة، ويرى بأنها من حق العباسيين فهم أبناء عمومة النبي الكريم، والعمومة مقدمة على أبناء البنات في الشريعة الإسلامية، مستدلاً بذلك على آية من سورة الأنفال⁽¹⁾، فيقول:

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا بِأَكْفَكُمْ أَمْ تَسْتُرُونَ هَلَالَهَا
 أَمْ تَجْحَدُونَ مَقَالََةَ عَنْ رَبِّكُمْ جَبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا
 شَهِدَتْ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ بْتُرَاتِهِمْ فَأَرَدْتُمْ إِبْطَالَهَا
 فَذَرُوا الْأَسْوَدَ خَوَادِرًا فِي غَيْبِهَا لَا تَوَلِّغْنَ دِمَاعَكُمْ أَشْبَالَهَا⁽²⁾

[الكامل]

وقد سبقت الإشارة إلى أن الخليفة أعطاه على هذه القصيدة مئة ألف درهم (لكل بيت ألف درهم)⁽³⁾. ويمضي هذا الشاعر في دفاعه عن العباسيين على هذا النحو، فيقول في قصيدة أخرى، مطلعها:

طَافَ الْخَيْالُ وَحَيَّاهُ بِسَلَامٍ أَنَّى أَلَمَّ وَلَيْسَ حِينَ لِمَامٍ
 [الكامل]

وفي هذه القصيدة يقرر أحقية العباسيين بالخلافة، وهو لا يعدو كونه تكراراً لما قاله في القصيدة السابقة من أن أبناء العمومة أحق بالوراثة من أبناء البنات، مستشهداً بالوحي، فيقول:

يا ابنَ الَّذِي وَرِثَ النَّبِيُّ مُحَمَّدًا دُونَ الْأَقْرَابِ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ
 الْوَحْيُ بَيْنَ بَنِي الْبَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ قَطَعَ الْخِصَامَ فَلَاتَ حِينَ خِصَامِ
 مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيضَةٌ نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ
 أَنَّى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ

(1) الآية هي: (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى

بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الأنفال: آية (75).

(2) مروان بن أبي حفصة: ديوانه. ص 99.

(3) الرسالة . ص. 15.

أَلْفَى سِهَامَهُمُ الْكِتَابُ فَحَاوَلُوا
ظَفَرَتِ بَنُو سَاقِي الْحَجِيحِ بِحَقِّهِمْ
خَلَّوْا الطَّرِيقَ لِمَعَشَرِ عَادَاتِهِمْ
وَأَرْضُوا بِمَا قَسَمَ إِلَهُ لَكُمْ بِهِ
أَنْ يَشْرَعُوا فِيهَا بِغَيْرِ سِهَامٍ
وَعُرِّرْتُمْ بِتَوْهَمِ الْأَحْلَامِ
حَطَمَ الْمَنَاقِبَ كُلَّ يَوْمِ زِحَامٍ
وَدَعَا وَرِاثَةَ كُلِّ أَصِيدٍ حَامٍ⁽¹⁾
[الكامل]

ولما عقد المهدي العهد لولده موسى قال مروان بن أبي حفصة:

عَقِدَتْ لِمُوسَى بِالرَّصَافَةِ بَيْعَةً
مُوسَى الَّذِي عَرَفَتْ قُرَيْشٌ فَضْلَهُ
بِمُحَمَّدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
مَهْدِي أُمَّتِهِ الَّذِي أَمَسَتْ بِهِ
مُوسَى وَكَلِيَ عَهْدَ الْخِلَافَةِ بَعْدَهُ
شَدَّ إِلَهُ بِهَا عُرَى الْإِسْلَامِ
وَلَهَا فَضِيلَتَهَا عَلَى الْأَقْوَامِ
حَيَّ الْحَلَالَ وَمَاتَ كُلَّ حَرَامٍ
لِلَّذَلِّ أَمْنَةٌ وَ لِلْإِعْدَامِ
جَفَّتْ بِذَلِكَ مَوَاقِعُ الْأَقْلَامِ⁽²⁾
[الكامل]

وهكذا نجد الأحقية في الخلافة عند هذا الشاعر، لا تعدو كونها مسألة وراثية، دون اعتبار لعوامل الكفاية والقدرة أو أية معايير موضوعية أخرى. ويرى شوقي ضيف أن الخليفة المهدي "أول خليفة فتح أبوابه على مصاريعها للشعراء، فقد مضى يجزل لهم في العطاء، ومضوا يجزلون له في الثناء"⁽³⁾.

سلم الخاسر:

هو "سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر"، ولد في البصرة لأسرة تنتسب إلى حمير، وقد سببت في الردة وأعتقها أبو بكر الصديق، ويورد الأصفهاني سبب لقبه هذا، فيقول: لما مات عمرو أبو سلم الخاسر اقتسموا ميراثه، فوقع في قسط سلم مصحف فرده وأخذ مكانه دفاتر شعر كانت عند أبيه؛ فلقب الخاسر بذلك. وقيل: ورث سلم الخاسر أباه مئة ألف درهم، فأنفقها على الأدب، ولم يبق عنده شيء؛ فلقبه الجيران ومن يعرفه بسلم الخاسر، وقالوا: أنفق ماله على ما لا ينفعه، ثم مدح المهدي أو

(1) الأصفهاني: الأغاني. 220 / 13.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 317.

(3) ضيف: العصر العباسي الأول. ص 293

الرشيد، وقد كان بلغه اللقب الذي لقب به؛ فأمر له بمئة ألف درهم، وقال له: كَذَّبَ بهذا المال جيرانك، فجاهم بها، وقال: لهم هذه المئة الألف التي أنفقتها وربحت الأدب، فأنا سلم الرباح لا سلم الخاسر⁽¹⁾.

ويبدو أنه قضى فترة من شبابه متنسكاً، ثم رجع إلى حياة الخلاعة والمجون، وهناك من يسلكه فيمن يظهرون الإسلام ويخفون الزندقة، والثابت أنه صحيح الدين. وقد اتصل بالخلفاء العباسيين ومدح غير واحد منهم؛ كالمصور، والرشيد، والمهدي والهادي، والمأمون، وغيرهم.

ومن روائع مدحه قصيدته في مدح الخليفة المهدي، ومطلعها:

حَيِّ الْمَنَابِرِ بِالسَّلَامِ أَعْلَى وَدَاعٍ أَوْ لِمَامِ⁽²⁾
مجزوء الكامل

وفي هذه القصيدة يرى أن الممدوح قد اختص بالخلافة، وهو لها أهل، واتصف بصفات الشجاعة والكرم ورفعة النسب، فيقول في هذه القصيدة:

وإلى أمير المؤمنين _____
جَمَعَ الخِلاَفَةَ والسَّامَا
مَلِكٌ ضَرِيْبَةٌ رَأِيَه
يَقْضِي أُمُورَ الْمُؤْمِنِي_____
قَالَتْ فُرَيْشٌ كُلُّهَا
وخيَارُ مَنْ وَطِيءَ الحَصَى
فَضَلَ المُلُوكَ مُحَمَّذُ
فَاسَلْمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِي_____
كَمْ فِي يَدِيكَ مِنَ النَّدَى
نَ مُحَمَّذٍ خَيْرِ الأَنَامِ
حَاةَ والشَّجَاعَةَ فِي نِظَامِ
أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ الحُسَامِ
نَ بِرَأْيِ حَزْمٍ وَاعتِزَامِ
وَهُمُ الكِرَامُ بَنُو الكِرَامِ
مِنْ بَيْنِ كَهْلٍ أَوْ غُلَامِ
فَضَلَ الحَلَالِ عَلَى الحَرَامِ
نَ فَأَنْتَ رَهْنٌ بِالسَّلَامِ
وَضُرُوبِ أَلْوَانِ الحِمَامِ⁽³⁾

[مجزوء الكامل]

(1) الأصفهاني: الأغاني. 277 / 19.

(2) غرونيباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 114.

(3) غرونيباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 114، 115.

وهكذا يتضح أن الشعراء، ومنهم شاعرنا هذا، يحرصون على نعت ممدوحهم بالكرم، وربما كان السبب في كل هذا المديح، هو الطمع في الجوائز والصلوات، على نحو ما نرى من ضخامة الصلوات التي تدفع للشعراء لقاء أبيات من الشعر. فيذكر الأصفهاني⁽¹⁾ أن المهدي قد أمر لسلم الخاسر بخمسة ألف درهم لقاء مدحه بقصيدة جاء فيها:

لَهُ شَيمَةٌ عِنْدَ بَذْلِ الْعَطَاءِ لَا يَعْرِفُ النَّاسُ مَقْدَارَهَا
وَمَهْدِيٌّ أُمَّتِنَا وَالَّذِي حَمَاهَا وَأَدْرَكَ أَوْتَارَهَا (2)

[المتقارب]

ومن مديحه للمهدي كذلك، قوله:

اسْمِعْ فِدَاكَ بَنُو حَوَاءَ كُلُّهُمْ وَقَدْ يَحُورُ بِرَأْسِ الْكَاذِبِ الْكَذِبُ
فَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ كَاذِبَةٍ يَوْمَ الْمَغِيبَةِ لَمْ يَقْطَعْ لَهَا سَبَبُ
أَلَّا يُخَالَفَ مَدْحِي غَيْرَ كَمِ أَبَدًا وَلَوْ تَلَقَى عَلَيَّ الْغَرَضُ وَالْحَقْبُ (3)

[البسيط]

ولا ينسى الشاعر أن ينتهز فرصة تولي الهادي الخلافة، بعد وفاة المهدي، فيقول جامعاً بين المدح والثناء:

لَقَدْ فَازَ مُوسَى بِالْخِلَافَةِ وَالْهُدَى وَمَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ (4)
فَمَاتَ الَّذِي عَمَّ الْبَرِيَّةَ فَقْدُهُ وَقَامَ الَّذِي يَكْفِيكَ مَنْ يَتَفَقَّدُ (5)

[الطويل]

وفي هذين البيتين، يجمع الشاعر بين الرثاء والمديح جاعلاً كل بيت يتضمن المعنيين معاً؛ فهو يرثي المتوفى ويمدح الحي (ال خليفة الجديد).

(1) الأصفهاني: الأغاني. 294 / 19.

(2) المصدر السابق، ص 93. والغرض والحقب كناية عن الأزمات تخنق المرء.

(3) المصدر السابق، ص 93. والغرض والحقب كناية عن الأزمات تخنق المرء.

(4) موسى هو اسم الخلافة الملقب بالهادي.

(5) غرونيوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 96.

ومن مدحه للهادي، كذلك، قوله:

بِعِيسَابَادَ حُرٍّ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى جَنَابَتِهِ الشَّرْبُ الرُّوَاءُ
يَعُودُ الْمُسْلِمُونَ بِحَقْوَتَيْهِ إِذَا مَا كَانَ خَوْفٌ أَوْ رَجَاءُ
وَكَمْ مِنْ قَائِلٍ: إِنِّي صَاحِبٌ وَتَأْبَاهُ الْخَلَائِقُ وَالرُّوَاءُ⁽¹⁾
[الوافر]

وهو في هذه الأبيات يمدحه بنسبه القرشي الكريم. ويحرص الشاعر على إظهار موقفه الصريح من العباسيين؛ فهو في صفهم، وينافح عنهم أمام الخصوم.

ويقول في تولي الرشيد الخلافة:

بِهَارُونَ قَرَّ الْمُلُكُ فِي مُسْتَقَرِّهِ وَأَشْرَقَتِ الدُّنْيَا وَأَيْنَ نُورُهَا
وَلَيْسَ لِأَيَّامِ الْمَكَارِمِ غَايَةٌ تَتِمُّ بِهَا، إِلَّا وَأَنْتَ أَمِيرُهَا⁽²⁾
[الطويل]

وعندما عقد الرشيد العهد للأمين، نظم الشاعر أبياتاً في ذلك مبيناً أحقية (الأمين) بالخلافة، موضحاً أن الثقلين (الإنس والجن) قد بايعوه أيضاً، فيقول في ذلك:

قُلْ لِلْمَنَازِلِ بِالكَثِيبِ الْأَعْفَرِ أُسْقِيتِ غَادِيَةَ السَّحَابِ الْمُطِيرِ
قَدْ وَقَّقَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ إِذْ بَنَى بَيْتَ الْخَلِيفَةِ لِلهَجَانِ الْأَزْهَرِ
فَهُوَ الْخَلِيفَةُ عَنْ أَبِيهِ وَجَدِّهِ شَهِدَا عَلَيْهِ بِمَنْظَرٍ وَبِمَخْبَرِ
قَدْ بَايَعَ الثَّقَلَانِ فِي مَهْدِي الْهُدَى لِمُحَمَّدِ بْنِ زُبَيْدَةَ ابْنَةِ جَعْفَرِ
وَلَيْتَهُ عَهْدَ الْأَنَامِ وَأَمْرَهُمْ قَدِمَغَتَ بِالْمَعْرُوفِ رَأْسَ الْمُنْكَرِ⁽³⁾
[الكامل]

(1) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطبع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 92.

(2) المصدر السابق. ص 106.

(3) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطبع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 100.

وفي هذه الأبيات يدعو الشاعر بالسقيا للمنازل، ثم يمضي نحو موضوعه الرئيس، وهو تأييد مسعى الخليفة في عقد البيعة للأمين، مباركاً للثنتين هذه الخطوة، مؤكداً أحقية الأمين للخلافة. ولا يعدو الشاعر في الأبيات أن يكون شاعر البلاط والمتحدث باسم السلطان. ويذكر الأصفهاني أن زبيدة أم الأمين قد أعطت الشاعر على هذه الأبيات مئة ألف درهم.⁽¹⁾ ومن الجدير ذكره أن تولي أحد الخلفاء الخلافة، مناسبة لا تفوت الشاعر، فيقول بمناسبة تولي الهادي الخلافة:

لَمَّا أَتَتْ خَيْرَ بَنِي هَاشِمٍ خِلَافَةَ اللَّهِ بِجُرْجَانِ
شَمْرًا لِلْحَزْمِ سَرَابِيئَهُ بِرَأْيٍ لَا عُمْرٍ وَلَا وَايٍ⁽²⁾
[السريع]

ومن مكملات المديح عند الشاعر، الرثاء، وكان الشاعر يمدح الخليفة حياً وميتاً؛ في سبيل نيل الجوائز، وبالنظر في ديوان الشاعر نجد له من الرثاء، ما نظمه في رثاء الهادي، إذ يقول:

لَوْلَا الْمَقَابِرُ مَا حَطَّ الزَّمَانُ بِهِ لَا بَلَّ تَوَلَّى بِأَنْفِ كَلْمُهُ دَامِي⁽³⁾
[البسيط]

ومن رثائه للمنصور، قوله:

عَجَباً لِلَّذِي نَعَى النَّاعِيَانِ كَيْفَ فَاهَتْ بِمَوْتِهِ الشَّقَاتَانِ
مَلِكٌ إِنْ غَدَا عَلَى الدَّهْرِ يَوْمًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ سَاقِطًا لِلْجِرَانِ
لَيْتَ كَفًّا حَثَّتْ عَلَيْهِ تُرَابًا لِمَ تَعُدُّ فِي يَمِينِهَا بِنَانِ⁽⁴⁾
[الخفيف]

وهو في هذه الأبيات يتعجب كيف تجرأ الناعي على نعيه، وهو يدعو على الأيدي التي حثت عليه التراب، ويمضي الشاعر مصوراً أثر وفاته في النفوس، فيقول:

(1) الأصفهاني: الأغاني. 294 / 19.

(2) المصدر السابق. ص 117.

(3) المصدر السابق. ص 115.

(4) المصدر السابق. ص 117، 118.

ذَهَبَتْ دُونَهُ النَّفْسُ حِذَارًا غَيْرَ أَنْ الْأَرْوَاحَ فِي الْأَبْدَانِ (1)

[الخفيف]

أبو دلامة:

هو "زيد بن الجون الشاعر الماجن أحد الظرفاء" أصله من الكوفة وأقام ببغداد ونال الحظوة عند المنصور؛ لأنه كان يضحكه وينشده الأشعار ويمدحه. ويروى أنه حضر يوماً جنازة امرأة المنصور وكانت ابنة عمه يقال لها حمادة بنت عيسى، وكان المنصور قد حزن عليها. فلما سوا عليها التراب، وكان أبو دلامة حاضراً، فقال له المنصور ويحك يا أبا دلامة ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال: ابنة عم أمير المؤمنين؛ فضحك المنصور حتى استلقى، ثم قال: ويحك فضحتنا. (2)

وقد أثر عن الشاعر هذا أنه كان يستجدي الخلفاء في مدحه لهم، وذلك بأسلوب فكاهي، ومن ذلك قوله في مدح المنصور:

إِنِّي رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَا مِ وَأَنْتَ تُعْطِينِي خِيَارَةَ
مَمْلُوءَةً بِدِرَاهِمٍ وَعَلَيْكَ تَفْسِيرُ الْعِبَارَةِ (3)

[مجزوء الكامل]

فطلب إليه الخليفة أن يأتي بخيارة ليملاًها له دراهم كما رأى في منامه. ويروى أنه أقبل على المنصور يوماً وقال له:

رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَامِ كَسَوْتَ جِلْدِي ثِيَاباً جَمَّةً وَقَضَيْتَ دَيْنِي
فَكَانَ بِنَفْسِي الْخَرَزُ فِيهَا وَسَاجٌ نَاعِمٌ فَأَتَمَّ زَيْنِي
فَصَدَّقْ يَا فَدْتِكَ النَّفْسُ رُؤْيَا رَأَتْهَا فِي الْمَنَامِ كَذَاكَ عَيْنِي (4)

[الوافر]

(1) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 118.

(2) ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء: البداية والنهاية. مكتبة المعارف. بيروت. 10 / 134.

(3) أبو دلامة: ديوانه. تحقيق إميل بديع يعقوب. ط1. دار الجيل. بيروت. 1994م. ص 61.

(4) المصدر السابق. ص 118.

فأمر له الخليفة بذلك، وقال له: لا تعد تتحلم علي ثانية، فأجعل حلمك أضغاثاً. وله مع المهدي قصة مشابهة، إذ يقول:

إِنِّي نَذَرْتُ لئن رأيتُكَ سالماً بقرى العِراقِ، وأنتَ ذو وَفْرِ
لتصلينَّ على النبيِّ مُحَمَّدٍ ولتَمَلَنَّ دراهماً حجري⁽¹⁾
[الكامل]

وينتزه الشاعر فرصة تولي المهدي الخلافة بعد وفاة المنصور، فيقول مادحاً وراثياً، وذاكراً الاثنتين في كل بيت:

عَيْنانِ: واحدةٌ تُرى مَسرورةً بإمامها جَذلى وأخرى تَذرفُ
تَبكي وتضحكُ مَرَّةً وَيَسُووُها ما أبصرتُ ويسُرُها ما تُعرفُ
فيسُووُها موتُ الخِيفةِ محرماً ويسرُها أن قامَ هذا الأرافُ
هَلْكَ الخِيفةُ يا لأمَّةِ أحمدٍ فأتاكم من بَعدهِ من يَخلفُ
أهدى لِهَذَا اللهُ فَضَلَ خِلافةِ ولِذَلكَ جِناةِ النِّعيمِ تَنزَخرفُ
فابكُوا لِمَصرَعِ خيرِكم وولِيكم واستشرفُوا لِمِقامِ ذا وتَشرفُوا⁽²⁾
[الكامل]

وهكذا نجد الشاعر يمدح الخليفة الحالي ويرثي الخليفة المتوفى، وهذه سنة لدى الشعراء؛ فعلى الشاعر، وإن رثي أحد الخلفاء، ألا ينسى مدح الخليفة الذي يتولى العرش من بعده؛ لذلك فإن الرشيد غضب عندما رثي أبو دلامة أبا العباس السفاح، من دون أن يمدح المنصور، بقوله:

أمسيتَ بالأنبارِ يا بنَ مُحَمَّدٍ لم تستطعَ عن غيرها تحويلاً
ويلي عليكِ وويلَ أهلي كلهم ويلاً وعولاً في الحياة طويلاً
فتبكينَّ لكِ النساءُ بعبرةٍ وليبكينَّ لكِ الرجالُ عويلاً⁽³⁾
[الكامل]

(1) أبو دلامة: ديوانه. ص 67.

(2) المصدر السابق: ديوانه. ص 82، 83.

(3) المصدر السابق. ص 90، 91.

ويبلغ الإخلاص للخلفاء، وربما التملق لهم، مرتبة تدفع الشاعر إلى هجاء الخصوم، وتقديم الأسباب الموجبة للتخلص منهم والقضاء عليهم؛ فبعد أن فتك أبو جعفر المنصور بأبي مسلم الخراساني، قال أبو دلامة:

أبا مُجْرِمٍ ما عَيَّرَ اللهُ نِعْمَةً عَلَى عِبْدِهِ حَتَّى يُغَيِّرَها الْعَبْدُ
أبا مُجْرِمٍ خَوْفَتَنِي الْقَتْلَ فَاتْحَى عَلَيْكَ بما خَوْفَتَنِي الْأَسَدُ الْوَرْدُ
أَفِي دَوْلَةِ الْمَهْدِيِّ حَاوَلْتَ غَدْرَةَ أَلَا إِنَّ أَهْلَ الْغَدْرِ آبَاؤُكَ الْكُرْدُ (1)

[الطويل]

وفي هذه الأبيات يقول (أبا مجرم) ويقصد (أبا مسلم)، ويتحدث عن المهدي، ويقصد به أبا جعفر المنصور، وربما كان ذلك بقصد أنه يهدي الناس، أو الإشارة إلى المهدي المنتظر (2).

علي بن الجهم:

"علي بن الجهم بن بدر بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كرار بن كعب بن مالك بن عتبة بن جابر بن الحارث بن عبد البيت بن الحارث بن سامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة، يكنى أبا الحسن وأصله من خراسان" (3). وقد مدح الخليفة الواثق بقصيدة بيّن فيها نسب الخليفة بالنبي وصلة القرابة بينهما، موضحاً موقفه وموقف قومه من الخليفة، وهو موقف يشير إلى التأييد المطلق للخليفة؛ فما يقبله الخليفة يقبلونه، ويرفضون ما يرفضه أيضاً، وفيها يقول:

بَارِكْ اللهُ لِلْخَلِيفَةِ فِي الْعِيْدِ دِ وَفِي كُلِّ طَارِفٍ وَتَلِيدِ
صَفْوَةَ اللهِ وَابْنَ عَمِ نَبِيِّ اللهِ هِ وَابْنَ الْمَهْدِيِّ وَابْنَ الرَّشِيدِ
يَا بَنِي هَاشِمٍ بِنِ عَبْدِ مَنْأَفِ نَسَبَةَ جِهَاتٍ مِنَ التَّوْحِيدِ
أَنْتُمْ خَيْرُ سَادَةِ يَا بَنِي الْعَبَا سِ فَابْقُوا وَنَحْنُ خَيْرُ الْعَبِيدِ
نَحْنُ أَشْيَاعُكُمْ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَا نَ أَوْلُو قُوَّةٍ وَبِأَسِّ شَدِيدِ
إِنْ رَضِيْتُمْ أَمْرًا رَضِينَا وَإِنْ تَأْ بَوُوا أَبِينَا إِبَاءَ الْأَسْوَدِ
حَسْبُنَا اللهُ وَالْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِ دُ وَمِنْ بَعْدِهِ وِلَاةُ الْعُهُودِ (4)

[الخفيف]

(1) أبو دلامة: ديوانه. ص 52.

(2) المصدر السابق. هامش ص 52.

(3) المرزباني: معجم الشعراء. 1/ 44.

(4) ابن الجهم: ديوانه. جمع وتحقيق خليل مردم بيك. ط2. دار الأفاق: بيروت. 1959. ص34، 35.

وكان الخلفاء العباسيون السابقون للمتوكل يتبنون وجهة نظر المعتزلة الفائلة بخلق القرآن؛ فنزلت المحن بعلماء السنة، وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل، وكادت هذه القضية تؤدي إلى فتنة عظيمة، وبخاصة أن جماهير المسلمين كانت تتعاطف مع علماء السنة. ولكن المتوكل سرعان ما أمر برفع المحنة، وأعلن التسنن وفرضه على الأقطار، وأرسل إلى الآفاق يطلب إليهم وقف القول بخلق القرآن؛ فسجل علي بن الجهم هذا الحدث في قصيدة قال فيها:

قَامَ وَأَهْلُ الْأَرْضِ فِي رَجْفَةٍ	يَخْبُطُ فِيهَا الْمُقْبِلَ الْمُدْبِرُ
فِي فَتْنَةٍ عَمِيَاءَ لَا نَارَهَا	تَخْبُؤُ وَلَا مَوْقِدَهَا يَفْتَرُ
كُلُّ حَنِيفٍ مِنْهُمْ مَسْلَمٌ	لِلْكَفْرِ فِيهِ مَنْظَرٌ مُنْكَرٌ
إِمَّا قَتِيلٌ وَإِمَّا أُسِيرٌ فَلَا	يُرْثَى لِمَنْ يُقْتَلُ أَوْ يُوسَرُ
فَأَمَرَ اللَّهُ إِمَامَ الْهُدَى	وَاللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ يَنْصُرُ
وَجَرَدَ الْحَقَّ فَأَشْجَى بِهِ	مَنْ كَانَ عَنْ أَحْكَامِهِ يَنْفِرُ
وَانْفَضَّتِ الْأَعْدَاءُ مِنْ حَوْلِهِ	كَحُمُرٍ أَنْفَرَهَا قَسْوَرُ
وَصَاحَ إِبْلِيسُ بِأَصْحَابِهِ	حَلَّ بِنَا مَا لَمْ نَزَلْ نَحْذَرُ
الرَّدَّةَ الْأُولَى تَنَى أَهْلَهَا	حَزْمُ أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ يَكْفُرُوا
وَهَذِهِ أَنْتَ تَلَفَيْتَهَا	فَعَادَ مَا قَدْ كَادَ لَا يُذْكَرُ
فَاسْلَمْ لَنَا يَا خَيْرُ مُسْتَخْلَفٍ	مِنْ مَعْشَرٍ مَا مِثْلُهُمْ مَعْشَرُ ⁽¹⁾

[السريع]

وهكذا، فإن إشادة ابن الجهم لم تقف عند حد التأييد الإعلامي فقط، بل صبغها صبغة دينية، عندما أشار إلى أن هذه الفتنة كالردة في خطورتها على الدين، وجعل أنصارها والقائلين بها من الأعداء، وأن إبليس واحد منهم. ولا يخفى القول: إن ابن الجهم كان صادقاً في هذا التأييد؛ لأنه نفسه كان من السنة الرافضين لفكرة خلق القرآن، وهو ما جعله بعيداً عن بلاط الخليفة العباسي المعتصم على الرغم من مديحه له. ويعطي الشاعر أبياته مسحة دينية؛ إذ نراه يتأثر على نحو واضح بالقرآن

(1) ابن الجهم: ديوانه. ص 73.

الكريم في غير بيت؛ ففي البيت الخامس نراه يتأثر بقوله تعالى: (يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (1). وفي البيت السابع يتأثر بقوله تعالى: (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) (2).

ولم يقف تأييد ابن الجهم للمتوكل في قضية خلق القرآن عند هذه الحدود، بل تعداها إلى الشماتة بالمعتزلة الذين نكل بهم المتوكل، أمثال أحمد بن أبي دؤاد، إذ يقول فيه:

يا أحمدُ بنَ أبي دؤادِ دَعْوَةٌ بَعَثْتُ إِلَيْكَ جَنَادِلًا وَحَدِيدًا
 ما هذهِ البِدْعُ التي سَمَّيْتَهَا بِالْجَهْلِ مِنْكَ الْعَدْلَ وَالتَّوْحِيدَا
 أَفْسَدْتَ أَمْرَ الدِّينِ حِينَ وَلِيْتَهُ وَرَمَيْتَهُ بِأَبِي الْوَلِيدِ وَليدًا(3)
 لا مُحْكَمًا جَزَلًا ولا مُسْتَطَرَفًا كَهَلًا، ولا مُسْتَحْدَثًا مَحْمُودًا(4)

[الكامل]

ويرى الدكتور شوقي ضيف(5) أن ابن الجهم كان يقف مع العباسيين ضد خصومهم من العلويين، ثم المعتزلة أيام المتوكل، ومما قاله في مدح المتوكل وهجاء المعتزلة:

به سلم الإسلام من كل ملحدٍ وحلَّ بأهل الزينغ قاصمة الظهر(6)

[الطويل]

وكان يفضل العباسيين على كل الناس علويين وغير علويين، ومن ذلك قوله:

لنا في بني العباسِ أكرمُ أسوةٍ فهم خيرُ خلقِ الله طُرًّا وأفضلُ(7)

(1) سورة محمد: آية (7).

(2) سورة المدثر: آية (50، 51).

(3) أبو الوليد هو محمد بن أحمد بن أبي دؤاد كان قد تولى المظالم وعزله المتوكل.

(4) ابن الجهم: ديوانه. ص 125، 126.

(5) ضيف: العصر العباسي الثاني. ص 263.

(6) ابن الجهم: ديوانه. ص 222.

(7) المصدر السابق. ص 70.

وقد نال ابن الجهم حظوة عند الخليفة المتوكل، ومما قاله في مديحه:

بِسُرِّ مَنْ رَأَى إِمَامُ عَدْلٍ تَغْرِفُ مِنْ بَحْرِهِ الْبَحَارُ
الْمَلِكُ فِيهِ وَفِي بَيْتِهِ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
يُرْجَى وَيُخْشَى لِكُلِّ خُطْبٍ كَأَنَّهُ جَنَّةٌ وَنَارُ
يَدَاهُ فِي الْجُودِ ضَرَّتَانِ عَلَيْهِ كِلْتَاهُمَا تَغَارُ
لَمْ تَأْتِ مِنْهُ الْيَمِينُ شَيْئاً إِلَّا أَتَتْ مِثْلَهُ الْيَسَارُ⁽¹⁾

[مخلع البسيط]

وفي هذه الأبيات، يمدح الشاعر الخليفة مدحاً تقليدياً؛ فيخلع عليه صفات الكرم والجود، ويصور ذلك تصويراً فريداً، عندما يشبه تسابق يديه إلى الكرم، وتتافسهما فيه، كما يحدث بين الضرائر من الغيرة والتنافس.

مروان بن أبي الجنوب:

هو "مروان بن أبي الجنوب واسمه يحيى بن مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يكنى أبا السمط"، ويلقب غبار العسكر ببيت قاله، ويعرف بمروان الأصفر. وسلك سبيل جده في الطعن على آل علي بن أبي طالب مع قلة حظه من جيد الشعر، وحسنت حاله عند المتوكل وخص به ونادمه وقلده اليمامة والبحرين وطريق مكة، وكان يجسره ويخلع عليه ويكرمه. قال أبو هفان: كان مروان بن أبي الجنوب من المرزوقين بالشعر مع تخلفه فيه، أعطاه المتوكل مئتي ألف دينار من ورق وذهب وكسوة. وقد مدح المأمون والمعتصم والواثق وأخذ جوائزهم⁽²⁾.

وأول اتصال للشاعر بالمتوكل كان بسبب نكبة المتوكل لابن الزيات، وفيها شمت الشاعر بابن الزيات حيث يروي الأصفهاني ذلك الخبر قائلاً: "قال ابن أبي طاهر حدثني مروان بن أبي الجنوب قال لما استخلف المتوكل بعثت إلى ابن أبي دؤاد بقصييدة مدحته فيها وذكرت فيها ابن الزيات ببيتين هما:

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 396.

(2) المرزباني، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران: معجم الشعراء. 1 / 100. موقع الوراق.

وقيل ليّ الزياتُ لأقى جمامه فقلت أتاني الله بالفتح والنصر
لقد حفر الزياتُ بالبغي حفرة فألقاه فيها الله بالكفر والغدر
[الطويل]

قال فذكرني ابن أبي دؤاد للمتوكل فأمر بإحضاري فقبل له نفاه الوثائق إلى اليمامة وذلك لميله إليك. فقال يحمل. فقال له ابن أبي دؤاد: عليه ستة آلاف دينار دين. فقال يكتب له بها إلى عامل اليمامة؛ فكتب لي بها وبالحملان والمعونة فقدمت عليه⁽¹⁾. ومن مديحه للمتوكل بعد قدومه إليه، قوله:

كانت خلافة جعفر كنبووة جاءت بلا طلب ولا بتحل
وهب الإله له الخلافة مثلما وهب النبوة للنبي المرسل⁽²⁾
[الكامل]

وفي هذه الأبيات يشبه الشاعر خلافة المتوكل في مناسبتها له وأهليته لها، بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي مبالغة كان الطمع في الجائزة دافعاً لها. وله في المتوكل:

وكأنما سيقت غداة وليتها للمسلمين بما وليت غنائم
تخشى الإله فلا تنام عنايةً بالمسلمين وكلهم بك نائم⁽³⁾
[الكامل]

والشاعر، في هذين البيتين، يرى في خلافة الممدوح، بشرى خير للناس، ولا غرو في ذلك، ما دام الخليفة ساهراً على مصالح الأمة، مفسحاً المجال أمام كل منهم لينام ملء جفنيه مطمئن البال. وقال فيه أيضاً:

أعاد إلينا الفضل أيام جعفر وأحيا لنا بالعدل والجود جعفر⁽⁴⁾
إمام له في كل قلب محبةً كوالده قولاً وفعلاً ومنظراً
ظفرت بحق طالما قد ظلمته ومن كان يبغي ذاك أمسى مظفراً⁽⁵⁾
[الطويل]

(1) الأصفهاني: الأغاني. ج 23/ ص 218.

(2) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك. ج 5/ ص 339. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1407هـ.

(3) معجم الشعراء. جزء 1/ ص 100.

(4) جعفر الأولى، الخليفة المتوكل. والثانية، النهر الصغير.

(5) معجم الشعراء. 1 / 154، والوافي بالوفيات 1 / 596.

وفي هذه الأبيات، يرى الشاعر أن خلافة المتوكل كانت فاتحة خير على الناس، فالخليفة، بفعاله، قد أحيا الفضل والعدل والجود، لذا، فإن للخليفة محبة خاصة في كل قلب.

وروى الأصفهاني أن مروان بن أبي الجنوب قال: "لما صرت إلى المتوكل على الله ومدحته ومدحت ولاة العهود الثلاثة وأنشدته ذلك في قولي:

سقى الله نجداً والسَّلامُ على نجدِ ويا حبذا نجدُ على النَّايِ والبعدِ
نظرتُ إلى نجدٍ وبغدادٍ دونها لعلي أرى نجداً، وهيئات من نجدِ
بلاداً بها قوم هَواهُمُ زيارتي ولا شيء أشهى من زيارتهم عندي
[الطويل]

فلما استتمتها أمر لي بمئة ألف درهم وخمسين ثوباً من خاص ثيابه"⁽¹⁾.

البحثري:

هو " الوليد بن عبيد الله بن يحيى بن عبيد بن شمال بن جابر بن سلمة بن مسهر ابن الحارث بن خيثم بن أبي حارثة بن جدي بن تدول بن بحتري". ويكنى أبا عبادة شاعر فاضل فصيح حسن المذهب نقي الكلام مطبوع. وله تصرف حسن فاضل، نقي في ضروب الشعر سوى الهجاء فإن بضاعته فيه نزره، وجيده منه قليل⁽²⁾.

ويرى الأصفهاني أن "البحثري يتشبه بأبي تمام في شعره، ويحذو مذهبه، وينحو نحوه في البديع الذي كان أبو تمام يستعمله، ويراه صاحباً وإماماً، ويقدمه على نفسه. ويقول في الفرق بين الأول والثاني قول منصف: إن جيد أبي تمام خير من جيده، ووسطه ورديئه خير من وسط أبي تمام ورديئه. وكذا حكم هو على نفسه"⁽³⁾.

اشتهر البحتري بصلته بالخليفة المتوكل، ونظم أروع القصائد في مدحه، وجدير بالذكر أن البحتري كان يمدح هذا الخليفة من أجل العطاء فقط، ويرى الدكتور شوقي ضيف أن البحتري كان

(1) الأصفهاني: الأغاني. 216 / 23.

(2) المصدر السابق. 42 / 10.

(3) المصدر السابق. 44 / 10.

متقلباً مسرفاً في التقلب، فقد كان يدين بالاعتزال قبل خلافة المتوكل، ثم نزع عنه هذا المذهب لما أوقف المتوكل القول بخلق القرآن، وأفل حينئذ نجم المعتزلة. حتى أن بعضهم ذكره بقوله في بعض الخارجين:

يرمون خالفهم بأقبح فعلهم ويحرقون كلامه المخلوقا
[الكامل]

فسئل: أكنت معتزلياً؟ فقال: كان هذا ديني أيام الواثق⁽¹⁾.

وقد حرص البحري على تسجيل خلافة المتوكل لحظة بلحظة؛ فمدحه غير مرة، وسجل له عقد ولاية العهد لأبنائه، ورثاه بعد مقتله، ومن نظمه في مدح المتوكل قصيدته التي وصف بها البركة ومطلعها:

مِيلُوا إِلَى الدَّارِ مِنْ لَيْلَى نُحْيِيهَا نَعَمْ وَتَسْأَلُهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِهَا⁽²⁾
[البسيط]

ويميضي في هذه القصيدة مصوراً أهليته للخلافة، بل عدم صلاحها إلا له، وكأنها قُدَّتْ على مقاسه، ضارباً الشواهد على ذلك؛ فهو ذو نسب رفيع وخلق كريم، وغير ذلك على نحو ما نجده في قوله:

إِنَّ الخِلافةَ لَمَّا اهْتَزَّ مِنْبَرُهَا بَجَعْفَرٍ أُعْطِيَتْ أَقْصَى أَمَانِيهَا
أَبْدَى التَّوَضُّعِ لَمَّا نَالَهَا دَعَا عَنَّا وَنَالَتَهُ فَاخْتَالَتْ بِهِ تِيهَا
يَا بِنَ الأَبَاطِيحِ مِنْ أَرْضِ أَبَاطِحِهَا فِي ذُرْوَةِ المَجْدِ أَعْلَى مِنْ رَوَابِيهَا
مَا ضَيَّعَ اللهُ فِي بَدْوٍ وَلَا حَضْرٍ رَعِيَّةً أَنْتَ بالإِحْسَانِ رَاعِيهَا
وَأَمَةً كَانَ قَبْحُ الجُورِ يَسْخَطُهَا دَهْرًا فَأَصْبَحَ حَسَنُ العَدْلِ يَرْضِيهَا
أَعْطَاكَهَا اللهُ عَن حَقِّ رَأْيِكَ لَه أَهْلًا وَأَنْتَ بِحَقِّ اللهِ تَعْطِيهَا⁽³⁾
[البسيط]

وقد نظم الشاعر قصيدة يمدح فيها المتوكل وبنيه الثلاثة عندما عقد لهم أبوهم ولاية العهد من بعده. وفي ذلك يقول:

(1) ضيف: العصر العباسي الثاني. ص 274.

(2) البحري: ديوانه. 16 / 1.

(3) البحري: ديوانه. 18 / 1.

أحيا الخليفة جعفر بفعاله
حاط الرعية حين ناط أمورها
فدامهم نور النبي وخلفهم
لن يجهل الساري المحجة بعدما
فاسلم أمير المؤمنين ولم تزل
أفعال آباء له وجدود
بثلاثة بكروا ولاة عهد
هدي الإمام القائم المحمود
رفعت لنا منهم بدور سعود
مستعلياً بالنصر والتأييد⁽¹⁾

[الكامل]

ونظم الشاعر قصيدة في رثاء المتوكل، زاعماً أنه دافع عنه بنفسه، متهماً ولي العهد (المنتصر ابن المتوكل) بالمشاركة في الجريمة، وفي هذه القصيدة يقول:

صريع تقاضاه السيف حشاشه
أدافع عنه باليدين ولم يكن
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي
أكان ولي العهد أضمر غدره
لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر
يجود بها والموت حمر أظافره
ليثني الأعداء أعزل الليل حاسره
درى الفاتك العجلان كيف أساوره
فمن عجب أن ولي العهد غادره
هرقتم، وجنح الليل سود دياجرة⁽²⁾

[الطويل]

وفي هذه الأبيات، يشير الشاعر بأصابع الاتهام إلى ابن المتوكل، على أنه شريك في الجريمة، ويظهر تحسره على ما آل إليه المتوكل، زاعماً أنه ما كان ليقتصر في الدفاع عنه، لو كان معه سلاح، ثم يتوعد المتآمرين بالهلاك.

وهكذا، نجد أن شعراء الدولة العباسية، أظهروا الصورة المشرقة للخلافة العباسية وللخلفاء العباسيين، وربما أن السبب في ذلك كان، في أن هذه الطائفة من الشعراء قامت بدور الدعاية لهذه الدولة، وكانت بمنزلة الإعلام الرسمي المعروف في عصرنا الحاضر.

(1) البحتري: ديوانه. 5/1.

(2) المصدر السابق. 1/ 28، 29.

المبحث الثاني

صورة الخلافة عند شعراء الشيعة

كان الإمام أبو هاشم بن محمد بن الحنفية قد أوصى بالإمامة من بعده لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ثم تحولت إليه فرقة الكيسانية الشيعية⁽¹⁾، وتبعها فرقة أبي هاشم الهاشمية، وأخذ يدير دعوة سرية للقضاء على بني أمية⁽²⁾.

ولدى قيام الدولة العباسية كان العلويون يرون العباسيين اغتصبوا دولتهم، إذ كانوا يظنون أن الخراسانيين يعملون من أجلهم، وأن العباسيين صرفوهم عنهم بخبثهم ومكرهم⁽³⁾. وقامت ثورات عدة للعلويين قضى عليها المنصور، فلم تقم لهم قائمة بعد ذلك. وقد ظل بعض الشعراء ينشيعون للعلويين على الرغم من أن بعضهم لم يجدوا بأساً في أن ينضوا تحت لواء العباسيين⁽⁴⁾.

وقد تراوح تأييد العباسيين للشيعة (أو تعاطفهم معهم)؛ إذ نجد بعض الخلفاء يضيقون عليهم، ويلاحقون شعراءهم على نحو ما كنا نجده عند أبي جعفر المنصور، وبخاصة أن المنصور يعد المؤسس الحقيقي للدولة العباسية؛ إذ توطدت أركان الدولة في عهده واستتب الأمر للعباسيين، ولا سيما أنه نجح في القضاء على المنافسين الحقيقيين له ولأولياء عهده من أبنائه؛ كقضائه على أبي مسلم الخراساني، وتخلص بذلك من منافس عنيد كانت أطماعه في الخلافة بادية للعيان.

وبعد عهد المنصور وتوالي الخلفاء العباسيين، نجد أن بعضهم كانوا يفرطون في التشيع ويقربون أبناء علي أبي طالب؛ كالخليفة المأمون مثلاً الذي بلغ به التشيع حداً دفعه إلى خلع أخيه المؤتمن عن ولاية العهد وتولية علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، حتى قيل: "إنه هم أن يخلع نفسه ويفوض الأمر إليه، وهو الذي لقبه الرضا، وضرب الدراهم باسمه، وزوجه ابنته"⁽⁵⁾.

(1) المذهب الكيساني ينص على إمامة محمد بن الحنفية بعد علي وابنيه الحسن والحسين، ويعتقد أتباع هذا المذهب أن ابن الحنفية لم يموت وأنه هو المهدي المنتظر. ولقد انتهت هذه الطائفة ولم يبق لها أثر. ينظر في ذلك ديوان السيد الحميري. ص 49.

(2) ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ص 91.

(3) المصدر السابق. ص 92.

(4) ينظر ذلك في تاريخ الخلفاء. ص 300 وما بعدها.

(5) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 351.

ومما ورد في كتاب تاريخ الخلفاء كذلك أن المأمون كان برّاً بأبناء علي بن أبي طالب حتى قيل له: "إنك برّ على أولاد علي بن أبي طالب، والأمر فيك أقدر منك على برهم والأمر فيهم. فقال: إنما فعلت ما فعلت؛ لأن أبا بكر لما ولي الخلافة لم يولّ أحداً من بني هاشم شيئاً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم ولي علي، فولى عبد الله بن عباس البصرة، وعبيد الله اليمـن،... وما ترك أحداً منهم إلا ولاه حتى ولّاه شيئاً، فكانت هذه منة في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت"⁽¹⁾.

ويروى عن المأمون أنه كان يقول: "أفضل الخلق بعد النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب"⁽²⁾. وقد كان حلم الخليفة المأمون دافعاً لتطاول بعض الشعراء الشيعة عليه، كـ (دعبل الخزاعي)، على نحو ما سيرد ذكره عند الحديث عن أشعار هذا الشاعر. وتروى قصص عديدة حول حلم المأمون، منها قوله: "ربما أكون في المتوضأ فيشتمني الخدام ويفترون علي، ولا يدرون أنني أسمع، فأعفو عنهم"⁽³⁾. ويذكر أن المأمون سمع يوماً رجلاً يقول: أتظنون أن المأمون ينبل في عيني، وقد قتل أخاه؛ فما زاد المأمون على أن تبسم وقال لمن حوله: ما الحيلة عندكم حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل؟⁽⁴⁾

ومن أشهر شعرائهم:

أولاً: السيد الحميري

السيد لقبه، واسمه "إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، ويكنى أبا هاشم، وأمه امرأة من الأزدي، وجده يزيد بن ربيعة شاعر مشهور، وهو الذي هجا زيادا وبنيه، ونفاهم عن آل حرب وحبسه عبيد الله بن زياد لذلك، وعذبه ثم أطلقه معاوية"⁽⁵⁾. وهو من غلاة الشيعة، وكان يجهر بتأييده للعباسيين؛ مدح السفاح حين دخل الكوفة⁽⁶⁾، فقال:

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 352.

(2) المصدر السابق. ص 352.

(3) المصدر السابق. ص 365.

(4) المصدر السابق. ص 365.

(5) الأصفهاني: الأغاني. 248 / 7.

(6) ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ص 92.

دونكما يا بني هاشم
دونكما لا علا كعب من
دونكما فالبسوا تاجها
خلافه الله وساطاته
قد ساسها قبلكم ساسة
لو خير المنبر فرساته
فلست من أن تملكوها
فجددوا من عهدا الطامسا
أمسى عليكم ملكها منافسا
لا تعدموا منكم لابسها
وعنصر كان لكم دارسا
لم يتركوا رطباً ولا يابساً
ما اختار إلا منكم فارساً
مهبط عيسى منكم آيساً⁽¹⁾

[السريع]

وهكذا نجد أن هذا الشاعر يرى أن الخلافة عادت إلى عرينها الأصلي، وأن الحق عاد إلى نصابه، ولا يفرق إذن بين العباسيين والعلويين، طالما أنهم جميعاً من آل هاشم. ولا شك في أن الشاعر يغمز بالأمويين حينما قال: (قد ساسها قبلكم ساسة) على نحو ما نجده في البيت الخامس، ويتهمهم بأنهم أفسدوا في الأرض، ولم يتركوا يابساً ولا أخضر. ومن أشعاره في مدح الخليفة المنصور، قوله:

إن الإله الذي لا شيء يشبهه
أعطاكم الله ملكاً لا زوال له
وصاحب الهند مأخوذاً برمته
أعطاكم الملك للدين والدين
حتى يقاد إليكم صاحب الصين
وصاحب الترك محبوساً على هون⁽²⁾

[البسيط]

فالشاعر يقف في صف العباسيين ويرى أن الخلافة حق لهم، وهي هبة لهم من الله لحراسة الدين وسياسة الدنيا. وقد رأى طه حسين⁽³⁾ أن أشعار السيد الحميري هذا، لا تعبر بالضرورة عن مواقف، ولا عن مواقف الشيعة، إذ يزعم أن هذا المدح نفاق وهو ما يعرف عند الشيعة بالتقية؛ فيمدح

(1) السيد الحميري: ديوانه. ت شاکر هادي شکر. دار الحياة. بيروت. ص 258، 259.

(2) المصدر السابق. ص 444.

(3) حسين، طه: حديث الأربعاء. ج 2/ ص 307.

العباسيين بلسانه ويلعنهم بقلبه، ولكن شوقي ضيف يرى أن موقف الشاعر هذا ربما هو موقف حقيقي لا نفاق فيه ولا تقيّة، وهو يمثل مذهب الكيسانية الذي وقف في صف العباسيين ضد الحكم الأموي⁽¹⁾.
الأموي⁽¹⁾.

وقد ورد في ديوان السيد الحميري، أن محمد المهدي (ولي عهد المنصور) قد استغل من اسمه ولقبه طريقاً يسلك منها إلى دعوى عريضة، لا يستطيع الشاعر أن يصبر عليها بحال من الأحوال؛ لأنها تصطدم بعقيدته الجديدة في إمامة المنتظر. فقد ادّعى الخليفة أنه المهدي المنتظر الذي بشر به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو ما لا يتفق مع عقيدة السيد الحميري الإمامية التي كانت إلى ذلك التاريخ تعتقد أن المهدي لم يولد بعد⁽²⁾. وأنشد الشاعر في ذلك معرضاً:

تَظَنُّنَا أَنَّهُ الْمَهْدِيُّ حَقًّا وَلَمْ تَقَعِ الْأُمُورُ كَمَا تَظَنُّنَا
وَلَا وَاللَّهِ مَا الْمَهْدِيُّ إِلَّا إِمَامٌ فَضْلُهُ أَعْلَى وَأَسْنَى⁽³⁾
[الوافر]

وكان السيد الحميري يضطر في بعض الأحيان إلى الاستتار والتخفي من الخليفة المهدي بعد أبياته السابقة، وظل يستغلُّ الفرص للتقرب من الخليفة واتقاء شره، حتى سنحت الفرصة عندما أخذ الخليفة البيعة لولديه موسى، وهارون، فهنأه بقوله:

آلَيْتُ لَا أَمْدُحُ ذَا نَائِلٍ مِنْ مَعْشَرٍ غَيْرِ بَنِي هَاشِمٍ
أَوْلَتْهُمْ عِنْدِي يَدُ الْمِصْطَفَى ذِي الْفَضْلِ وَالْمَنْ أَبِي الْقَاسِمِ
فَاتَهَا بِيضَاءُ مَحْمُودَةٍ جَزَاؤُهَا الشُّكْرُ عَلَى الْعَالَمِ
جَزَاؤُهَا حَفِظَ أَبِي جَعْفَرٍ خَلِيفَةَ الرَّحْمَنِ وَالْقَائِمِ
وِطَاعَةَ الْمَهْدِيِّ ثُمَّ ابْنُهُ مُوسَى عَلَى ذِي الْإِرْبَةِ الْحَازِمِ
وَلِلرَّشِيدِ الرَّابِعِ الْمَرْتَضَى مَفْتَرِضٍ مِنْ حَقِّهِ الْإِلْزَامِ⁽⁴⁾
[السريع]

(1) ضيف: العصر العباسي الأول. ص 311.

(2) السيد الحميري: ديوانه. ص 26.

(3) المصدر السابق. ص 26.

(4) السيد الحميري: ديوانه. ص 406، 407.

وفي هذه الأبيات، يصرح الشاعر بأنه قد نذر مديحه من أجل الهاشميين، عباسيين وعلويين، ويرى أنهم وحدهم أهل لهذا المديح؛ لأن فيه تقرب من الرسول الكريم، من خلال الوفاء بعهد آله وأقربائه. وإذا كان الأدباء والمؤرخون قد اختلفوا حول الشاعر في كونه على مذهب الكيسانية أو الإمامية؛ فإنه ينظم شعراً يوضح فيه عقيدته، على نحو ما يقول:

صَحَّ قَوْلِي بِالْإِمَامَةِ	وتعجبت السـلامـة
وأزال الله عنِّي،	إذ تجعفت، الملامـة
قلت من بعد حسين	بعلي ذي العلامـة
أصبح السُّجَّاد لـلإِ	سلام والـدين دعامة
قد أُراني الله أمراً	أسألُ الله تمامـة
كـي الأقيـه به في	وقـت أهـوال القيامـة ⁽¹⁾

[مجزوء الكامل]

وورد في ديوانه أنه كان في البداية يتبع المذهب الكيساني، ثم صار إمامياً فيما بعد. وكان العباسيون الذين عملوا من أجل دعوتهم سراً، يميلون إلى المذهب الكيساني الذي ينصُّ على أن الإمامة ربما تنتهي بالنصِّ إلى قادة حركتها من طريق محمد بن الحنفية، وبخاصة الرضا، وهو من آل محمد بن الحنفية.⁽²⁾

ومن الأشعار التي تبين مذهب السيد الحميري، قوله:

ألا إن الأئمّة من قُريشٍ	ولاة الحقّ، أربعة سَواء ⁽³⁾
عليّ والثلاثة من بنيهِ	هم أسباطُهُ والأولياءُ
فأنى في وصيته إليهم	يكون الشك منا والمرأ
بهم أوصاهم ودعا إليهم	جميعُ الخلق لو سُمع الدعاءُ
فسبّط سبّط إيمانٍ وحلمٍ	وسبّطُ غيبتُهُ كـربلاء
وسبّطُ لا يذوق الموت حتّى	يقود الخيلَ يقدّمها اللـواء ⁽⁴⁾

[الوافر]

(1) السيد الحميري: ديوانه. ص 409.

(2) المصدر السابق. ص 15.

(3) هم علي بن أبي طالب، وإبناه الحسن والحسين، وابنه محمد بن الحنفية.

(4) السيد الحميري: ديوانه. ص 51.

ومن الأشعار التي تشير إلى انضوائه تحت لواء الشيعة الكيسانية، قوله في مدح محمد ابن الحنفية، وأنه لم يمت وسيعود لاحقاً:

سمى نبينا لم يبق منهم سواء فعنده حصل الرجاء⁽¹⁾
تغيب غيبة من غير موت ولا قتل وسار به القضاء
وبين الوحش يرعى في رياض من الآفاق مرتعها خلاء
فحلّ فما بها بشر سواء بعقوته له غسل وماء
إلى وقتٍ، ومدة كل وقت وإن طالت عليه لها انقضاء⁽²⁾
[الوافر]

وفي هذه الأبيات، يتمثل الشاعر وجهة نظر الشيعة برجعة الإمام، وأن هذا الإمام حي يرزق، ويعيش وحيداً ترعاه الوحش. ثم يمضي في توعده خلفاء بني العباس، وبخاصة أنهم تسموا بالهادي والمهدي، فيقول:

فقل للناصب الهادي ضلالاً تقوم وليس عندهم غناء
فداء لابن خولة كل نذل يطيف به وأنت له فداء⁽³⁾
كأنا بابن خولة عن قريب وربّ العرش، يفعل ما يشاء
تثبته وجهه قمراً منيراً يضيء له إذا طلع السناء
فلا يخفى على أحد بصير وهل بالشمس ضاحية خفاء⁽⁴⁾
[الوافر]

وفي أغلب شعره نجده يحوم حول موضوعين اثنين؛ إذ يبدأ قصائده بهجاء الأمويين والتعريض بهم، ثم يتخلص إلى مدح الهاشميين، وربما كان ذلك قاسماً مشتركاً بينه وبين العباسيين

(1) المذهب الكيساني يرى رجعة محمد بن الحنفية إلى الدنيا وكان السيد يعتقد أنه لم يمت وأنه في جبل رضوى بين أسد ونمر يحفظانه وعنده عينان نضاختان يجريان بماء وعسل ويعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً .

(2) السيد الحميري: ديوانه ص 49، 50.

(3) ابن خولة هو محمد بن الحنفية، وخولة هي خولة بنت جعفر الحنفية.

(4) السيد الحميري: ديوانه. ص 50.

الذين كان يطيب لهم مثل هذه الأشعار. ومن الأمثلة على ذلك قصيدته الميمية التي تعد من غرر قصائده، يبدؤها بالتعرض للأمويين والحديث عن ظلمهم، ثم يختمها بمديح الهاشميين، وفيها يقول:

جزعت أمية من ولاية هاشم	وبكت ومنهم قد بكى الإسلام
إن يجزعوا فلقد أتتهم دولة	وبها تـدال عليهم الأيام
ولهم يكون بكل شهر أشهر	وبكل عام واحد أعوام
يا رهط أحمد إن من أعطاكم	ملك الورى، وعطاؤه قسّام
ردّ الوراثة والخلافة فيكم	وبنو أمية راغمون رغام
لمتممّ لكم الذي أعطاكم	ولكم لديه زيادة وتمام
أنتم بنو عمّ النبي عليكم	من ذي الجلال تحية وسلام
وورثتموه وكنتم أولى به	إن الـولاء تحوزه الأرحام
ما زلت أعرف فضلكم وحبكم	قلبي عليه وإنني لغلام ⁽¹⁾

[الكامل]

وكان أبو جعفر المنصور يطرب لهذه القصيدة ويطلب إلى الشاعر إعادتها في كل مناسبة، وهناك قصيدة أخرى، على النمط نفسه، كان لها أثر طيب في نفس الخليفة المنصور، وهذه القصيدة، هي:

فدع هذا، وقل في بني هاشم	فإنك بالله تستعصم
بني هاشم حبكم قربة	وحبكم خير ما يعلم
بكم فتح الله باب الهدى	كذلك غدا بكم يختم
ألام وألقى الأذى فيكم	ألا لائمى فيكم ألوم
ومالي ذنب يعدونه	سوى أنني بكم مغرم
وأنني بكم وامق ناصح	وأنني بكم معصم
فلا زلت عندكم مرتضى	كما أنا عندهم متهم
جعلت ثنائي ومدحي لكم	على رغم أنف الذي يرغم ⁽²⁾

[المتقارب]

(1) السيد الحميري: ديوانه. ص 373، 374.

(2) المصدر السابق. ص 375.

ثانياً: منصور النمري

هو " أبو الفضل أو أبو القاسم منصور بن الزبيرقان، وقيل منصور بن سلمة بن الزبيرقان بن شريك، وينتهي نسبه إلى بطن النمر بن قاسط، وعليه عرف باسم منصور النمري"⁽¹⁾. وهو من الشعراء المنتسبين الذين أسرفوا في مدح العباسيين، فمدح الرشيد على نحو نفي الإمامة عن أبناء علي بن أبي طالب وبيان أنها حق خالص للعباسيين، وأنهم (العباسيين) لا يزالون يطوقون رقاب أبناء علي بالمنن وهم يجحدونها، فيثورون، وكثيراً ما يتلقون ثوراتهم بالعفو على نحو ما صنع الرشيد بيحيى بن عبد الله، فإنه اكتفى بسجنه، ولم يقتله"⁽²⁾ ويقول الشاعر في ذلك:

يَدُّ لَكَ فِي رِقَابِ بَنِي عَلِيٍّ وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَنْنِ الْيَسِيرِ
مَنْتَ عَلِيَّ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَحْيَى وَكَانَ مِنَ الْحَتُوفِ عَلَى شَفِيرِ⁽³⁾
فَإِنْ شَكَرُوا فَقَدْ أَنْعَمْتَ فِيهِمْ وَإِلَّا فَالْندَامَةُ لِلْكَفُورِ
وَإِنْ قَالُوا: بَنُو بَنَاتٍ فَحَقُّ وَرُدُّوا مَا يُنَاسِبُ لِلذُّكُورِ
وَمَا لِبَنِي بَنَاتٍ مِنْ تَرَاثٍ مَعَ الْأَعْمَامِ فِي وَرَقِ الزَّبُورِ
بَنِي حَسَنِ وَرَهْطِ بَنِي حُسَيْنٍ عَلَيْكُمْ بِالسَّدَادِشِ مِنَ الْأُمُورِ⁽⁴⁾

[الوافر]

وفي هذه الأبيات يشير الشاعر إلى عفو الرشيد عن جماعة من العلويين ثاروا على الرشيد، مشيراً بأن له عليهم يداً عظيمة بهذا العفو. ثم يمضي الشاعر ليشدد النكير على العلويين، منكرراً أحقيتهم بالخلافة، مستندلاً على ذلك بقانون المواريث في الشريعة الإسلامية. وفي المعنى نفسه، يمدح الخليفة هارون الرشيد في قصيدة مطلعها:

مَا تَنْقُضِي حَسْرَةَ مَنْي وَلَا جَزَعُ إِذَا ذَكَرْتُ شَبَاباً لَيْسُضُ يُرْتَجِ⁽⁵⁾

[البسيط]

(1) النمري: ديوانه. ص 15.

(2) ضيف: العصر العباسي الأول. ص 314.

(3) الحتوف: جمع حتف وهو الموت والهلاك، ويقال لقي فلان حتفه، إذا مات. الشفير: الحرف أو الناحية. ويقصد بذلك أنه أنقذهم بعد أن كانوا على وشك الهلاك.

(4) النمري: ديوانه. ص 85، 87.

(5) النمري: ديوانه. ص 95.

ويمضي الشاعر في هذه القصيدة يدافع عن أحقية العباسيين في الخلافة، وأنهم أولى من آل علي الذين هم أبناء البنت، ويرى أن أبناء العمومة أولى وأحق، ثم يمضي الشاعر في ذكر المواقف التي تفضل فيها العباسيون على العلويين، ويقول:

قَدْ كِدْتَ تَقْضِي عَلَى قَوْتِ الشَّبَابِ أَسَى
أَيُّ امْرِئٍ بَاتَ مِنْ هَارُونَ فِي سَخَطِ
أَصْفَضِيَتْ وَدِي لِهَارُونَ وَشَبِيْعَتِهِ
تَلْكَ الْمَنَازِلُ إِنْ عَبَّتْ زِيَارَتُهُ
يَقْظَانُ لَا يَتَعَايَا بِالْخُطُوبِ إِذَا
لَا يَمْلِكُ الْبُخْلُ مِنْ هَارُونَ أَنْمَلَةً
رَكْبٌ مِنَ النَّمْرِ عَادُوا بِأَبْنِ عَمَّتِهِمْ
مَنُّوا إِلَيْكَ بِقُرْبَى مِنْكَ تَعْرِضُهَا
قَوْمٌ هُمْ وَلِدُوا الْعَبَّاسَ وَالسُّدُومَ
حُكْمُ الْخَلِيفَةِ هَارُونَ يُذَكِّرُنَا
مِثَابَهُ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ تَنْزَعُهُ
وَمِنْ إِمَامِ الْهُدَى الْمَنْصُورِ يَلْحَقُهُ
وَتَشْبَهُ الْقَائِمِ الْمَهْدِيِّ مَرْحَمَةً
يَا بَنَ الْأَيْمَةِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ وَيَا بَنَ
إِنَّ الْخِلَافَةَ كَانَتْ إِرْثَ وَالسُّدُومِ
وَمَا لَالِ عَلِيٍّ فِي إِمَارَتِكُمْ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَعْزُبْ عَفْوَكُمْ
الْعَمُّ أَوْلَى مِنْ ابْنِ الْعَمِّ فَاسْتَمِعُوا

لَوْلَا تَعَزِّيكَ أَنَّ الْعَيْشَ مُنْقَطِعُ
فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
لَمَّا تَفَرَّقَتْ الْأَحْزَابُ وَالشَّيْعُ
حَنَّتْ كَمَا يَسْتَحِنُّ الْوَالِدُ النَّزْعُ
نَابَتْ، وَلَا يَعْتَرِيهِ الضَّيْقُ وَالزَّمْعُ
وَالْجُودُ يَمْلِكُهُ وَالْمَالُ يُنْتَزَعُ
مِنْ هَاشِمٍ حِينَ لَحَّ الْأَرْزَمُ الْجَذْعُ
لَهُمْ بِهَا فِي سَنَامِ الْمَجْدِ مَطْعُ
وَأَنْتَ بَرٌّ وَعِنْدَ اللَّهِ مَطْعُ
أَحْكَامِ أَحْمَدَ بَلْ أَخْلَاقُهُ جَمْعُ
إِلَى الْمَحَاسِنِ وَالْأَشْبَاهُ تَنْتَزَعُ
قَهْرُ الْأُمُورِ وَحَزْمٌ حِينَ يَقْتَرَعُ
مِنْهُ وَبَحْرُ نَوَالٍ حِينَ يَنْتَجِعُ
نَ الْأَوْصِيَاءِ أَقْرَّ النَّاسُ أَوْ دَفَعُوا
مِنْ دُونَ تَيْمٍ وَعَفْوُ اللَّهِ مُتَسِعُ
حَقٌّ وَمَا لَهُمْ فِي إِرْتِكُمْ طَمْعُ
وَلَا تُضِيفُكُمْ إِلَى أَكْنَافِهَا الْبِدْعُ
قَوْلَ النَّصِيحِ فَإِنَّ الْحَقَّ يُسْتَمَعُ⁽¹⁾

[البسيط]

وفي هذه الأبيات، يصرح الشاعر بولائه للعباسيين وإخلاصه لدولتهم، وهو يحنُّ إليهم، ويمدح الخليفة (هارون) ويصفه بالكرم، كما لا يفوته مدح غيره من خلفاء بني العباس. ثم يقرر الشاعر أن الخلافة ميراث أبيهم من قبل، وليس لبني علي حق فيها.

(1) النمري: ديوانه. ص 97، 103.

وقد مدح الشاعر الخليفة هارون الرشيد غير مرة، فقال في قصيدة أخرى:

إِذَا الْغَيْثُ أَكْدَى وَأَفْشَعَتْ نُجُومُهُ فَعَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَطِيرُ
وَمَا حَلَّ هَارُونَ الْخَلِيفَةَ بَدَّةً فَأَخْلَفَهَا غَيْثٌ وَكَادُضٌ يَضِيرُ
إِذَا عَدَدَتْ النَّاسَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ فَلَيْسَ لِهَارُونَ الْإِمَامِ نَظِيرُ
مَنْعُ الْحَمَى لَكِنَّ أَعْنَاقَ مَالِهِ يَظَلُّ النَّدَى يَسْطُوبُ بِهَا وَيَسُورُ
وَقَفْتُ عَلَى حَالَيْكُمَا فَإِذَا النَّدَى عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُ⁽¹⁾

[الطويل]

والشاعر في هذه الأبيات، يبالغ في مدح الخليفة، فيراه كريماً، حتى يكاد الناس يستغنون عن الغيث بكرمه، وأينما يحل تحل معه البركة والخير، لذلك فإن الشاعر يراه أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم. وتبدو المبالغة أشد، عندما يصف الشاعر الخليفة بالكرم والمنعة على حد سواء؛ فعلى الرغم من منعته وقوته، إلا أن الكرم يبقى مسيطراً عليه.

ومن الأخبار التي وردت عنه في الأغاني: أنه "صادف دخوله إليه [إلى الرشيد] يوم نوبة مروان على ما سمعه من بيانه وكان مروان يقول قبل قدومه هذا شامي وأنا حجازي أفتراه يكون أشعر مني ودخله من ذلك ما يدخل مثله من الغم والحسد واستنشد الرشيد منصوراً فأنشده:

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ خُضْنَا غَمَارَ الْهَوْلِ مِنْ بَدِ شَطِيرِ
بِخُوصِ كَالْأَهْلَاءِ جَانِفَاتِ تَمِيلُ عَلَى السُّرَى وَعَلَى الْهَجِيرِ⁽²⁾
حَمَلْنَا إِلَيْكَ أَمَالاً ثَقَالاً وَمِثْلَ الصَّخْرِ وَالْدَّرِّ النَّثِيرِ⁽³⁾
فَقَدْ وَقَفَ الْمَدِيحُ بِمُنْتَهَاهُ وَغَايَتِهِ وَصَارَ إِلَى الْمَصِيرِ
إِلَى مَنْ لَا يُشِيرُ إِلَّا سِوَاهُ إِذَا ذُكِرَ النَّدَى كَفَّ الْمُشِيرِ⁽⁴⁾

[الوافر]

فقال مروان وددت والله أنه أخذ جائزتي وسكت⁽⁵⁾.

(1) النمرى: ديوانه. ص 95.

(2) الخوص: ورق النخل. السرى: السير ليلاً. الهجير: وقت اشتداد الحر في منتصف النهار.

(3) الدر النثير: المنثور.

(4) النمرى: ديوانه. ص 85، 86.

(5) الأصفهاني: الأغاني. 159/13.

وذكر الدكتور شوقي ضيف أن هذا الشاعر كان يناقق الرشيد ويذكر هارون في شعره ويريه أنه من وجوه شيعته، وباطنه ومراده بذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم وآله، له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى. لذلك فإن هذا الشاعر لم يكن مخلصاً في مدحه للعباسيين، بل كان يظهر خلاف ما يضمّر، إذ كان شيعياً إمامياً⁽¹⁾.

ويؤثر⁽²⁾ عن الشاعر أنه كان كثير المدح لآل النبي صلى الله عليه وسلم، مع التنديد بالأمويين والعباسيين على نحو ما نراه في لاميته التي مطلعها:

شَاءَ مِنَ النَّاسِ رَاتِعٌ هَامِلٌ يُعَلَّلُونَ النَّفْسَ بِالْبَاطِلِ⁽³⁾

[المنسرح]

ويمضي في هذه القصيدة يترحم على قتلى أهل البيت فيقول فيهم:

وَيْلَكَ يَا قَاتِلَ الْحُسَيْنِ لَقَدْ بُوَّتْ بِحِمْلِ يَبْوَءٍ بِالْحَامِلِ
نَفْسِي فِدَاءُ الْحُسَيْنِ يَوْمَ غَدَا إِلَى الْمَنَائِبِ غُدُوًّا لَا قَافِلِ
وَعَاذِلِي أَنَّنِي أَحِبُّ بَنِي أَحْمَدَ فَالْتُرْبُ فِي فَمِ الْعَاذِلِ
قَدْ دِنْتُ مَا دَيْنُكُمْ عَلَيْهِ فَمَا وَصَلْتُ مِنْ دَيْنِكُمْ إِلَى طَائِلِ
دَيْنُكُمْ جَفْوَةٌ النَّبِيِّ وَمَا لَـ جَافِي لآلِ النَّبِيِّ كَالْوَاصِلِ⁽⁴⁾

[المنسرح]

وفي هذه الأبيات يعلن الشاعر موقفه الصريح؛ فهو يقف في صف آل النبي صلى الله عليه وسلم، وأقصد بذلك أبناء علي بن أبي طالب، ويخاطب الأمويين والعباسيين على حد سواء، ويرى في الأمويين أنهم قتلوا الحسين، في حين يرى أن العباسيين اغتصبوا الخلافة من مستحقيها العلويين. ومن قصائده المتشعبة لآل البيت، قصيدته التي مطلعها:

(1) ضيف: العصر العباسي الأول ص 316.

(2) المصدر السابق . ص 316-317.

(3) النمري: ديوانه، ص 121.

(4) المصدر السابق . ص 122، 123.

مَتَى يُشْفِيكَ دَمْعُكَ مِنْ هُمُولٍ وَيَبْرُدُ مَا بَقَلْبِكَ مِنْ غَيْلٍ⁽¹⁾

[الوافر]

ويميضي في هذه القصيدة مصوراً مقتل الحسين ورهطه، فيقول:

فَوَافُوا كَرِبْلَاءَ مَعَ الْمَنَائِيَا بِمِرْدَاةٍ مُسَّوَمَةِ الْخَيْوَلِ
فَمَا بَخَلَّتْ أَكْفُهُمْ بِضَرْبِ كَأَمْثَالِ الْمُصَاعِبَةِ الْبُزُولِ
وَلَا وُجِدَتْ عَلَى الْأَصْلَابِ مِنْهُمْ وَلَا الْأَكْتَفِ آثَارُ النَّصُولِ
وَلَكِنَّ الْوَجْوهَ بِهَا كُلُّومٌ وَفَوْقَ نُحُورِهِمْ مَجْرَى السُّيُولِ
أُرِيْقَ دَمُ الْحُسَيْنِ وَلَمْ يُرَاعُوا وَفِي الْأَحْيَاءِ أَمْوَاتُ الْعُقُولِ⁽²⁾

[الوافر]

وفي هذه الأبيات، يخذ الشاعر ذكرى مقتل الحسين ورهطه بكربلاء؛ فيشير إلى أنهم لم يقتلوا هاريين ولا كانوا متقاعسين، بل إنهم قاتلوا ما استطاعوا لذلك سبيلاً؛ لذا فإن في وجوههم آثار النصول.

ثالثاً: دَعْبِلُ الْخَزَاعِي

هو: "دعبل بن علي بن رزين الخزاعي، أبو علي"، شاعر هجاء، وشعره جيد وكان صديق البحري قال عنه ابن خلكان: إنه كان بذيء اللسان مولعاً في الهجاء، وهجا الخلفاء: الرشيد والمأمون والمعتمد والواثق⁽³⁾.

وهو من الشعراء الشيعة الذين لمع ذكركم، وطار صيتهم في ذلك الوقت وقد وردت له أشعار في تصوير الكوارث التي لحقت بالعلويين، ويبكي بكاءً خاصاً على الحسين، فيقول:

(1) النمري: ديوانه. ص 125.

(2) المصدر السابق. ص 126، 127.

(3) الزركلي: الأعلام. ج 3/ ص 18.

مَلَامَكَ فِي آلِ النَّبِيِّ فَإِنَّهُمْ
فِيَا رَبِّ زِدْنِي مِنْ يَقِينِي بِصِيرَةٍ
أَلَمْ تَرَ أَنِّي مِنْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً
أَرَى فِيئَهُمْ فِي غَيْرِهِمْ مُتَقَسِّمًا
فَلَوْلَا الَّذِي أَرْجُوهُ فِي الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ
خُرُوجِ إِمَامٍ لَا مَحَالَةَ خَارِجٍ
يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ
أَحْبَابِي مَا عَاشُوا وَأَهْلُ ثِقَاتِي
وَزِدْ حُبَّهُمْ يَا رَبِّ فِي حَسَنَاتِي
أَرْوَحُ وَأَغْدُو دَائِمَ الْحَسَرَاتِ
وَأَيْدِيهِمْ مِنْ فِيئَهُمْ صَفَرَاتِ
تَقَطُّعُ قَلْبِي إِثْرَهُمْ حَسَرَاتِ
يَقُومُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتِ
وَيُجْزِي عَلَى النِّعْمَاءِ وَالنَّقَمَاتِ⁽¹⁾

[الطويل]

ويرى أبو العلاء المعري أن هذا الشاعر لم يكن صادقاً وإنه كان يريد التكسب به، والمشهور عن دعبل كثرة أشعاره في الهجاء ويرى شوقي ضيف⁽²⁾ أن الشاعر ينطوي على جحود غريب، حتى ليطعن كل من قدم له صنيعاً، فقد هجا الرشيد والمأمون، وكان المأمون إذا سمع هجاءه ضحك، وحدث أن هجاه دعبل يوماً قائلاً:

وَيَسُومُنِي الْمَأْمُونُ خِطَّةً عَاجِزٍ
يُوفِي عَلَى هَامِ الْخَلَائِفِ مِثْلَمَا
لَا تَحْسَبَنَّ جَهْلِي كَحِلْمِ أَبِي فَمَا
إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ
رَفَعُوا مَحَلَّكَ بَعْدَ طُولِ خُمُولِهِ
كَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَبْلَهُ وَخَلِيفَةٍ
أَوْ مَا رَأَى بِالْأَمْسِ رَأْسَ مُحَمَّدٍ⁽³⁾
تُوفِي الْجِبَالُ عَلَى رُؤُوسِ الْقَرَدِ
حِلْمُ الْمَشَايخِ مِثْلُ جَهْلِ الْأَمْرِدِ
قَتَلْتَ أَخَاكَ وَشَرَّفْتَكِ بِمَقْعَدِ
وَاسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ⁽⁴⁾
أَضْحَى لَنَا دَمُهُ لَذِيذُ الْمَقْصَدِ⁽⁵⁾

[الكامل]

(1) الخزاعي، دعبل بن علي . ديوانه. جمعه الصحاح عمران الجيلي. ط1. دار الكتاب اللبناني . بيروت . ص 42.

(2) ضيف: العصر العباسي الأول . ص 321، 322.

(3) محمد هو الأمين الخليفة العباسي. قتله جند المأمون بقيادة طاهر بن الحسين. السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص342.

(4) هذا البيت غير موجود في الديوان، وإنما موجود في الأصفهاني: الأغاني. 20 / 144. وعند السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص

369 كان البيت برواية (شادوا بذكرك) بدل (رفعوا محلك).

(5) الخزاعي، دعبل: ديوانه. ص 69، 70.

وقد ورد في كتاب تاريخ الخلفاء أن المأمون لما سمع الأبيات السابقة لم يزد على أن قال: ما أقل حياء دعبل! متى كنت خاملاً، وقد نشأت في حجر الخلفاء؟ ولم يعاقبه. (1) وقيل للمأمون إن دعبل بن علي قد هجاك فقال وأي عجب في ذلك! هو يهجو أبا عباد ولا يهجوني أنا، ومن أقدم على جنون أبي عباد، أقدم على حلمي. ثم قال للجلساء من كان منكم يحفظ شعره في أبي عباد فليتشدنيه؛ فأنشده بعضهم

أَوْلَى الْأُمُورِ بَضَيْعَةٌ وَفَسَادٌ أَمْرٌ يُدِيرُهُ أَبُو عَبَّادٍ (2)

[الكامل]

أما الخليفة العباسي الذي هجاه دعبل هجاء مرأً فهو المعتصم. ومن هجائه له، قوله:

وَقَامَ إِمَامٌ لَمْ يَكُنْ ذَا هِدَايَةِ	فَلَيْسَ لَهُ دِينٌ وَلَيْسَ لَهُ لُبٌّ
وَمَا كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ تَأْتِي بِمِثْلِهِ	يُمَلِّكَ يَوْمًا أَوْ تَدِينَتْ لَهُ الْعُرْبُ
وَلَكِنْ كَمَا قَالَ الَّذِينَ تَتَابَعُوا	مَنْ السَّلْفِ الْمَاضِينَ إِذْ عَظَّمَ الْخَطْبُ
مُلُوكَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتُبِ سَبْعَةٌ	وَلَمْ تَأْتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُمُ الْكُتُبُ (3)
كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي الْكَهْفِ سَبْعَةٌ	خِيَارٌ إِذَا عُدَّوْا، وَثَامِنُهُمْ كَلْبٌ
وَإِنِّي لِأَعْلِي كَلْبُهُمْ عَنْكَ رَفْعَةٌ	لَأَنَّكَ نُو ذَنْبٍ، وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبٌ
كَأَنَّكَ إِذْ مُكَّتْنَا لَشَقَائِنَا	عَجُوزٌ عَلَيْهَا التَّاجُ وَالْعِقْدُ وَالْإِتْبُ
لَقَدْ ضَاعَ مُلْكُ النَّاسِ إِذْ سَاسَ مُلْكُهُمْ	وَصَيْفٌ، وَأَشْنَسٌ، وَقَدْ عَظَّمَ الْكَرْبُ (4)

[الطويل]

ويبالغ الشاعر في هجاء المعتصم في هذه الأبيات، فيقارن بينه وبين الكلب، ثم يفضل الكلب عليه، لأن الكلب لا يذنب، والخليفة مذنب، ثم يشبهه بعجوز تلبس لباس الفتيات الصغيرات، طائفة أن ذلك يجعلها جميلة، وهو في الواقع يزيد لها قبحاً.

(1) المصدر السابق. ص 69، 70.

(2) الأصفهاني: الأغاني. 154 / 20.

(3) الخلفاء العباسيون على التوالي وحتى المعتصم هم: أبو العباس السفاح، فالمنصور، فالمهدي، فالهادي، فالرشيد، فالأمين، فالمأمون، ثم المعتصم، وبذلك يكون المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين. وديوان دعبل الخزاعي : ص 103.

(4) وصيف وأشناس قائدان تركيان من قادة المعتصم. السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 369.

وإذا كان شعراء الدولة العباسية، ينتهزون فرصة تولي خليفة جديد للخلافة؛ من أجل رثاء الخليفة المتوفى، ومدح الخليفة الجديد؛ فإن هذا الشاعر كانت له قصة أخرى في مثل هذه المواقف. إذ يروى أنه لما مات المعتصم وخلفه الواثق، جمع الشاعر بين هجاء الميت، وهجاء الخليفة الجديد بقوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا صَبْرٌ وَلَا جَدُّ وَلَا عَزَاءٌ إِذَا أَهْلُ الْبِلَا رَقَدُوا
خَلِيفَةٌ مَاتَ لَمْ يَحْزَنْ لَهُ أَحَدٌ وَآخِرٌ قَامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أَحَدٌ
فَمَرَّ هَذَا وَمَرَّ الشُّؤْمُ يَتْبَعُهُ وَقَامَ هَذَا فَقَامَ الظُّلْمُ وَالنَّكَدُ⁽¹⁾

[البسيط]

وفي هذه الأبيات يجمع الشاعر بين هجاء الحي، وهجاء الميت، وبذلك يكون على نقیض شعراء الدولة العباسية الذين كانوا يعمدون إلى الجمع بين الرثاء والمدح.

ومن أشعاره في هجاء الخلفاء العباسيين أيضاً، قوله:

وَسَمَّوْا رَشِيداً لَيْسَ فِيهِمْ لِرُشْدِهِ وَهَذَا ذَاكَ مَأْمُونٌ وَذَاكَ أَمِينٌ
فَمَا قُبِلَتْ بِالرُّشْدِ مِنْهُمْ رَعَايَةٌ وَلَا لَوْلِي بِالْأَمَانَةِ دِيْنٌ
رَشِيدُهُمْ غَاوٍ، وَظِفْلَاهُ بَعْدَهُ، لِهَذَا رَزَايَا دُونَ ذَاكَ مَجُونٌ⁽²⁾

[الطويل]

وكتب مرة قصيدة ودفع بها إلى الخليفة المعتصم، يقول فيها:

بَغْدَادَ دَارَ الْمُلُوكِ كَانَتْ حَتَّى دَهَاهَا الَّذِي دَهَاهَا
بِأَبِي وَأُمِّي سَبْعَةٌ أَحْبَبْتُهُمْ لِلَّهِ لَا لِعَطِيَّةٍ أُعْطَاهَا
بِأَبِي النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَوَصِيهِ وَالطَّيْبِيَّانِ، وَبِنْتِهِ، وَابْنَاهَا⁽³⁾

[مخلع البسيط]

(1) دعبل: ديوانه، ص 59.

(2) دعبل: ديوانه، ص 152.

(3) المصدر السابق، ص 160، 161.

ومن شدة ولائه لآل البيت يمضي الشاعر في قصائده، موضحاً أن حبه لآل البيت هو زاده للقاء الله تعالى، وهو بذلك يحتسب أجر ولائه لهم وإخلاصه في حبهم عند الله تعالى، وفي ذلك يقول:

أعدَّ اللهُ يَومَ يَلْقَاهُ دَعِبَلُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
يَقُولُهُ صَادِقاً عَسَا بِهَا يَرْحَمُهُ فِي الْقِيَامَةِ اللهُ
اللهُ مَوْلَاهُ وَالنَّبِيُّ وَمَنْ بَعْدَهُمَا فَالْوَصِيُّ مَوْلَاهُ⁽¹⁾
[المنسرح]

وقد هال الشاعر أن يرى مقتل الحسين مرفوعاً رأسه على فناة، والناس لا يتحرك لهم ساكن، وفي ذلك يقول:

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيِّهِ، يَا لِلرِّجَالِ، عَلَى قَنَاقَةٍ يُرْفَعُ
وَالْمُسْلِمُونَ بِمَنْظَرٍ وَبِمَسْمَعٍ لَا جَارِعَ مِنْ ذَا وَلَا مُتَخَشِّعٍ⁽²⁾
[الكامل]

وهكذا، نجد أن القاسم المشترك لدى شعراء الشيعة، هو مدح آل البيت، وثناء قتلاهم. ولكن الاختلاف فيما بينهم كان مرده إلى اختلاف مذاهب الشيعة من ناحية، أو اختلاف طبيعة الشاعر من ناحية أخرى؛ فمن ناحية اختلاف مذاهب الشيعة، نجد أن أتباع المذهب الكيساني، لا يجدون غضاضة في تولي بني العباس للخلافة، على أساس أن أبا هاشم عهد إليهم بها، بخلاف أتباع المذاهب الأخرى. أما ما يتعلق بطبيعة الشاعر، فقد كان بعض الشعراء الشيعة يمدحون بني العباس على سبيل التقية (وهو معروف عند الشيعة)، وبالمقابل يضمرون لهم الشر. ومن جهة أخرى نجد بعض شعراء الشيعة كانوا يتجرؤون على هجاء الخلفاء العباسيين ويتناولون عليهم، على نحو ما وجدناه في شعر (دعبل الخزاعي)، مثلاً.

(1) دعبل: ديوانه، ص 161.

(2) المصدر السابق، ص 104، 105.

المبحث الثالث

صورة الخلافة عند شعراء الزهد

عبد الله بن المبارك:

هو " أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك المروزي الخراساني، من أتباع التابعين بخراسان. ولد سنة 118هـ وتوفي سنة 182 هـ ".⁽¹⁾ ونظراً لطبيعة هذا الشاعر الزاهدة المتدينة؛ فإنه، في شعره، لم يمدح الخلفاء ولا الوزراء ولم يتقرب إليهم، وإنما كان شعره في جانب آخر، يختلف كل الاختلاف عن شعراء عصره؛ فكان شعره أداة من أدوات دعوته ورسالته. أما مدائحه، فقد قصرها على شيوخه العلماء مثل أبي حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، وكان يتجنب الوقوف بباب الخليفة، وترك عتبات الحكام وأبوابهم للمداحين من أمثال أبي العتاهية، وأبي نواس⁽²⁾.

ومن مديحه لأبي حنيفة، قوله:

رأيتُ أبا حنيفةَ كلَّ يومٍ	يزيدُ نبالةً ويزيدُ خيرا
وينطقُ بالصَّوابِ ويصطفيه	إذا ما قال أهلُ الجور جورا
يقايسُ من يقايسُهُ بلبِّ	فمن ذا يجعلونَ له نظيرا
رأيتُ أبا حنيفةَ، حين يوتى	ويطلبُ علمه، بحراً غزيراً
إذا ما المشكلات تدافعتها	رجالُ العلم، كانَ بها بصيراً ⁽³⁾

[الوافر]

ومن خلال قراءتنا لهذه الأبيات، يتبين لنا أننا أمام لون جديد من المديح، وهو مديح يختلف عما عهدناه عند شعراء الدولة العباسية؛ فالشاعر يمدح ممدوحه بالصفات الدينية؛ كالعلم الواسع، والنظر الثاقب، وغير ذلك مما يحتاج إليه الفقيه.

(1) عبد الله بن المبارك. المحتسب عبد المجيد. ط 1. عمان: من منشورات دار الأوقاف. 1972. ص 7 وما بعدها.

(2) المصدر السابق. ص 144.

(3) المصدر السابق. ص 158.

ومن مديحه لمالك بن أنس قوله:

يَأْبَى الْجَوَابَ فَمَا يُرَاجِعُ هَيْبَةً
فَالسَّائِلُونَ نَوَاسِئُ الْأَذْقَانِ
هَدِي الْوَقَارِ وَعَزَّ سُلْطَانُ التَّقَى
فَهُوَ الْمَهَيْبُ، وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ⁽¹⁾

[الكامل]

ولما مات مالك بن أنس رثاه بقوله:

صَمَوْتُ إِذَا مَا الصَّمْتُ زَيْنَ أَهْلِهِ
وَعَى مَا وَعَى الْقُرْآنُ فِي كُلِّ حِكْمَةٍ
وَفَتَّاقَ أَبْكَارِ الْكَلَامِ الْمُخْتَمِّ
وَسَيَّطَتْ لَهُ الْآدَابُ بِاللَّحْمِ وَالْدَمِ⁽²⁾

[الطويل]

وفي هذين البيتين، يذكر الشاعر مناقب الإمام المرثي، فهو طويل الصمت، في المواطن التي يحسن فيها الصمت، ولم يكن صمته نابعاً عن جهل، ولا عن عدم معرفة؛ ولا غرو في ذلك، ما دام الإمام قد وعى القرآن بما فيه من أحكام.

ولشاعرنا، في الزهد، رسالة أخرى؛ فالزهد عنده لا يتوقف عند العبادات، ولا ينحصر في الاعتكاف في المساجد، بل إن زهده في الدنيا دفعه إلى الفرار منها إلى الآخرة، من خلال الإقامة في مواطن الجهاد، والرباط على الثغور. وهذه، في نظره، هي الزهادة الحقة. وقد وردت عنه أشعار دفعها إلى المتسكين المعتكفين في المساجد، يبين فيها نهجه في الدين، وفهمه للزهد والتقى والورع؛ فقد أرسل بأبيات شعرية إلى الناسك العابد الفضيل بن عياض يقول فيها:

يَا عَابِدَ الْحَرَمِينَ لَوْ أَبْصَرْتَنَا
لَعَلَّمْتَ أَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ جِيدَهُ بِدُمُوعِهِ
فَنَحُورُنَا بِدُمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتَعَبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ
فَخَيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّكُمْ
قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ

(1) عبد الله بن مبارك. المحتسب. ص 145.

(2) المصدر السابق. ص 169.

لا يستوي غبارُ خيلِ الله في أنفِ امرئٍ، ودخانُ نارِ تلهبُ
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت، لا يكذب⁽¹⁾

[الكامل]

ولم يقف زهد الشاعر عند الابتعاد عن أبواب الخفاء، بل كان يبتعد كذلك عن تقلد الوظائف العليا في الدولة؛ خوفاً من الوقوع في الظلم والآثام، ونراه يوضح نهجه في الحياة، وموقفه من العمل في وظائف الدولة، في أبيات نظمها لما ولي (إسماعيل بن عليّة) المظالم في بغداد أيام الرشيد؛ فشق هذا الأمر على صاحبنا، وخاطبه قائلاً:

يا جاعلَ الدينِ له بازيًا يصيد به أموال المساكينِ
احتلتَ للدنيا ولذاتها بحيلة تذهب بالدينِ
فصرتَ مجنوناً بها بعدما كتبت دواءً للمجراتينِ
لا تبع الدينَ بالدنيا كما يفعلُ ضلالُّ الرهابيين⁽²⁾

[السريع]

أبو العتاهية:

هو " إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي، من قبيلة عنزة بالولاء، أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية ". شاعر مكثر سريع خاطر، في شعره إبداع كان ينظم المئة والمئة والخمسين بيتاً في جلسة واحدة ، حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره من سبيل⁽³⁾.

وقال عنه الأصفهاني: " غزير البحر، لطيف المعاني، سهل الألفاظ، كثير الافتتان، قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك، وأكثر شعره في الزهد والأمثال، وكان قوم من أهل عصره

(1) عبد الله بن المبارك. المحتسب. ص 153.

(2) المصدر السابق. ص 172.

(3) الزركلي: معجم الأعلام. 1/ 319.

ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث، ويحتجون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد⁽¹⁾.

وشاعرنا الزاهد هذا، لم يكن كل شعره في الزهد؛ فقد بدأ حياته في الكوفة واختلط بالمجان من أمثال الشاعر مطيع بن إياس ووالبة وغيرهما⁽²⁾. وقد بدأ حياته الشعرية مادحاً للخلفاء؛ فقد مدح الخليفة المهدي، والهادي، والرشيد. ولعل الخليفة المهدي من أكثر الخلفاء الذين اتصل بهم أبو العتاهية. وتشاء الأقدار أن يعتزل أبو العتاهية مذهب الأول في الشعر، وما فيه من غزل ومديح للخلفاء، ويتجه نحو الزهد وذلك بدءاً من العام (180)هـ، ليكون أحد أبرز شعراء الزهد في العصر العباسي الأول⁽³⁾.

ولعل أبرز المحطات في المرحلة الأولى من حياته مدحه للخليفة المهدي، وقد رأى الشاعر في هذا الخليفة الأهلية للخلافة حتى أنه يرى أن الخلافة أتته هي ولم يأتيها بنفسه، وأنه وحده فقط من يصلح لهذا المنصب، فيقول:

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تَجَرَّرُ أَدْيَالُهَا
وَلَمْ تَكُ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يُصْلِحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ نَزَلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالُهَا
وَإِنَّ الْخِلِيفَةَ مِنْ بَغْضٍ لَا إِلَيْهِ لِيُبْغِضَ مَنْ قَالَهَا⁽⁴⁾

[المتقارب]

ويمدح الخليفة المهدي، ويصفه بالكرم وفي ذلك يقول:

(1) الأصفهاني: الأغاني. 4/4.

(2) ضيف: العصر العباسي الأول. ص 238.

(3) المصدر السابق. ص 240. أبو العتاهية: ديوانه. جمعه أحد الأدباء اليسوعيين. مطبعة الآباء اليسوعيين. بيروت. 1886م. ص 6-8.

(4) أبو العتاهية: ديوانه. ص 309.

يا ناقُ خَبِّي بنا ولا تعدي نفسك مما ترينَ راحتِ (1)
حتى تُناخي بنا إلى ملكِ توجَّه الله بالمهابياتِ
عليه تاجان فوق مفرقه تاجُ جلالٍ وتاجُ إخباتِ
يقول للريح كلما عصفتُ هلْ لكِ يا ريحُ في مباراتي
مَنْ مثلُ من سادَ أعماماً ثم منْ أخواله أكرمُ الخؤولاتِ (2)

[المنسرح]

وفي هذه الأبيات، يحث الشاعر ناقته؛ لتوصله إلى الخليفة، حيث السخاء والعطاء، ويبالغ في وصفه بالكرم، حين يرى أن الريح لا تقدر على مباراته في ذلك. ومن مديحه فيه كذلك:

أنتَ المُقابِلُ والمُدا برُّ في المناسِبِ والعديدِ
بينَ العمومةِ والخُوءِ لةِ والأبوةِ والجُودِ
فإذا انتميتَ إلى أبيي كَ فأنتَ في المجدِ المشيدِ
وإذا انتمى خالٌ فما خالٌ بأكرمٍ من يزيدِ (3)

[مجزوء الكامل]

وفي هذه الأبيات يمدح الخليفة ذاكراً أصله الطيب. ولا ينسى أن يمدحه بصفات الشجاعة والكرم وفي ذلك يقول:

عَلِمَ العالَمُ أن المنايا سامعاتُ لكِ فيمنَ عصاكا
فإذا وجَّهتها نحوَ طاغِ رجعتَ ترَعَفُ مِنْهُ قناكا
وَلَو أنَّ الرِّيحَ بارَتَكَ يوماً في سَماحٍ قَصرتَ عن نداكا (4)

[المديد]

(1) الخبب لون من ألوان سير الجمال.

(2) أبو العتاهية: ديوانه. ص 310.

(3) أبو العتاهية: ديوانه. ص 310 ويزيد هو ابن المنصور الحميري وهو خال الخليفة المهدي.

(4) المصدر السابق. ص 311.

وفي هذه الأبيات يبالغ الشاعر في وصف الممدوح، حين يرى أن المنايا تخشاه لفرط شجاعته، وأن سرعته في الكرم، كسرعة الريح.

ولما تولى الخليفة موسى الهادي، وكان قد ولد له ولد يوم توليه الخلافة، قال في مدحه:

أَكْثَرَ مُوسَى غَضِيظَ حُسَادِهِ وَزَيَّنَ الْأَرْضَ بِأَوْلَادِهِ
وَجَاءَنَا مِنْ صُلْبِهِ سَيِّدٌ أَصِيدُ فِي تَقْطِيعِ أَجْدَادِهِ
كَأَنِّي بَعْدَ قَلِيلٍ بِهِ بَيْنَ مَوَالِيهِ وَقُوَادِهِ
فِي مَحْفَلٍ تَخْفِقُ رَايَاتُهُ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ بِأَجْنَادِهِ⁽¹⁾

[السريع]

وفي هذه الأبيات، يصور الشاعر ما حصل عليه الخليفة من نعم متعددة، بحيث أكثر من غيظ حساده؛ فقد ولي الخلافة، وهي التي ترنو إليها عيون الكثيرين، ثم إن الله رزقه بمولود؛ فاجتمعت لديه فرحتان معاً. وقد اتصل الشاعر بالرشيد ومدحه بكرم الأصل والتفرد في الشجاعة والكرم وفي ذلك يقول:

وَهَارُونَ مَاءُ الْمَزْنِ يَشْفِي مِنَ الصَّدَى إِذَا مَا الصَّدَى بِالرِّيقِ غَصَّتْ حَنَاجِرُهُ
وَأَوْسَطُ بَيْتِ فِي قُرَيْشٍ لَبِيَّتُهُ وَأَوَّلُ عِزٍّ فِي قُرَيْشٍ وَآخِرُهُ
إِذَا نُكِبَ الْإِسْلَامُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ فَهَارُونَ مِنْ بَيْنِ الْبَرِيَّةِ ثَائِرُهُ
وَمَنْ ذَا يَقُوتُ الْمَوْتَ وَالْمَوْتَ مُدْرِكٌ كَذَا لَمْ يَقُتْ هَارُونَ ضِدًّا يُنَافِرُهُ⁽²⁾

[الطويل]

ومن مدحه للخليفة يصوره بأنه الملاذ للشاعر. فلما طال مكث أبي العتاهية في الحبس قال

يستعطف الرشيد:

(1) أبو العتاهية: ديوانه. ص 309.

(2) أبو العتاهية: ديوانه. ص 312، 313.

إِنَّمَا أَنْتَ رَحْمَةٌ وَسَلَامَةٌ زَادَكَ اللَّهُ غِيْطَةً وَكَرَامَةً
قِيلَ لِي قَدْ رَضِيْتَ عَنِّي فَمَنْ لِي أَنْ أَرَى لِي عَلَى رِضَاكَ عِلَامَةً⁽¹⁾

[الخفيف]

أما المرحلة الأخرى من حياة الشاعر، فهي في الزهد؛ إذ اعتزل مدح الخلفاء وامتنع عن الاتصال بهم، ولكن ذلك لم يمنعه من أداء رسالته إليهم؛ فهو يرى نفسه ناصحاً أميناً للخلفاء، لا يبخل بنثر حكمه إليهم، على نحو ما نجده في قصيدة له مطلعها:

أَيُّنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ تَرَكَوْا الْمَنَازِلَ خَالِيَةً⁽²⁾

[مجزوء الكامل]

ويصف في هذه الأبيات دوائر الزمان، مشجعاً الخليفة على ملاقاتها، ومحذراً إياه منها، فيقول:

فَاسْتَبَدَّتْ بِهِمْ دِيَارُ رُهُمِ الرِّيَّاحِ الْهَآوِيَةِ
وَتَشَّتَتْ عَنْهَا الْجُمُوعُ عٌ وَفَارَقَتْهَا الْغَاشِيَةَ
فَإِذَا مَحَلٌّ لِلْوَحُوعِ شِ وَاللِّكْلِابِ الْعَاوِيَةِ
دَرَجُوا فَمَا أَبْقَتْ صُرُوعُ فُ الدَّهْرِ مِنْهُمْ بَاقِيَةَ
فَلَمَّا عَقَلْتَ لَتَبْكِيَنَّهُمْ بَعَيْنِ بَاكِيَةَ
لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَعْدَهُمْ إِلَّا الْعِظَامُ الْبَالِيَةَ⁽³⁾

[مجزوء الكامل]

وفي هذه الأبيات، يصور الشاعر الدنيا على نحو منفر؛ فهي تغدر بالناس، وللزمان دوائر لا تبقى على أحد، ومما لا شك فيه أن طبيعة الشاعر الزاهدة، هي مصدر أفكاره هذه.

وبعد تحذير الخليفة من نوائب الدهر، يمضي الشاعر في توجيه النصيح له، فيقول:

(1) أبو العتاهية: ديوانه. ص 322.

(2) المصدر السابق. ص 302.

(3) أبو العتاهية: ديوانه. ص 302.

يَا عَاشِقَ الدَّارِ التِّي
أَحْبَبْتَ دَاراً لَمْ تَنْزِلْ
أُخَيَّ فَارِمَ مَحَاسِنِ الدُّ
وَاعْصِ الهَوَى فِيمَا دَعَا
أُتْرَى شَبَابِكَ عَائِداً
أُودَى بِجَدِّكَ البَابِي
يَا دَارُ مَا لِعُقُولِنَا

لَيْسَتْ لَهْ بِمُؤَاتِيَهْ
عَنْ نَفْسِيهَا لَكَ نَاهِيَهْ
نِيَا بَعَيْنِ قَالِيَهْ
كَ لَهْ فَبِئْسَ الدَّاعِيَهْ
مِنْ بَعْدِ شَبَابِكَ ثَانِيَهْ
وَأَرَى مُنَاكَ كَمَا هِيَهْ
مَسْرُورَةً بِكَ رَاضِيَهْ (1)

[مجزوء الكامل]

ولا ينسى الشاعر أن يلفت انتباه الخليفة إلى الطبقة المحرومة وما تعانيه من شظف العيش، وربما كان هذا الشاعر من أوائل الشعراء الذين نبهوا الخلفاء لمثل هذه القضايا الإنسانية إضافة إلى الأمور الدينية، فيقول:

إِنِّي أَرَى الأَسْنَاعَا
وَأَرَى المَكَاسِبَ نَزْرَةً
وَأَرَى غُـمُومَ السِّدْهِرِ رَا
وَأَرَى اليَتَامَى والأَرَا
مِنْ بَيْنِ رَاجٍ لَمْ يَنْزِلْ
يَشْكُونَ مَجْهَدَةً بِأَصْوَا
يَرْجُونَ رِفْدَكَ كَي يَرُوا
مَنْ يُرْتَجَى لِلنَّاسِ غِيَا
مَنْ يُرْتَجَى لِـدِفَاعِ كَرِ
مَنْ لِلْبَطُونِ الجَائِعَا
يَا بِنَ الخَلَائِفِ لا فُقُـد
إِن الأَصُولَ الطَّيِّبَا

رَأْسَعَارِ الرَّعِيَّةِ غَالِيَهْ
وَأَرَى الضَّرُورَةَ غَاشِيَهْ
نِحَّةً تَمُرُّ وَغَادِيَهْ
مِلَ فِي البُيُوتِ الخَالِيَهْ
يَسْمُو إِلَيْكَ وَرَاجِيَهْ
تِ ضِعَافِ عَالِيَهْ
مِمَّا لَقَوَهُ العَافِيَهْ
رَكَ لِلغِيَا وَنِ البَاكِـهْ
بَ مَلَمَّةٍ هِي مَا هِيَهْ
تِ وَللِجُـسُومِ العَارِيَهْ
تِ وَلا عَدِمْتَ العَافِيَهْ
تِ لَهَا فُرُوعُ زَاكِيَهْ (2)

[مجزوء الكامل]

(1) أبو العتاهية: ديوانه. ص 303.

(2) المصدر السابق. ص 304.

وهكذا، نجد تحولاً قد طرأ على مفهوم المديح عند الشاعر؛ فهو عندما يمدحه بطيب أصله وحسن منبته، فإنه بذلك يحرصه على فعل الخير، على أساس أنه له أهل، ما دام من بيت نبوة. وقد ورد أن الخليفة المأمون، قال لأبي العتاهية يوماً: أنشدني، فقال أبو العتاهية:

أُنْسَاكَ مَحِيَاكَ الْمَمَاتَا فَطَلَبْتُ فِي الدُّنْيَا الثَّبَاتَا
 أَوْثَقْتُ بِالْـدُّنْيَا وَأَنْتَا تَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَاتَا
 يَا مَنْ رَأَى أَبَوَيْهِ فِيهَا مَن قَدْ رَأَى كَانَا فَمَاتَا
 هَلْ فِيهِمَا لَكَ عِبْرَةٌ أَمْ خَلْتِ أَنْ لَكَ انْفِلَاتَا
 وَمَنْ الَّذِي طَلَبَ التَّفَلُّ تَ مِنْ مَيِّتِهِ فَفَاتَا(1)

[مجزوء الكامل]

وقد كان تذكر الموت دائماً ينسي الشاعر أفراحه، وراح ينقل هذا الشعور للناس. وورد في ديوانه أن الخليفة الرشيد طلب منه يوماً أن يصف ما هو فيه من نعيم، فقال:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِمًا فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ
 يُسْعَى عَلَيْكَ بِمَا اشْتَهَيْتَ تَ لَدَى الرُّوَّاحِ أَوْ الْبُكُورِ

[مجزوء الكامل]

فقال له الرشيد: أحسنت، ثم ماذا، فقال:

فَإِذَا النُّفُوسُ تَقَعَّقَعَتْ فِي ظِلِّ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ
 فَهُنَاكَ تَعْلَمُ مَوْقِنَا مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ

[مجزوء الكامل]

فبكى الرشيد. فقال الفضل بن يحيى البرمكي: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته. فقال الرشيد: دعه، فإنه قد رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه(2).

(1) أبو العتاهية: ديوانه. ص 53.

(2) أبو العتاهية: ديوانه. ص 92.

المبحث الرابع

صورة الخلافة عند شعراء المجون والهو والزندقة والشعبوية

أبو نواس:

هو " الحسن بن هانئ، ولد في الأهواز، ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد، فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم. كان أبو نواس إمام المحدثين كامرئ القيس للمتقدمين. وقال كثوم العتابي: لو أدرك أبو نواس الجاهلية ما فضل عليه أحد. وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية وأخرجه من اللهجة البدوية⁽¹⁾.

وقد اتصل أبو نواس بخلفاء بني عباس، وبخاصة الأمين، وله فيه مدائح كثيرة، كما نجد لهذا الشاعر أشعاراً في الاستعطاف، نظمها بعد أن سجنه ولاة الأمر على نحو ما سيرد في الصفحات القادمة؛ إذ كان الشاعر كثيراً ما يتهم بالزندقة، وهي تهمة كافية لأن تطير لأجلها الرؤوس، وقد دافع أبو نواس عن نفسه كثيراً، وكاد أن يقتل لأجلها عدة مرات.

وإذا كان الشاعر، قد نجح، نوعاً ما، في دفع تهمة الزندقة عن نفسه، ولو بعد لأي وجهد، فإن معاقرة للخمر، أوضح من أن تحتاج إلى دليل، ويكفي أن يلقي المرء نظرة واحدة إلى ديوانه، ليجد أن أشعار الخمرة أشغلت حيزاً كبيراً من الديوان⁽²⁾.

وعلى الرغم من ذكر الخمر في كثير من الأشعار الجاهلية والإسلامية، إلا أن عدداً من الباحثين يرون أن أبا نواس إمام هذا الفن، وهو الذي جعل منها موضوعاً مستقلاً بنفسه. يقول الدكتور يوسف خليف: " وشعر أبي نواس في الخمر يحكي قصة الخمر وهو يتحدث عنها منذ أن كانت كرمة أو نخلة، ويصف كيف نمت شجرتها حتى أثمرت، وكيف أخذت ثمرتها وعصرت ثم خمرت وعتقت،

(1) الزركلي: معجم الأعلام. 2/ 240.

(2) تحتل أشعاره في الخمرة ما لا يقل عن مئة وخمسين صفحة، ولو أضيف إلى ذلك ما قاله في المجون والشعبوية، والغزل بالمذكر لطالت أكثر من ذلك. ينظر ذلك في ديوان أبي نواس. ط 1 المطبعة العمومية. القاهرة. 1898م.

ويصف مجالس الشراب وكيف تدور الكؤوس على الندماء الملتفين حولها، ويتحدث عن فعل الخمر بهم وكيف تذهب بعقولهم وترعش أيديهم⁽¹⁾.

ويرى محقق ديوان أبي نواس أن الشاعر اتصل بالعديد من خلفاء بني العباس، وأن له قصصاً مشهورة مع هارون الرشيد خاصة⁽²⁾، وأكثر أشعاره مع الخليفة الأمين، وربما كان السبب في نهجه للشعر بهذه الطريقة هو تعرفه إلى الشاعر الماجن والبة بن الحباب⁽³⁾.

ومن أشعاره في هارون الرشيد ومدحه له، قوله:

وإلى أبي الأمناء هارون الذي يحيا بصوب سماءه الحيوان
ملك تصور في القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان
هارون ألفنا اتلاف مودة ماتت لها الأحقاد والأضغان
في كل عام غزوة ووفادة تنبت بين نواهما الأقران⁽⁴⁾

[الكامل]

وفي هذه الأبيات، نلاحظ الشاعر، قد بالغ كثيراً في مدح الخليفة؛ حين يصفى عليه هالة من القداسة، على نحو قد يقود الشاعر معه إلى الشرك، فالناس يحيون بصوب سماء الخليفة، وهو موجود في كل مكان، وهي من الصفات التي انفرد بها المولى جل وعلا. أما في البيت الثالث، فلا يبتعد عن سابقه؛ إذ يشير إلى أن الخليفة هو سبب المودة بين الناس، وفي هذا المعنى دنو من الشرك بالنظر إلى الآية الكريمة:

(هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)⁽⁵⁾.

(1) خليف، يوسف: تاريخ الشعر في العصر العباسي. ص 63.

(2) يرى ابن منظور أن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط، ولا اتصل به، وإنما دخل على محمد الأمين، وأن الحكايات عن أبي نواس والرشيد موضوعة. ينظر في ذلك: ابن منظور: أبو نواس في تاريخه وشعره ومبائله وعبثه ومجونته. ت عمر أبو

النصر. 1969م . ص 194

(3) أبو نواس: ديوانه. ص 3.

(4) المصدر السابق. ص 59.

(5) سورة الأنفال: الآية (63).

ومما نظمه في مديح الخليفة محمد الأمين، قوله:

إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمْ تَنْزَلْ تَزْهُو وَتَفْخَرُ بِالْأَمِينِ
وَتَحْنُ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهِ هِ دَائِمَةَ الْحَنِينِ
بَدْرُ الْأَتَامِ مُحَمَّدٌ أَخَذَ الْمَكَارِمَ بِالْيَمِينِ
وَابْنُ الْخَلَائِفِ وَالَّذِي سَبَقَتْ بِهِ طَيْبُ الْعُصُونِ
جَاءَتْ بِهِ ابْنَةُ جَعْفَرٍ قَمْرًا جَلَا ظَلَمَ الدُّجُونِ⁽¹⁾

[مجزوء الكامل]

وفي هذه الأبيات نجد الشاعر يببالغ في مدح الخليفة حتى أن الخلافة تزهو بالأمين، وما ذلك إلا لأنه يراه أهلاً لها، ثم يمضي بمدحه ومدح أصله الطيب؛ فهو ابن الخلفاء، وأمه ابنة أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي المشهور.

ولعل هذه الأبيات السابقة لم تكن وحدها التي نظمها في الأمين على نحو مبالغ فيه؛ فنجد له أشعاراً أخرى يرى في الأمين وحيد عصره، وأن الملك لا يليق إلا لمثله، ومن ذلك قوله:

أَلَا يَا خَيْرَ مَنْ رَأَتْ الْعُيُونُ نَظِيرُكَ لَا يَحْسُ وَلَا يَكُونُ
وَفَضْلُكَ لَا يُحَدُّ وَلَا يُجَارَى وَلَا تَحْوِي حَيَازَتَهُ الظُّنُونُ
فَأَنْتَ نَسِيحٌ وَحَدِيكَ لَا شَبِيهَ نَحَاشِيهِ عَلَيْكَ وَلَا خَدِينُ
خُلِقْتَ بَلَا مُشَاكَلَةٍ لَشَيْءٍ فَأَنْتَ الْفَوْقُ وَالسُّتَقْلَانِ دُونُ
كَأَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَكُ قَبْلُ شَيْئاً إِلَى أَنْ قَامَ بِالْمُلْكِ الْأَمِينُ⁽²⁾

[الوافر]

وفي هذه الأبيات، تظهر المبالغة بأوضح صورها، وبخاصة عندما يصور الممدوح فوق الجميع، ولا شبيه له، وهو متفرد في صفاته، ولإتمام الصورة، يأتي الشاعر بألفاظ المتكلمين؛ من أجل

(1) أبو نواس: ديوانه. ص 115.

(2) المصدر السابق. ص 116.

إقناع الناس، وتحقيق المبالغة في القول، ومن هذه الألفاظ، كلمة (النظير) التي يكثر المتكلمون من استخدامها.

ومن مدحه له أيضاً ما نظمه في ركوب الأمين لحراقاته في نهر دجلة، فهو يصف ذلك بقوله:

سَخَّرَ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا لَمْ تُسَخَّرْ لِصَاحِبِ الْمِحْرَابِ
فَإِذَا مَا رِكَابُهُ سِرْنَ بَحْرًا سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْثَ غَابِ
أَسَدًا بِاسِطًا ذِرَاعِيهِ يَعْدُو أَهْرَتَ الشَّدَقِ كَالْحِ الْإِيَابِ⁽¹⁾
بَارِكْ اللهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْقَا هُوَ، وَأَبْقَى لَهُ رِذَاءَ الشَّبَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ هَاشِمِيٌّ مَوْفَقٌ لِلصَّوَابِ⁽²⁾

[الخفيف]

ويروي ابن منظور أن شيخاً أنكر على الشاعر قوله "لم تسخر لصاحب المحراب". فقال له أبو نواس: إن الله لم يسخر لصاحب المحراب الدلفين، وقد سخر له ما هو خير من الدلفين، فأبي شيء تنكر من هذا؟⁽³⁾

ومن مدحه للأمين كذلك، قوله:

أَهْدِي التَّنَاءَ إِلَى الْأَمِينِ مُحَمَّدٍ مَا بَعْدَهُ لَتَجَارَةِ مُتْرَبِصُ
قَدْ يَنْقُصُ الْقَمْرُ الْمُنِيرُ إِذَا اسْتَوَى وَبِهَاءِ نُورِ مُحَمَّدٍ لَا يَنْقُصُ
وَإِذَا بَنُو الْعَبَّاسِ عُدَّ حِصَاهُمْ فَمُحَمَّدٌ يَأْقُوتُهَا الْمَسْتَخْلَصُ⁽⁴⁾

[الكامل]

وفي هذه الأبيات، يشبه الشاعر الخليفة بالقمير المنير، ثم يفضله على القمر؛ لأن القمر يتبع تمامه نقص، أما الخليفة، فنوره لا ينقص، ولا غرو في ذلك، ما دام الأمين خير ولد المنصور.

(1) في هذا البيت يشير إلى سفن الخليفة؛ حيث كان بعضها في صورة الأسد، وأهرت: واسع الشدقين.

(2) أبو نواس: ديوانه. ص 116.

(3) ابن منظور: أبو نواس في تاريخه وشعره. ص 104.

(4) أبو نواس: ديوانه. ص 113.

ويروي ابن منظور أن الأمين لما سمع أبياته هذه، أراد إعناته، فقال له: ما تركت لي شيئاً من ثنائك بعد قولك في الفضل بن الربيع:

أَوْحَدَهُ اللهُ فَمَا مِثْلُهُ لَطَالِبِ ذَاكَ وَلَا نَاشِدِ
لَيْسَ عَلَيَّ اللهُ بِمُسْتَتَكِرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ⁽¹⁾
[السريع]

فجعلته واحد الناس، وجعلت العالم كلهم فيه، ثم تقول في آل الربيع:

آلَ الرَّبِيعِ فَضَلْتُمْ فَضَلَ الْخَمِيسِ عَلَى الْعَشِيرِ⁽²⁾
[مجزوء الكامل]

فقال: يا سيدي قد سبق من قولي في أمير المؤمنين، ما لو استحضرتة الآن اكتفيت به من عذري، فقال له الأمين: وأي شيء؟ قال: قولي:

إِذَا نَحْنُ أَتَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نَثْنِي، وَفَوْقَ الَّذِي نَثْنِي
وَإِنْ جَرَتْ الْأَفَاظُ يَوْمًا بِمَدْحَةٍ لَغَيْرِكَ إِنْسَانًا، فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي⁽³⁾
[الطويل]

وهكذا تمكن أبو نواس من الخروج من هذا المأزق، فبعد أن فضل آل الربيع على الناس كلهم، لم يبق أمامه سوى القول: إنه إن مدح إنساناً فإنما هو مديح للأمين.

وهكذا يتبين أن المبالغة سمة بارزة في مديح أبي نواس، سواء كان الممدوح خليفة أو غيره من الناس، وهو بلا شك يحتال بأسلوبه في هذا المديح الذي يهدف من ورائه إلى كسب الجوائز من ناحية، والتستر على مجونه ومعاقرة للخمر من ناحية أخرى.

(1) أبو نواس: ديوانه. ص 113.

(2) الخميس هو الخمس، والعشير هو العشر. ويقال الخميس الجيش الكثير العدة والعدد والعشير القبيلة.

(3) ابن منظور: أبو نواس في تاريخه وشعره. ص 109، 110.

ومما لا شك فيه أن اتصاله بالأمين، وعلى الرغم مما فيه من مدائح، كان وصمة عار للأمين ولنهجه في الخلافة؛ إذ أنكر كثير من العباسيين على الأمين منادمة شاعر ماجن فاسق كأبي نواس، ويروي ابن منظور أنه لما وقع الخلاف بين الأمين والمأمون، كان ذو الرياستين، يخطب بمساوئ الأمين، وقد أعدّ رجلاً يحفظ شعر أبي نواس، فيقوم بين يديه، فيقول: ومن جلسائه رجل ماجن كافر مستهزئٌ متهمك يقول كذا وكذا، وينشد قوله:

ألا فاسقتي خمرًا وقل لي: هي الخمرُ ولا تسقتي سِرًّا إذا أمكن الجهر⁽¹⁾

[الطويل]

ويقول:

يا أحمد المرتجى في كل نائبةٍ قُم سيدي نعص جبار السماوات⁽²⁾

[البسيط]

فجزع الأمين لذلك، وأمر بقتله ولما حضر قال له الأمين: ألسنت القائل: يا أحمد... إلى آخر البيت، فقال: بلى يا أمير المؤمنين. قال: كافر، ثم قال للفقهاء ما تقولون يا معشر الفقهاء؟ فقالوا: كفر يا أمير المؤمنين. فقال أبو نواس: يا أمير المؤمنين، إذا كانوا قالوا هذا بعقولهم فما أنقصها! وإن كانوا قالوه بأرائهم فما أجهلهم! أياكون زنديقاً مقرّباً للسماوات جباراً. فقال الأمين: لا والله، ولقد صدقت. وقيل إنه قال: يا أمير المؤمنين، اجمع كل زنديق في الأرض، فإن زعموا أن في السماوات إلهاً واحداً فاضرب عنقي، ولكنني صحبت قوماً جهالاً لا يعرفون المزح من الجد، وأنا يا أمير المؤمنين الذي يقول:

قد كنتُ خفتُك، ثم أمّنتني من أن أخافك خوفك الله⁽³⁾

[الكامل]

(1) أبو نواس: ديوانه. ص 273.

(2) المصدر السابق. ص 250.

(3) ابن منظور: أبو نواس في تاريخه وشعره. ص 125-127.

ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي يقف فيها أبو نواس موقف المتهم؛ إذ يروي ابن منظور أن الأمين علم أن أبا نواس يشرب الخمر "فأمر به فحبس ثلاثة أشهر، ثم دعا به وحوله بنو هاشم، وغيرهم، ودعا بالنطع والسيف وأراد قتله، فأنشأ يقول"⁽¹⁾:

تَذَكَّرُ أَمِينَ اللَّهِ - وَالْعَهْدُ يُذَكَّرُ -
 وَمَثَرِي عَلَيْكَ الدُّرَّ يَا دَرَّ هَاشِمِ
 مَقَامِي، وَإِنْشَادِيكَ، وَالنَّاسُ حُضَّرُ
 فِيَا مَنْ رَأَى دُرًّا عَلَى الدُّرِّ يُنْثَرُ
 وَأَبُوكَ الَّذِي لَمْ يَمْلِكِ الْأَرْضَ مِثْلَهُ
 وَعَمُّكَ مُوسَى الصَّفْوَةَ الْمُتَخَيَّرُ
 وَأَبُوكَ الْمَهْدِيَّ الْهُدَى وَشَقِيقَهُ
 وَأَبُوكَ الْأَدْنَى، أَبُو الْفَضْلِ جَعْفَرُ
 وَمَنْ قَبْلُ مَنْصُورِيكَ: مَنْصُورِ هَاشِمِ
 وَمَنْصُورِ قَحْطَانٍ إِذَا عُدَّ مَفْخَرُ⁽²⁾

[الطويل]

وهكذا أخذ الشاعر يستل الغضب من قلب الخليفة من خلال مدحه ومدح آبائه وأجداده، ثم يواصل مدح الخليفة بقوله:

تَحَسَّنَتْ الدُّنْيَا بِوَجْهِ خَلِيفَةٍ
 إِيمَامِ يَسُوسُ الْمُلُوكَ تَسْعِينَ حَجَّةً
 هُوَ الْبَدْرُ، إِلَّا أَنَّهُ الدَّهْرُ مَقْمَرُ
 عَلَيْهِ لَهُ مِنْهُ رِدَاءٌ وَمِزْرُ⁽³⁾

[الطويل]

ثم يختم القصيدة باستعطاف الخليفة بقوله:

أَيَا خَيْرِ مَأْمُولٍ يُرَجَّى: أَنَا امرؤُ
 مَضَتْ لِي شُهُورٌ - مَذْ حُبِسْتُ - ثَلَاثَةٌ
 أَسِيرٌ رَهِينٌ فِي سُجُونِكَ مُقْبَرُ
 فَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَذْنِبْ، فَفِيمَ حَبَسْتَنِي؟
 كَأَنِّي قَدْ أَذْنِبْتُ مَا لَيْسَ يُغْفَرُ
 وَإِنْ كُنْتُ ذَا ذَنْبٍ فَعَفُّوكَ أَكْبَرُ⁽⁴⁾

[الطويل]

(1) ابن منظور: أبو نواس في تاريخه وشعره. ص 107.

(2) أبو نواس: ديوانه. ص 106.

(3) المصدر السابق . ص 106.

(4) المصدر السابق . ص 106.

وفي هذه الأبيات يبدع الشاعر في استعطاف الخليفة، على نحو يدفعه إلى العفو عنه، إن كان مذنباً أو غير مذنب؛ فإن لم يذنب، فلم يُحَسب؟ وإن كان مذنباً، فإنه يرجو عفو الخليفة، وهو بذلك يخاطب في الخليفة كرمه ومروءته، ومما لا شك فيه أن مثل هذا الخطاب، ترق له قلوب الخلفاء، الذين يطربهم سماع هذه الألفاظ. ويروي ابن منظور أن الخليفة خلى سبيله⁽¹⁾. وقد ظل أبو نواس ملازماً للأمين حتى وفاته، وقد رثاه لما مات بقوله:

طوى الموت ما بيني وبين محمدٍ وليس لما تطوي المنية ناشراً
فلا وصل إلا عبرة تستديمها أحاديث نفس ما لها الدهر ذاراً
وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيء عليه أحاذراً
لئن عمرت دوراً بمن لا أودده فقد عمرت ممن أحب المقابر⁽²⁾

[الطويل]

ويبدع الشاعر في رثاء الأمين، وبخاصة أن العلاقة التي تربطهما كانت وثيقة؛ فيذكر الشاعر أن الموت فرق بينه وبين الخليفة، وقد أبدى الشاعر استسلامه للقضاء والقد، عندما صرح بأنه كان سابقاً، لا يخشى سوى الموت، أما الآن فلا يخشاه، لأنه أخذ منه أعز أحبائه. ثم يشير الشاعر إلى آثار ذلك، فيرى أن الديار (وهي التي تكون عامرة عادة) صارت خربة؛ لأن الخليفة لم يعد فيها. في حين أن القبور (وهي دار الخراب) صارت عامرة لوجود الخليفة فيها. والشاعر بذلك، يربط العمران بوجود الخليفة، فأينما حل فإن العمران يحل معه.

ولعل الوجه الأبرز الذي غلب على طبع أبي نواس وعلى نهجه في الشعر خمرياته، فقد كان مولعاً بذكر الخمرة، وقد أشرنا إلى حجم ما قاله في هذا الموضوع في الصفحات الماضية. ومما لا شك فيه أن تناول الموضوع بهذا الحجم يعكس ما للخمر من موقع في نفس الشاعر، وهي أشعار تعبر عن شخصية أبي نواس، على الأقل في الفترة التي قالها.

ومما قاله في الخمريات، قصيدته التي مطلعها:

(1) ابن منظور: أبو نواس في تاريخه وشعره. ص 108.

(2) أبو نواس: ديوانه. ص 129.

دَعَّ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ وَدَاوَنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ⁽¹⁾
[البسيط]

وفي هذه القصيدة يتغنى أبو نواس في الخمرة، ويطنب في ذكرها وأثرها، فيقول:

صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانَ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجْرٌ مَسَّتْهُ سَرَاءُ
قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فَلَاحَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ
فَارْسَلْتُ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَانِمُهَا لَطَافَةً وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ⁽²⁾
[البسيط]

مطيع بن إياس:

هو " مطيع بن إياس الكناني، ذكر الزبير بن بكار أنه من بني الدليل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. وذكر إسحاق الموصلي عن سعيد بن سلم أنه من بني ليث بن بكر والدليل وليث أخوان لأب وأم".⁽³⁾

ونظراً لأن الشاعر هذا، شأنه شأن شعراء المجون، لا تهمه الخلافة ولا الأمور الدينية الأخرى، وجل اهتمامه منصب على اللذة والمتعة؛ لذا لا غرابة في أن نجد جارية اسمها جوهر قد ملكت عليه لبه، حتى صار يراها أحق بالخلافة من المهدي، فيقول فيها:

وَجَوْهَرُ دُرَّةِ الْغَاوَا صِ مِنْ يَمَلِكُهَا يُحْبَرُ
لَهَا تَغْرٌ حَكَى الدُّرُّ وَعَيْنَا رَشَاءُ أَحْوَرُ
أَلَا يَا جَوْهَرَ الْقَلْبِ لَقَدْ زِدْتَ عَلَى الْجَوْهَرِ
وَلَا وَاللَّهِ مَا الْمَهْدِيُّ أَوْلَى مِنْكَ بِالْمَنْبَرِ
فَمَا عَشْتُ فِي كَفِّي كِ خَالِعُ ابْنِ أَبِي جَعْفَرٍ⁽⁴⁾
[مجزوء الوافر]

(1) أبو نواس: ديوانه. ص 234.

(2) أبو نواس: ديوانه. ص 234.

(3) الأصفهاني: الأغاني. 13/ 300.

(4) غرونيوم: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 35.

وبعد استعراض صورة الخلافة عند شعراء اللهو والمجون، يتبين أن هذه الطائفة من الشعراء، انشغلت بالبحث عن اللهو واللذة، وأطلقت العنان لشهواتها، وقد رأينا كيف أن شاعراً كبيراً مثل أبي نواس، قد أفسح مكاناً لا بأس به من ديوانه في مدح الخلفاء العباسيين، وبخاصة الأمين؛ إلا أن جل ديوانه كان يمثل مذهبه اللاهي والعبث؛ حيث الخمرة والمجون. وربما كان السبب وراء وجود مديح للخلفاء عند هذا الشاعر، هو الحاجة إلى نيل جوائز الخليفة وأعطياته، من ناحية. والحاجة إلى توفير غطاء آمن للشاعر للتمويه على فجوره وعبثه، وبخاصة أن اتصال هذا الشاعر كان مع الخليفة الأمين المشهور عنه ميله الشديد إلى العبث.

على أن أبا نواس، لم يكن يمثل شعراء هذه الطائفة جميعاً، فقد رأينا شاعراً آخر، وهو (مطيع بن إياس) الذي خصص شعره كله للعبث، حتى وجدناه يرى أن جاريته أحق بمنبر الخلافة من الخليفة. وهكذا، نظر شعراء اللهو والمجون إلى الخلافة بالقدر الذي يحقق أهدافهم، ويشبع حاجاتهم وشهواتهم.

الفصل الثاني

العوامل المؤثرة في صورة الخلافة

المبحث الأول: العوامل الدينية والفكرية

المبحث الثاني: العوامل السياسية

المبحث الثالث: العوامل الاجتماعية والاقتصادية

المبحث الأول

العوامل الدينية والفكرية المؤثرة في صورة الخلافة

المطلب الأول: الخلافة عند أهل السنة والجماعة

وردت كلمة الخلافة، ومشتقاتها في آيات عدة في القرآن الكريم؛ فقد وردت كلمة (خليفة) مرتين: مرة في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (1). ففي هذه الآية يبين الله تعالى أنه استخلف آدم لعمارة الأرض والسكن فيها. ويرى الطبري أن هذه الآية تعني أن الله تعالى "إنما أخبر ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة يسكنها" (2). ويرى ابن كثير أن خليفة هنا تعني "قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل" (3). أما السيوطي فيرى معنى آخر إذ يقول: "يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم" (4).

ومرة أخرى في قوله تعالى: (يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (5). وفي هذه الآية يبين الله أن المقصود بالخليفة هنا، الحاكم والسلطان، ويقول السيوطي إنه خليفة يدبر أمر الناس (6). أما الطبري، فيقول: "وقلنا لداود: يا داود إنا استخلفناك في الأرض من بعد من كان قبلك من رسلنا حكماً بين أهلها" (7). وهو المعنى ذاته

(1) سورة البقرة: آية (30)

(2) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 1/ 232.

(3) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 1/ 104.

(4) السيوطي، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجمال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تفسير الجلالين. ط1. دار الحديث. القاهرة. 7.

(5) سورة ص: آية (26).

(6) السيوطي: تفسير الجلالين. ص 601.

(7) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 10/ 575.

الذي يشير إليه ابن كثير في قوله: "هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى" (1).

وهكذا نجد أن الخليفة في هاتين الآيتين، كانت بمعنى السكن في الأرض وعمارتها، وبمعنى الحكم والسلطان. وورد في آيات أخرى كلمة (خلفاء)، وكلمة (خلائف) للدلالة على جمع خليفة، ومن الآيات التي وردت فيها هذه الألفاظ: (وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (2). ويفسر الطبري كلمة خلفاء، هنا بقوله: "واذكروا ما حل بقوم نوح من العذاب إذ عصوا رسولهم وكفروا بربهم فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم لما أهلكهم أهلككم منهم" (3).

ويرى الشوكاني أن المقصود بالآية: "أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح: أي جعلهم سكان الأرض التي كانوا فيها أو جعلهم ملوكا" (4). وبذلك يقرر الشوكاني المعنى ذاته الذي قال به الطبري، ويضيف معنى آخر وهو الملك والسلطان.

أما كلمة (خلائف)، فقد وردت مرات عدة في القرآن الكريم. ومن المواطن التي وردت فيها، قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (5). وقوله تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (6). وبالنظر في كتب التفسير نجد أن القرآن الكريم قد جمع (خليفة) على خلفاء، وخلائف، من دون أن يظهر فرق بين هذين الجمعين (7).

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 43 / 4.

(2) سورة الأعراف: آية (69).

(3) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 523 / 5.

(4) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. 317 / 2.

(5) سورة الأنعام: آية (165).

(6) سورة يونس: (14).

(7) الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. 272 / 2.

وتقوم النظرة الشرعية للسلطان على أساس أن الملك لله يؤتية من يشاء. وفي ذلك يقول تعالى: (وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ) (1). وقد استعمل القرآن الكريم اللفظ (أولو الأمر) للدلالة على الحاكم والسلطان. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِ ^ط وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ^ط وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) (2).

وقد ورد في القرآن الكريم آيات دالة على واجبات ولي الأمر وحقوقه. فمن حق ولي الأمر وجوب الطاعة له، يقول تعالى: (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ^ط فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ^ط ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (3).

ومن واجب ولي الأمر الرأفة بالرعية والإحسان إليهم. يقول تعالى: (وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) (4). وقوله تعالى: (وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (5). وقد فصل الفقهاء حقوق الإمام وواجباته، مستدلين على ما ورد في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، ومن حقوق الإمام (6):

أولاً: حق الطاعة: لقوله تعالى: (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ^ط فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ^ط

(1) سورة البقرة: آية (247).

(2) سورة النساء: آية (83).

(3) سورة النساء: آية (59).

(4) سورة الحجر: آية (88).

(5) سورة الشعراء: آية (215).

(6) ينظر في ذلك: القاسمي، ظافر: نظام الحكم في التشريع والتاريخ الإسلامي (الحياة الدستورية). ط2. ص358، 359.

ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا⁽¹⁾. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "السمع والطاعة على المرء

المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"⁽²⁾.

ثانياً: الحق الثاني: بذل النصيحة له سراً وعلانية، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"⁽³⁾.

ثالثاً: القيام بنصرتهم باطناً وظاهراً.

رابعاً: أن يعرف له عظيم حقه.

خامساً: إيقاظه من غفلته.

سادساً: تحذيره من عدو يتربص به.

سابعاً: إعلامه بسير عماله الذين هو مطالب بهم.

ثامناً: إيعانته على ما تحمّله من أعباء مصالح الأمة⁽⁴⁾.

ويقتضي حق الإمام في الطاعة أنه لا يجوز البيعة لأكثر من إمام، ولا يجوز لأحد أن يدعي

الإمامة بوجود إمام تمت بيعته، يقول عليه السلام: "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"⁽⁵⁾.

ومن واجبات ولي الأمر:

أولاً: حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة.

ثانياً: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين.

(1) سورة النساء: آية (59).

(2) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح المختصر. تحقيق مصطفى ديب البغا. ط3. دار ابن كثير. بيروت. 1987م. 6/ 2612.

(3) مسلم، أبو الحسين بن الحجاج: صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. 1/ 74.

(4) للاستزادة في ذلك ينظر: ابن جماعة: تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام. ص 359. طبعة أوروبا.

(5) مسلم: صحيح مسلم: 3/ 1480.

ثالثاً: حماية البيضة، والذب عن الحوزة.

رابعاً: إقامة الحدود لصيانة محارم الله.

خامساً: تحصين الثغور⁽¹⁾.

ويتحدث ابن خلدون عن وجوب الإمامة وشروطها، مشيراً إلى أن اختلافاً حول ذلك قد حدث؛ فيعقد فصلاً في مقدمته بعنوان "فصل في اختلاف الأمة في حكم الخلافة وشروطها". ويقرر ابن خلدون أن "تصب الإمام واجب قد عرف وجوبه من الشرع بإجماع الصحابة؛ لأن أصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وتسليم النظر إليه في أمورهم"⁽²⁾. وقد رفض ابن خلدون آراء جماعات أخرى أفتت بغير ذلك، ومنهم المعتزلة وبعض الخوارج، ويشير إلى أن "الواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء أحكام الشرع. فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى، لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه"⁽³⁾. ويرفض ابن خلدون آراءهم قائلاً: "وهؤلاء محجوجون بالإجماع. والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا، لما رأوا الشريعة ممثلة بدم ذلك والنهي على أهله"⁽⁴⁾. ويمضي ابن خلدون قائلاً: "واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته، ولا حظر القيام به وإنما ذم المفسد الناشئة عنه"⁽⁵⁾. ويرى ابن خلدون أن هذا المنصب من فروض الكفاية⁽⁶⁾.

وقد أوردت كتب الفقه شروط الإمامة، ومما جاء فيها أنهم اتفقوا على أن الإمام يشترط فيه⁽⁷⁾:

أولاً: أن يكون مسلماً ليراعي مصلحة الإسلام والمسلمين فلا تصح تولية كافر على المسلمين.

ثانياً: أن يكون مكلفاً ليلي أمر الناس.

⁽¹⁾ القاسمي، ظافر: نظام الحكم في التشريع والتاريخ الإسلامي (الحياة الدستورية). ط2. ص 352، 3536.

⁽²⁾ ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. ت حامد أحمد الطاهر. ص 244.

⁽³⁾ المصدر السابق. ص 245.

⁽⁴⁾ المصدر السابق. ص 245.

⁽⁵⁾ ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. ت حامد أحمد الطاهر. ص 245.

⁽⁶⁾ المصدر السابق. ص 246.

⁽⁷⁾ الجزيري، عبد الرحمن: الفقه على المذاهب الأربعة. 5/ 197.

ثالثاً: أن يكون حراً ليفرغ للخدمة .

رابعاً: أن يكون الإمام ذكراً ليتفرغ ويتمكن من مخالطة الرجال.

خامساً: أن يكون قرشياً.

سادساً: أن يكون عدلاً.

سابعاً: أن يكون عالماً مجتهداً ليعرف الأحكام ويتفقه في الدين.

ثامناً: أن يكون شجاعاً وهي قوة القلب عند البأس.

تاسعاً: أن يكون ذا رأي صائب حتى يتمكن من سياسة الرعية وتدبير المصالح الدنيوية

عاشراً: أن يكون سليم السمع والبصر.

أما ابن خلدون، فيقول: "وأما شروط هذا المنصب، فأربعة: العلم، والعدالة، والكفاية، وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل. واختلفوا في الشرط الخامس وهو النسب القرشي"⁽¹⁾. ويمضي ابن خلدون موضعاً حقيقة الخلاف في الشرط الخامس، فيقول⁽²⁾: "وأما النسب القرشي، فلإجماع الصحابة يوم السقيفة، واحتجت قريش على الأنصار لما قالوا منا أمير ومنكم أمير بقول الرسول عليه السلام: "الأئمة من قريش"⁽³⁾. ويذكر ابن خلدون أن من أسباب اشتباه المحققين في وجوب هذا الشرط أنه ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم، ويرى أن من القائلين بنفي القرشية الباقلاني⁽⁴⁾.

وبالنظر في التاريخ الإسلامي نجد أن هناك ألقاباً عدة للخلافة كلها مرادفة لهذا المعنى، ومنها: الأمير، وأمير المؤمنين، والإمام، وخليفة رسول الله⁽⁵⁾، ولم يرض أبو بكر أن يلقب بخليفة الله لأن الخلافة

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. ص 246.

(2) المصدر السابق. ص 247.

(3) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل. مؤسسة قرطبة. القاهرة. 3/ 129.

(4) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. ص 247، 248.

(5) القاسمي: نظام الحكم في التشريع والتاريخ الإسلامي. ص 368-370.

تكون للغائب، فهو خليفة رسول الله ولما جاء عمر لقب بخليفة خليفة رسول الله فاستطالها، ويروي الطبري ذلك قائلاً: "لما ولي عمر قيل يا خليفة خليفة رسول الله فقال عمر رضي الله عنه هذا أمر يطول كلما جاء خليفة قالوا يا خليفة خليفة خليفة رسول الله بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم فسمي أمير المؤمنين" (1).

المطلب الثاني: الخلافة عند الجماعات والفرق الإسلامية الأخرى

أولاً: الخلافة عند الشيعة

يعرف ابن خلدون الشيعة بقوله: "اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع، ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم، ومذهبهم جميعاً – متفقين عليه – أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين، وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله، ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر" (2).

ويمضي ابن خلدون (3) موضحاً أن الشيعة ترى أن النبي عليه السلام عين علياً رضي الله عنه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهاذة السنة، ولا نقلت الشريعة بل أكثرها موضوع، ويشير إلى أن هذه النصوص [حسب رأي الشيعة] منها ما هو جلي، كقول الرسول عليه الصلاة والسلام "من كنت مولاه، فعليّ مولاه" (4). ومنها ما هو خفي كما حدث عندما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر، لينتو على موسم الحجيج سورة براءة، ثم بعث بها علياً بعد أن أوحى إليه ليلغره رجل منك أو من قومك. ويشير ابن خلدون ان الشيعة ترى في ذلك "أدلة شاهدة بتعيين علي للخلافة دون غيره" (5).

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 2/ 569.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. ص 250، 251

(3) المصدر السابق. ص 251

(4) الإمام احمد: مسند الإمام أحمد. 1/ 118. مؤسسة قرطبة. القاهرة.

(5) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. ص 251

ويضيف ابن خلدون أن الشيعة اختلفت في مساق الخلافة بعد علي؛ "فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنص، واحداً بعد واحد... وهؤلاء يسمون الإمامية"⁽¹⁾. أما طوائفهم الأخرى: فالزيدية تشترط تشترط أن يكون الإمام في ولد فاطمة بالاختيار، والكيسانية تسوق الإمامة بعد علي وابنيه السبطين إلى محمد بن الحنفية، والرافضة يرفضون إمامة الشيخين، وللشيعة طوائف غالية متشددة أخرى؛ فمنها من يؤله الإمام، ومنها الواقفية التي تقف عند واحد من الأئمة لا تتجاوزه إلى غيره، وغير ذلك من الطوائف التي بلغ عددها حداً كبيراً بما لا يدع مجالاً للإحاطة به⁽²⁾، وسنحاول التعريف بأبرز فرقهم. فرقهم. وقد كان شعراؤهم في بداية الأمر يقفون إلى جانب الخلفاء العباسيين، على نحو ما نجده عند شاعرهم سديف بن عبد الله الذي اشتهر بتحريض السفاح على الثأر من الأمويين، حتى دعاهم إلى مآذبة غداء، وقف سديف قائلاً

جَرْدُ السَّيْفِ وَارْفَعِ العَفْوَ حَتَّى لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُويًا
لَا يَغْرُتُكَ مَا تَرَى مِنْ رَجَالٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دُويًا⁽³⁾

[الخفيف]

وقد اختلفت، فيما بعد مواقف شعراء الشيعة باختلاف مذاهبهم، على نحو ما سيتم تفصيله.

الإمامية:

"الشيعة الإمامية الاثنا عشرية هم تلك الفرقة من المسلمين الذين تمسكوا بحق علي في وراثة الخلافة دون الشيخين وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، وقالوا بانثي عشر إماماً"⁽⁴⁾. ومن معتقداتهم: ⁽⁵⁾

الإمامة: وتكون بالنص إذ يجب أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق بالعين لا بالوصف.

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. ص 252.

(2) المصدر السابق. ص 252، 253.

(3) الأصفهاني: الأغاني. 4/ 343.

(4) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة. من منشورات الندوة العالمية للشباب الإسلامي. ص 299. ط 2. مكتبة مكتبة

مسجد نور شمس.

(5) المصدر السابق. ص 301-302.

العصمة: وتعني أن كل الأئمة معصومون عن الخطأ والنسيان وعن اقتراف الكبائر والصغائر.

العلم: كل إمام من الأئمة أودع العلم من لدن الرسول صلى الله عليه وسلم.

الغيبية: ويرون أن الإمام قد غاب في سردابه وأن له غيبة صغرى وغيبة كبرى.

ولهم معتقدات أخرى كالرجعة، والتقية، والمتعة، ووجود مصحف لديهم اسمه مصحف فاطمة.

وتعود جذور هذه المعتقدات إلى يوم الجمل ومنهم من يرد أصل هذه الفرقة إلى مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه⁽¹⁾. أما عن موقفهم من الإمامة، فيرى المسعودي أن أهل الإمامة انفردوا من "أن الإمامة لا تكون إلا نصاً من الله ورسوله على عين الإمام واسمه واشتهاره كذلك، وفي سائر الأعصار، لا تخلو الناس من حجة الله ظاهراً أو باطناً"⁽²⁾.

ومن أدلتهم على ذلك، قوله تعالى مخاطباً إبراهيم: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)⁽³⁾. ويرى

ويرى شوقي ضيف أن الإمامية بفرقهم المختلفة لم يكونوا يشهرون السيوف في وجه العباسيين، بل إنهم جعلوا مبدأ التقية أساساً لنحلهم المختلفة⁽⁴⁾، على نحو ما نجده عند شاعرهم منصور النمري، الذي كان يمدح الخليفة العباسي الرشيد ويشدد النكير على أبناء علي بن أبي طالب، وذلك في قصيدته التي يقول فيها:

يَدُّ لَكَ فِي رِقَابِ بَنِي عَلِيٍّ	وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَنْ الْيَسِيرِ
مَنْتَ عَلِيَّ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَحْيَى	وَكَانَ مِنَ الْخُتُوفِ عَلَى شَفِيرِ
فَإِنْ شَكَرُوا فَقَدْ أَنْعَمْتَ فِيهِمْ	وَالْأَفَالَنْدَامَ أَلَّةً لِلْكَفُّورِ
وَإِنْ قَالُوا: بَنُو بَنَاتٍ فَحَقُّ	وَرَدُّوا مَا يُنَاسِبُ لِلذُّكُورِ
وَمَا لِبَنِي بَنَاتٍ مِنْ تَرَاثِ	مَعَ الْأَعْمَامِ فِي وَرَقِ الزَّبُورِ
بَنِي حَسَنِ وَرَهْطِ بَنِي حُسَيْنِ	عَلَيْكُمْ بِالسَّادِ مِنْ الْأُمُورِ ⁽⁵⁾

[الوافر]

(1) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة. ص 303.

(2) المصدر السابق. ص 299.

(3) سورة البقرة: آية 124.

(4) ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول. ص 308.

(5) النمري: ديوانه. ص 85، 87.

والناظر في هذه القصيدة يظن أنها لأحد شعراء الدولة العباسية، ولا يتبادر إلى ذهنه البتة أنها لأحد شعراء الشيعة الإمامية. ونرى هذا الشاعر في مواطن أخرى يرثي قتلى آل البيت على نحو ما يقول:

وَيْلَكَ يَا قَاتِلَ الْحُسَيْنِ لَقَدْ بُوتَ بِحِمْلِ يَنْوِءُ بِالْحَامِلِ
نَفْسِي فِدَاءُ الْحُسَيْنِ يَوْمَ غَدَا إِلَى الْمَنَائِيَا غُدُوًّا لَا قَافِلُ
وَعَاذِلِي أَنَّنِي أَحِبُّ بَنِي أَحْمَدَ فَالْتُرْبُ فِي فَمِ الْعَاذِلِ
قَدْ دِنْتُ مَا دَيْنُكُمْ عَلَيْهِ فَمَا وَصَلْتُ مِنْ دَيْنِكُمْ إِلَى طَائِلِ
دَيْنُكُمْ جَفْوَةٌ النَّبِيِّ وَمَا لَـ جَافِي لآلِ النَّبِيِّ كَالْوَاصِلِ⁽¹⁾

[المنسرح]

والتناقض الذي نجده عند هذا الشاعر لا يمكن تفسيره إلا في ضوء مبدأ التقيية المعروف عند الشيعة الإمامية، وإلا كيف يهجو الشاعر العلويين في موطن، ثم يترحم عليهم في موطن آخر؟ ويرى شوقي ضيف أن الشاعر الإمامي الوحيد الذي جاهر بموقفه من العباسيين، هو دعبل الخزاعي⁽²⁾، فقد اشتهر هذا الشاعر بهجائه للخلفاء العباسيين، فلما سمع بموت الإمام الرضا وأنه دفن بالقرب من هارون الرشيد، أنشأ يقول:

أَرْبَعُ بَطُوسٍ عَلَى قَبْرِ الزُّكِيِّ بِهَا إِنْ كُنْتَ تَرْبِعُ مِنْ دِينِ عَلِيٍّ وَطَرِ⁽³⁾
قَبْرَانِ فِي طُوسٍ: خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَقَبْرُ شَرِّهِمْ، هَذَا مِنَ الْعَبْرِ
مَا يَنْفَعُ الرَّجْسَ مِنْ قَبْرِ الزُّكِيِّ، وَلَا عَلَى الزُّكِيِّ بِقَرْبِ الرَّجْسِ مِنْ ضَرَرِ
هِيَاهُ، كُلُّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِمَا كَسَبَتْ لَهُ يَدَاؤُهُ، فَخُذْ مَا شِئْتَ، أَوْ فَذَرْ⁽⁴⁾

[البسيط]

(1) النمرى: ديوانه. ص 122، 123.

(2) ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول. ص 308.

(3) اربع معناها قف وانتظر.

(4) دعبل الخزاعي: ديوانه. ص 198.

والشاعر في هذه الأبيات يرى أن من العبر أن يجتمع قبر خير الناس، ويقصد الإمام الرضا، وقبر شر الناس، ويقصد هارون الرشيد، في مكان واحد، ثم يستدرك موضحاً أن هذا الأمر لن يفيد الخليفة الرشيد ولن يضر الإمام، طالما أن كل إنسان رهن بما كسبت يده، وربما استوحى الشاعر هذه الفكرة من قوله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)⁽¹⁾ وقصيدة الشاعر في هجاء المعتصم أشهر من أن تذكر⁽²⁾.

الكيسانية:

وهو مذهب من مذاهب الشيعة، ويعرف به صاحب موسوعة الفرق والأديان والأحزاب والحركات الإسلامية بقوله إنهم أصحاب كيسان مولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومن مبادئهم القول بإمامة محمد بن الحنفية على الرغم من اختلافهم في سبب إمامته⁽³⁾. ويشير البغدادي في كتابه الملل والنحل أن "الإمامة صارت إلى ابن الحنفية بوصية أخيه الحسين إليه، قبل خروجه إلى الكوفة. وكان ولد الحسين يومئذ صغاراً، فلذلك أوصى إلى أخيه، وهؤلاء جاهلون بتلك الوصية، فليس فيها ذكر عهد إليه، وإنما أوصى إليه في ماله وولده وصدقة يتصدق بها عنه"⁽⁴⁾. ويذكر أيضاً: أن الكيسانية اختلفت "بعد موته: فمنهم من زعم أنه في جبل رضوى، وأنه حي لم يموت، وهو المهدي المنتظر، وإنما عوقب بالحبس هناك"⁽⁵⁾.

ومن الأشعار التي تمثل هذا المذهب، أشعار السيد الحميري، حيث كان يجهر بتأييد العباسيين،

ومن ذلك قوله:

(1) سورة المدثر: آية (38).

(2) ورد ذكر هذه الأبيات في الفصل الأول ص 52.

(3) الحفني، عبد المنعم: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية. ط 2. مكتبة مدبولي. 1999. 536.

(4) البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي: الملل والنحل. قدم له وحققه ألبير نصري نادر. دار المشرق. بيروت. ص 48.

(5) المسعودي: مروج الذهب. ص 565.

دونكما يا بني هاشم
دونكما لا علا كعب من
دونكما فالبسوا تاجها
خلفه الله وساطاته
قد ساسها قبلكم ساسة
لو خير المنبر فرساته
فلست من أن تملكوها
فجددوا من عهدا الطامسا
أمسى عليكم ملكها منافسا
لا تعدموا منكم لابسها
وعنصر كان لكم دارسا
لم يتركوا رطبها ولا يابسها
ما اختار إلا منكم فارسا
مهبط عيسى منكم آيسا⁽¹⁾

[السريع]

وفي هذه الأبيات نرى الشاعر يمدح الهاشميين من عباسيين وعلويين دون تخصيص، ويرى أن الخلافة عادت إلى عريتها الأصل.

طوائف أخرى من الشيعة: (الزيدية، الرافضة، والمرجئة).

وتعد الزيدية أقرب فرق الشيعة من أهل السنة والجماعة، حيث تتصف بالاعتدال والقصد والبعد عن التطرف والغلو، كما أن نسبتها ترجع إلى مؤسسها زيد بن علي زين العابدين. وقاد ثورة شيعية ضد الأمويين أيام هشام بن عبد الملك، وقد دفعه أهل الكوفة لهذا الخروج ثم ما لبثوا أن تخلوا عنه لما علموا أنه لا يتبرأ من الشيخين: أبي بكر وعمر ولا يلعنهما⁽²⁾. ويذكر المسعودي أن الزيدية سميت بهذا الاسم؛ لأن أتباعها خرجوا مع زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ويذكر كذلك أن الزيدية انقسمت إلى ثماني فرق⁽³⁾.

وعن مذهبهم في الإمامة يذكر الحفني أن الإمامة عندهم "تجوز لأي فاطمي (يعني من ولد فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم)، وهما: الحسن والحسين بشرط أن يكون عالماً وشجاعاً وسخياً

(1) السيد الحميري: ديوانه. ص 258، 259.

(2) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة. من منشورات الندوة العالمية للشباب الإسلامي. ط 2 مكتبة مسجد نور شمس. ص 257.

(3) البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي: الملل والنحل. قدم له وحقه ألبير نصري نادر. ص 48.

يخرج بالإمامة، وعندئذ تجب له الطاعة. وقالوا: يجوز خروج إمامين في قطرين مختلفين في وقت واحد طالما أنهما يستجمعان شروط الإمامة⁽¹⁾.

أما الرافضة، فهم الشيعة الرافضون لإمامة أبي بكر وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، أو انهم الغلاة في حب علي بن أبي طالب، وبغض أبي بكر وعثمان وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان. وعن سبب تسميتهم بالرافضة، هو أنه لما خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب على هشام بن عبد الملك، فأراد أنصاره الطعن في أبي بكر، فمنعهم، فتركوه وانصرفوا عنه فقال لهم: رفضتموني؟ فبقي اسم الرافضة عليهم⁽²⁾.

ويرى أحمد أمين أن أدب الرافضة والزيدية قليل لأن مذهبهم لا ينتج شعراً كمذهب الاعتزال أو الكلام⁽³⁾، وجل ما وجدته عن هذه الفئة، ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين من أشعار لشاعر يدعى يدعى "معدان الأعمى" يصف هاتين الفئتين بقوله:

والذي طفف الجدار من الذعر قد بات قاسم الأنفال
فغدا خامعا بوجه هشيم وبساق كعود طلح بال⁽⁴⁾

[الخفيف]

أما المرجئة، فهم الذين يجيزون عفو الله حتى مع عدم التوبة، وهم على نقيض من الخوارج الذين يكفرون صاحب الكبيرة، ويعدونه كافراً. ومن الأمثلة على شعراء المرجئة ما ذكره الأصفهاني عن "فضل الرقاشي"، وقال: إن الرقاشي عارض أبا دلف لما قال:

ناوليني الرمح قد طا لَ عن الحرب جماي
مرلي شهران مذلم أرم قوماً بسهامي⁽⁵⁾

[مجزوء الرمل]

(1) الحفني، عبد المنعم: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية. ص 367.

(2) المصدر السابق. ص 356.

(3) أمين: ضحى الإسلام 3/ 327.

(4) الجاحظ: البيان والتبيين. 1/ 426.

(5) الأصفهاني: الأغاني. 16/ 262.

فقال:

جنينبي الدرع قد طا عن القصف جماي
واكسري المطرد والبيض وانتني بالحسام
واقذفي في لجة البحر ر بقوسسي وسهامي
وبترسسي وبرمحي وبسرجي ولجمامي⁽¹⁾
[مجزوء الرمل]

ثانياً: الخلافة عند المعتزلة

يعد المعتزلة من أبرز أصحاب الكلام الذين ظهوروا في العصر العباسي، وبخصوص نشأتهم يرى أحمد أمين أنه لما اختلفت الأمة، في وقت الحسن البصري، فيمن يكثر من الكبائر من الأمة؛ "فزعمت الأزارقة من الخوارج أنه مشرك كافر، وقالت الأباضية منهم أنه موحد كافر وليس بمشرك. وزعمت البكرية أنه منافق. وقال الجمهور الأعظم من الصحابة والتابعين أنه مؤمن بتوحيده ومعرفته بربه، وتصديقه لكتب ربه ورسوله، فاسق بكبيرته؛ فخرج واصل بن عطاء عن أقوال الأمة في هذا الأصل، وزعم أنه فاسق، لا مؤمن، ولا كافر، وجعل الفاسق في منزلة بين المنزلتين... فلما رأى الحسن خلاف واصل على الأمة، طرده عن مجلسه، فاعتزل إلى سارية من سواري المسجد، وأظهر بدعته عندها"⁽²⁾.

وقد ظهر علم الكلام نتيجة للتقدم العلمي وورقي الحياة العقلية في العصر العباسي. ويعرفه ابن خلدون بقوله: "هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات، عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد"⁽³⁾. وقد اضطلع أصحاب هذا العلم، وجلهم من المعتزلة بالرد على المنحرفين، إذ يرى أحمد أمين أن "الذين تصدوا للرد على الملحدين هم معتزلة ذلك العصر أمثال واصل بن عطاء، وأبي هذيل العلاف،

(1) الأصفهاني: الأغاني 16 / 262.

(2) أمين، أحمد: ضحى الإسلام. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1997م. 1 / 83.

(3) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. تحقيق حامد أحمد الطاهر. ص 551.

وبشر بن المعتز، وإبراهيم النظام؛ فهؤلاء أخذوا يستعرضون ما تقوله الزنادقة ويناقشونهم ويردون عليهم، ويلزمونهم الحجة⁽¹⁾.

وذكر الجاحظ أن بشار بن برد كان يدين بالرجعة، ويكفر الأمة؛ فانبرى إليه شاعر المعتزلة (صفوان الأنصاري)، حيث رد على بشار بقوله:

زعمتَ بأن النارَ أكرمُ عنصراً وفي الأرضِ تحيا بالحجارةِ والزندِ
ويُخلقُ في أرحامها وأرومها أعاجيبُ لا تُحصى بخطِّ، ولا عقْدِ⁽²⁾
وفي القعرِ من لُجِّ البحارِ منافعٌ من اللؤلؤِ المكنونِ والعنبرِ الوردِ⁽³⁾

[الطويل]

ولم تخل جهود المعتزلة في الدفاع عن العقيدة والتوحيد من شوائب كثيرة جعلتهم من أصحاب البدع، ومن أشهر البدع التي استحدثتها المعتزلة القول بخلق القرآن، تلك البدعة التي كادت أن تفتك بالأمة، لولا أن تنبه لها الخليفة المتوكل — كما مرَّ معنا في الفصل السابق — وأبطل القول بها، ومنذ ذلك الحين أفل نجم المعتزلة.

ويتحدث ابن خلدون عن بدعة خلق القرآن فيقول: "لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء، وألف المتكلمون في التنزيه؛ حدثت بدعة المعتزلة، فقصوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة... وقصوا بنفي الكلام لشبهه ما في السمع والبصر، ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس؛ فقصوا بخلق القرآن"⁽⁴⁾.

وقد وجدت هذه البدعة (خلق القرآن) آذاناً صاغية لدى بعض خلفاء بني العباس، وحاولوا فرضها على المجتمع المسلم. ويذكر ابن كثير "أن المأمون كان قد استحوز عليه جماعة من المعتزلة،

(1) أمين: ضحى الإسلام. 179/1.

(2) العقد: الحساب ويقصد به العد.

(3) الورد: الأحمر. الجاحظ: البيان والتبيين. 29 / 1.

(4) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. ص 558، 559.

فأزاعوه عن طريق الحق إلى الباطل، وزينوا له القول بخلق القرآن ونفي الصفات عن الله عز وجل قال البهقي ولم يكن في الخلفاء قبله من بني أمية وبني العباس خليفة إلا على مذهب السلف (1).

ويعرف عبد المنعم الحفني المعتزلة بقوله: "ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية، وبالعدلية، وأصول مذهبهم هي التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فمن خالفهم في التوحيد سموه مشركاً، ومن خالفهم في الصفات سموه مشبهاً، ومن خالفهم في الوعيد سموه مرجئاً، ومن اكتملت له وتحققت فيه هذه الأصول الخمسة فهو المعتزلي حقاً" (2).

ويفسر المسعودي، مبادئ المعتزلة فيرى أن المقصود بالتوحيد أن الله عز وجل لا كالأشياء، وأنه ليس بجسم ولا عَرَض (3). أما العدل فالمقصود به "أن الله لا يحب الفساد، ولا يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به، ونهوا عنه، بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم، وأنه لم يأمر إلا بما أراد ولم ينه إلا عما كره" (4). والمقصود بالوعد أن الله "لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة" (5). والمقصود بالمنزلة بين المنزلتين أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، بل يسمى فاسقاً. كما قالوا بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (6).

أما موقف المعتزلة من الإمامة، فيذكر المسعودي أن المعتزلة تذهب إلى أن الإمامة "اختيار من الأمة، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ولا رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولا اجتمع المسلمون عندهم على رجل بعينه، وإن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة، تختار رجلاً منها ينفذ فيها أحكامه، سواء أكان قرشياً، أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان" (7). ومن الأدلة

(1) ابن كثير: البداية والنهاية. 10/ 331

(2) الحفني، عبد المنعم: ص 589.

(3) المسعودي: مروج الذهب. ص 563.

(4) المصدر السابق. ص 564.

(5) المصدر السابق. ص 564.

(6) المصدر السابق. ص 564.

(7) المصدر السابق. ص 565.

التي ساقوها على ذلك، قول الله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ)⁽¹⁾. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع"⁽²⁾.

وعليه، فإن شعراء المعتزلة لما مدحوا الخلفاء العباسيين، حرصوا على إظهارهم بصورة الخلفاء الحريصين على مصالح الأمة، وفي ذلك يقول العتّابي:

إمام له كف تضم بناتها عصا الدين ممنوع من البري عودها
وعين محيط بالبرية طرفها سواء عليه قربها وبعيدها⁽³⁾

[الطويل]

ويرى الدكتور أحمد أمين أن المعتزلة أسأوا فهم الدين عندما "أصبح علماء الكلام والمذاهب الدينية، ينظرون إلى القرآن الكريم من خلال الفلسفة اليونانية، وذلك إن كان فيه مران عقلي وتوسيع لبعض مناحي الفكر؛ ففيه إضعاف لقوة الروح وحماسة القلب... فكلهم استخدموا الأدلة اليونانية في العقائد الدينية، وهي غير الطريقة التي نحاها القرآن الكريم في الدعوة إلى الدين، لقد كادوا بعملهم هذا يقطعون الصلة بين العقل والقلب"⁽⁴⁾. ويضيف أمين قائلاً: "وكان كلما تعمق المسلمون في العلوم والفلسفة، نظروا إلى القرآن الكريم من خلالها، فإذا أتت آية في الرعد والبرق شرحوها بكل ما وصل إليه علمهم في الظواهر الجوية. وإذا أتت آية في النجوم والسماء طبّقوا ما علموا من علم الهيئة... وإذا أتت مسألة نحوية أفاضوا في الخلافات النحوية بين البصريين والكوفيين. وعلى الجملة، فقد كدسوا كل ما عرفوا من علوم حول الآيات القرآنية، وتضخم ذلك على توالي الأزمان، كما ترى بعد في تفسير الفخر الرازي؛ ففيه كل شيء وصل إليه المسلمون إلا شيئاً واحداً، هو شرح روح القرآن"⁽⁵⁾.

(1) سورة الحجرات: آية 13

(2) الحديث في مسند الإمام أحمد "اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي مجدع ما أقام فيكم كتاب الله عز وجل" الإمام أحمد، أبو عبد الله الشيباني: مسند الإمام أحمد. مؤسسة قرطبة. القاهرة. 70 / 4.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين. 1 / 410.

(4) أمين: ضحى الإسلام. 1 / 385.

(5) المصدر السابق. 1 / 387.

ومن الأشعار التي تمثل وجهة نظر المعتزلة، وموقفهم الوسط بين الخوارج والمرجئة، يقول أحد أقطاب المعتزلة، وهو بشر بن المعتمر:

لسنا من الرافضة الغلاة ولا من المرجئة الحفأة
لا مفرطين بل نرى الصديقا مقدماً والمرضى الفاروقاً⁽¹⁾
[الرجز]

من أجل ذلك نجد ابن خلدون يشكر أصحاب علم الكلام، والمعتزلة على جهودهم في محاربة المرتدين والملحدين بالحجة والبيان، ولكنه في الوقت نفسه يرى أن هذا العلم قد استنفد أغراضه، ولم يعد لتعلمه حاجة، وفي ذلك يقول: "وعلى الجملة، فينبغي أن تعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري، لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما دونوا وكتبوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا"⁽²⁾.

ويلاحظ أن الفقهاء شددوا النكير على أتباع هذا المذهب، إذ يذكر ابن كثير أن الشافعي يقول "لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما عدا الشرك أحب إلى من أن يلقاه بعلم الكلام"⁽³⁾.

ثالثاً: صورة الخلافة عند أهل الزهد والتصوف:

على الرغم من وجود موجة المجون والزندقة في العصر العباسي، إلا أننا لا نعدم حركة للتدين، يظهر رجالاتها في المجتمع، وإن كانت هذه الحركة الدينية الزاهدة لا تقل شهرة عن نقيضتها؛ ولكن ارتباط بعض الشعراء، ومنهم المشهورون، بالمجون، أوهم الناس أن الطابع العام للدولة العباسية هو طابع المجون والفساد. ويستعرض أحمد أمين ظاهرة الورع والتدين هذه، موضحاً انتشارها في ذلك العصر بقوله: "يقابل حركة الزندقة والشك هذه، حركة إيمان صادق من جانب آخر. وإذا كنا نريد أن نفهم جوانب الحياة في هذا العصر، وجب علينا أن نصور جانب الإيمان كما صورنا جانب الزندقة.

(1) الموسوعة الشعرية.

(2) ابن خلدون: المقدمة. ص 561.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية. 10/ 281.

والذي يظهر لي أن جانب الإيمان في ذلك العصر كان الأعم الأشهر، والزندقة – بمعنى الشك والإلحاد – كانت حظ قليل من المفكرين، إذا قيس بالعدد العديد من المؤمنين⁽¹⁾.

ويمضي أحمد أمين موضحاً سبب اشتهار الزندقة بهذا الشكل والتوهم بأنها طابع عام بقوله: "والزندقة ليست إلا شذوذاً في اتجاه التيار العام. والذي زاد في عدد الزنادقة، أنهم أطلقوا الكلمة على المجان والمستهترين، ولو لم يصل الشك في الدين إلى نفوسهم، وإن شئت فقل: إنهم لم يفكروا في الدين تفكيراً إيجابياً ولا سلبياً، وإن كثيرين حشروا مع الزنادقة سياسة لا ديناً"⁽²⁾. وعليه، فقد ظهرت حركات للتدين، في العصر العباسي، تمثلت في مظهرين، هما: الزهد، والتصوف.

ويرى عبد الستار السيد متولي أن الزهد نزعة قديمة قدم الإنسان نفسه؛ فقد وجدت في الأديان السماوية وغير السماوية، فهي نزعة فطرية لا ترتبط بدين معين، ولا بأمة خاصة؛ ففي الجاهلية ظهرت هذه النزعة في أقوال الحكماء من الشيوخ، وترددت على ألسنة بعض الشعراء في أثناء قصائدهم، وكانت تتميز بالسطحية وعدم العمق في الفكرة⁽³⁾.

أما في العصر الأموي؛ فإن حوادث معينة قد شجعت هذه النزعة وعملت على بلورتها؛ ذلك أنه حصلت في ذلك العصر فتن وأحداث جعلت البعض يفضل الاعتكاف في بيته عن المشاركة في هذه الأحداث؛ فظهرت بذور الزهد الأولى في العصر الأموي نتيجة ما سبق وبفضل مجالس الوعظ⁽⁴⁾.

والمقصود بالزهد: "الإعراض عن الدنيا ومتاعها وطيباتها، والاكتفاء بما يقيم الأود من الطعام الخشن والعيش الخشن. وذلك انطلاقاً من استحقاق هذه الدنيا وملذاتها، وتذكيراً لحقيقة الموت، وما بعدها، وحقيقة الآخرة وما فيها من حساب وعقاب"⁽⁵⁾.

وفي العصر الأموي وما قبله، لم يظهر شعراء اختصوا بالقول في الزهد فقط، وإن كانت هناك نماذج لأشعار زاهدة. ولكن "ما إن بدأ القرن الثاني الهجري، إلا وتطور هذا الفن من الشعر، فأصبح

(1) أمين: ضحى الإسلام. 1 / 176.

(2) المصدر السابق. 1 / 176.

(3) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وأشهر رجاله. 1984 . ص9.

(4) المرجع السابق. ص9.

(5) جامعة القدس المفتوحة: نصوص شعرية (2) .. ط 1. 1993. ص 26

له خصائصه ومقوماته، وله ميدانه الذي يقوم على التعبير عنه، وذلك الميدان هو الحياة الروحية التي تميزت عن الحياة الروحية في المجتمع الإسلامي في النصف الثاني من القرن الهجري الأول⁽¹⁾.

ومن الأمثلة على ما نظمه الشعراء في موضوع الزهد في هذا العصر، ما روي عن الخليل ابن أحمد الفراهيدي، إذ رفض عرضاً للخليفة الأموي (سليمان بن عبد الملك) لتعليم أبنائه، مضحياً بما يمكن أن يجنيه لقاء ذلك من صلوات وجوائز، ويخلد هذا الموقف بقوله:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة	وفي غنى غير أني لستُ ذا مالٍ
سخي بنفسي أني لا أرى أحداً	يموتُ هزلاً، ولا يبقى على حالٍ
الرزقُ عن قدرٍ لا الضعفُ ينقصُه	ولا يزيدُك فيه حولُ مُحْتالٍ
إن كان ضنُّ سليمان بنائله	فاللهُ أكرمُ مسؤولٍ لسؤالٍ
والفقرُ في النفسِ لا في المالِ نعرفه	ومثلُ ذاك الغنى في النفسِ لا المالِ ⁽²⁾

[البسيط]

وقد عرف هذا النمط من التدين من خلال أعلام كانوا المثل الأعلى فيه، وضربوا أروع الأمثلة في التقشف والبعد عن الدنيا وملذاتها. وأمثلة هؤلاء الرجال عصية على الحصر، ويكفي أن نذكر بعض من أوردتهم أحمد أمين، إذ يقول: "اشتهر جماعة كثيرة في ذلك، وكانوا المثل الأعلى في الإيمان، أمثال عبد الله بن المبارك، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وداود الطائي، والفضيل بن عياض، تقرأ ترجمتهم، فتتبين فيهم ورعاً وتقوى، وإيماناً صادقاً، وهروباً من الاتصال بوال أو أمير، ورفض أي منصب يعرضه عليهم العباسيون"⁽³⁾.

ويذكر الدكتور شوقي ضيف قصص الزهاد الذين كانوا يقدون على الخلفاء لوعظهم. وفي ذلك يقول: "وكان من الوعاظ من يقتحم قصر الخلافة ليعظ الخلفاء على نحو ما هو معروف عن عمرو بن عبيد في وعظه للمنصور، وصالح بن عبد الجليل في وعظه للمهدي، وابن السماك في وعظه لهارون الرشيد"⁽⁴⁾.

(1) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وأشهر رجاله. ص 10.

(2) الموسوعة الشعرية.

(3) أمين: ضحى الإسلام. 1 / 177.

(4) ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول. ص 84. ط 16.

وقد أورد السيوطي حادثة في وعظ السماك للرشيد؛ إذ "روى أن السماك دخل على الرشيد يوماً، فاستسقى، فأتي بكوز، فلما أخذه قال: على رسلك يا أمير المؤمنين، لو مُنعتَ هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي، قال اشرب هناك الله تعالى، فلما شربها قال: أسألك لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتري خروجها؟ قال: بجميع ملكي، قال: إن ملكاً قيمته شربة ماء وبولة لجدير ألا ينافس فيه، فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً"⁽¹⁾.

ويورد المسعودي حادثة جرت بين الخليفة العباسي المهدي، وبين أحد الزهاد، وهو سفيان الثوري، يوضح خلالها، ما اتصف به الثوري من جرأة في الحق، وزهد في المال والمنصب، فيقول: "قال الفقعاق بن الحكيم: كنت عند المهدي، وأتى سفيان الثوري، فلما دخل عليه سلم تسليم العامة، ولم يسلم تسليم الخلافة، والربيع قائم على رأسه، متكئ على سيفه يرقب أمره، فأقبل المهدي بوجهه طلق وقال له: يا سفيان تفر منا ههنا وههنا، وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهواناً؟ قال سفيان: إن تحكم فيّ، يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل، فقال الربيع: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ ائذن لي أن أضرب عنقه، فقال له: اسكت ويلك، ما يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم، اكتبوا بعهدته على قضاء الكوفة، على ألا يعترض عليه في حكم، فكتب عهده ودفعه إليه، فأخذه وخرج، ورمى به في الدجلة، وهرب. فطلب في كل بلد فلم يوجد"⁽²⁾.

وفي العصر العباسي الثاني نجد هذه الظاهرة تترسخ وتتجذر، حتى غدا الزهد تياراً أكثر شيوعاً مما كلن عليه من قبل، ويذكر شوقي ضيف واحداً من هؤلاء الزهاد، وهو إبراهيم بن إسحاق الحربي، وعنه يقول: إنه "أفنى من عمره ثلاثين سنة لا يأكل إلا رغيفاً واحداً في اليوم والليلة، إن جاءت به زوجته أو إحدى بناته أكله، وإلا بقي جائعاً ظامئاً إلى الليلة الثانية. وهي درجة رفيعة في الزهد، وكان على غزاره كثيرون من المحدثين والفقهاء، يصومون الدهر، ويعيشون الكفاف، بل على أقل من الكفاف، كما يعيشون على العبادة والورع"⁽³⁾.

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 337.

(2) المسعودي: مروج الذهب. ص 624.

(3) ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. ط2. دار المعارف. القاهرة. ص 106

والأمثلة على هؤلاء الناس الفقهاء كثيرة وتجدها في مظانها في كتب الطبقات وأخبار المحدثين، فإذا اهتمت بعض كتب الأدب بتصوير الحياة اللاهية، فإننا لا نعدم أن نجد كتباً تصور الحياة المتدينة الورعة "وكما صورت حياة اللهو والمجون في كتاب الأغاني، ودواوين الشعراء، صورت حياة الإيمان في تراجم العلماء أمثال طبقات ابن سعد، وطبقات المحدثين. فإذا أنت قرأت الأغاني، ظننت أن الحياة كلها لهو ومجون وإباحة، وإذا قرأت طبقات المحدثين والمتصوفة خلت أن الحياة كلها دين وورع وتقوى"⁽¹⁾.

وكان الزهاد يرابطون في صوامع يتسكون فيها، وقد أثبت أبو العتاهية في شعره صوراً لذلك، فيقول:

سقى الله عبّادان غيئاً مجللاً فإن لها فضلاً جديداً وأولاً
وثبتت من فيها مقيماً مترابطاً فما إن أرى عنها له متحولاً
إذا جئتها لم تلق إلا مكبراً تخلى عن الدنيا وإلا مهلاً
فأكرم بمن فيها على الله نازلاً وأكرم بعبّادان داراً ومنزلاً⁽²⁾

[الطويل]

وقد ضجّ الزهاد، في هذا العصر، بهموم الشعب، ولا أدلّ على ذلك من قصيدة أبي العتاهية، التي بعث بها للخليفة العباسي، شاكياً إليه غلاء الأسعار وما تعانیه العامة جراء ذلك، فيقول:

إنني أرى الأسنعا رَأْسُ عَارِ الرَّعِيَّةِ غَالِيَةً
وأرى المكاسب نازرةً وَأَرَى الضَّرُورَةَ غَاشِيَةً
وأرى غموم الدهر را نَحَاةً تَمُرُّ وَغَادِيَةً
وأرى اليتامى والأرا مِلَ فِي الْبَيْتِ الْخَالِيَةَ
من بين راج لم يزل يَسْمُو إِلَيْكَ وَرَاجِيَةً
يشكون مجهداً بأصوا تِ ضِعْفِ عَافٍ عَالِيَةً
يرجون رفدك كي يروا مِمَّا لَقَوْهُ الْعَافِيَةَ

(1) أمين: ضحى الإسلام. ج 1 / ص 178.

(2) أبو العتاهية: ديوانه. جمعه احد الأدياء اليسوعيين. ص 218.

مَنْ يُرْتَجَى لِلنَّاسِ غِيًّا رَكَ لِلْعِيُونَ الْبَايِعَةَ
مَنْ يُرْتَجَى لِدِفَاعِ كَرٍّ بَ مَلَمَّةٍ هِيَ مَا هِيَ
مَنْ لِلْبَطُونِ الْجَائِعَا تِ وَالْجُسُومِ الْعَارِيَّةِ
يَا بَنَ الْخَلَائِفِ لَا فُقِدَ تَ وَلَا عَدِمْتَ الْعَافِيَّةِ
إِنَّ الْأَصُولَ الطَّيِّبَا تِ لَهَا فُرُوعٌ زَاكِيَّةٌ⁽¹⁾

[مجزوء الكامل]

ولم تقف موجة الزهد عند شعراء هذا المذهب، بل إن كثيراً من شعراء المجون تابوا، ونظموا أشعاراً في الزهد، وقد أورد الأصفهاني أن (محمد بن يسير) كان ماجناً ثم تاب وقال:

وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَرْحَمْ اللَّهُ وَمَنْ تَكُونُ النَّارُ مَثْوَاهُ
وَإِغْفَلْتَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَضَى يُذَكِّرُنِي الْمَوْتَ وَأَنْسَاهُ
مَنْ طَالَ فِي الدُّنْيَا بِهِ عُمُرُهُ وَعَاشَ فَاَلْمَوْتَ قُصَارَاهُ
مُحَمَّدٌ صَارَ إِلَى رَبِّهِ يَرْحَمُنَا اللَّهُ وَإِيَّاهُ⁽²⁾

[السريع]

ومن الأمثلة كذلك، على الزاهدين العائدين عن المجون الشاعر أبو نواس، فقد أفرد جزءاً من شعره للزهد والتدين، وبخاصة ما نظمه في المرحلة الأخيرة من حياته، ومما قاله:

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعاً فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَالِي إِلَيْكَ وَسَيْلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوِكَ، ثُمَّ إِنِّي مُسَلِّمٌ⁽³⁾

[الكامل]

(1) أبو العتاهية: ديوانه. ص 304.

(2) الأصفهاني: الأغاني. 40 / 14.

(3) أبو نواس: ديوانه. ص 199، 200.

والناظر في ديوان أبي نواس، نجد أن أبياتاً كثيرة نظمها هذا الشاعر في موضوع الزهد، وهكذا، فإن نقرأ من شعراء الخلاعة والمجون تابوا إلى ربهم وأقلعوا عن المعاصي، وأخذوا ينظمون أشعاراً في الزهد والأخلاق، كما رأينا. تلك أبرز الأدلة على أن تيار الزندقة والمجون لم يكن الغالب في ذلك العصر، وإن كان الغالب على كتب الأدب، التي تورد الكثير من مجون الشعراء والأدباء.

أما عن التصوف، فإن هناك فروقاً بينه وبين الزهد، ومن بين الفروق بينهما، ما ورد في كتاب نصوص شعرية (2) من إصدارات جامعة القدس المفتوحة من أن الزهد هو البعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة، أما التصوف، فهو الزهد في الدنيا لكسب رضا الله⁽¹⁾.

وقد بدأت مقدمات التصوف في الظهور في العصر العباسي الأول، وما إن جاء القرن الثالث الهجري، حتى كانت موجة التصوف قد اتسعت، ويذكر شوقي ضيف أن التصوف، في جوهره إسلامي، وقد بدأت معالمه ومبادئه تتضح "منذ أوائل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، حتى لتنتشأ طبقة تحاضر فيه، مثل يحيى بن معاذ"⁽²⁾.

وخلاصة القول في الزهد، فإنه لم يكن خيراً كله، بل شابته بعض البدع التي أبعدته عن نبعه الأصيل، وشطت به بعيداً عن أهدافه، ونعني بذلك الزهد المرتبط بالزندقة، الذي يدعو إلى تعاليم "ماني"، على نحو ما نجده في أشعار صالح بن عبد القدوس، الذي يزخر بالترغيب عن متاع الدنيا⁽³⁾. وهذه الحقيقة يؤكدتها شوقي ضيف بقوله: "ومعنى ذلك أن العصر العباسي شهد لوتين من الزهد: زهداً إسلامياً خالصاً أعداً للنسك والتصوف، وزهداً مانوياً مارقاً، وهو الذي يمكن أن يوصل بينه وبين البوذية... وكان من تمام النسك في هذا الزهد المارق المنحرف، أن يعيش الناسك من سؤال الناس"⁽⁴⁾.

(1) جامعة القدس المفتوحة: نصوص شعرية (2). ص 257.

(2) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. ص 111.

(3) ابن المعتز: طبقات الشعراء. ص 91.

(4) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول. ص 88.

المطلب الثالث: الخلافة عند أهل الزندقة والمجون والشعبوية

ارتبط ظهور الزندقة والشعبوية في العصر العباسي، بجملة من العناصر الاجتماعية والسياسية؛ ذلك أن دخول غير العرب في الإسلام، واندماجهم في الحياة مع الناس، وتعلمهم للغة العربية، قد أدى إلى وجود مجتمع غير متجانس؛ وبخاصة إذا علمنا أن عدداً منهم دخل الإسلام؛ ليتمكن من الانخراط في الحياة العامة، فقد ادعى الكثير منهم الإسلام، وأبطن ديانته الأصلية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن ظهور الترف والبحث عن الملذات والملاهي، دفعت الكثير من الناس، ومنهم الشعراء إلى المجون. وقد ارتبط المجون، في كثير من الأحيان بالزندقة والشعبوية.

وإذا كانت النزعة الشعبوية، وموجات اللهو والمجون، غير واضحة المعالم في العصر الأموي، أو على الأقل، لم تكن ظاهرة خطيرة؛ بسبب اعتماد الدولة الأموية على العنصر العربي، ومعاملة الأجناس الأخرى معاملة العبيد، وسموا حينئذ بالموالي، وهو ما أكده أحمد أمين بقوله: إن "الدولة الأموية، كانت دولة العرب، فالحكم في أيديهم، والملك لهم، وولاتهم ورجالهم عرب، والموالي أذلاء مضطهدون. والعرب لا تعرف الزندقة كثيراً، ولا تميل إليها"⁽¹⁾.

أما الدولة العباسية، فقد اعتمدت منذ بداية نشأتها على العنصر غير العربي، ولا أدل على ذلك من أن خراسان كانت مهد الدعوة العباسية، ومنها انطلقت جيوش العباسيين، وكان عماد تلك الدعوة والثورة، قادة جلهم من غير العرب، كأبي مسلم الخراساني، مثلاً. وعليه، فلما "أنتت الدولة العباسية انتعش الموالي، وخاصة الفرس، وأصبح أكثر السلطان في أيديهم، وغلبوا على العرب، وقد كانت لهم ديانات سابقة لم ينسوها جميعاً لما اعتنقوا الإسلام، وكانوا لا يجروون في الحكم الأموي أن ينبسوا بكلمة، وكان همهم الأول أن يتحرروا سياسياً لا دينياً؛ فكانت دعواتهم السرية واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة لا للدين. والزندقة إنما هي في الدين لا في السياسة، فلما نجحوا واطمأنوا وغلبوا؛ بدأت تلعب في رؤوسهم الديانات القديمة والجديدة؛ فكانت الزندقة"⁽²⁾.

(1) أمين، ضحى الإسلام. 157 / 1.

(2) المرجع السابق. 157 / 1.

ولدى إطاحة المأمون بأخيه الأمين، بدأت مرحلة أخرى، من مراحل نفوذ غير العرب في الدولة العباسية؛ فقد كان الفرس من أنصار المأمون؛ لأن أمه كانت فارسية. ومنذ ذلك الحين، والدولة العباسية تصارع الأفكار المعادية للدين وللدولة، حتى وصل الأمر أخيراً إلى أن قتل الموالي الخليفة المتوكل، وبدأ عهد جديد، سمي بالعصر العباسي الثاني، الذي امتاز بسُلطان العناصر غير العربية على الخليفة نفسه، الذي كان يقتل، أو يعزل، أو ينصب بقرار منهم.

وإذا كانت الدولة الأموية، قد صارتت الثائرين على سلطانها، باستمرار من شيعة أو خوارج، حتى خارت قواها؛ فإن الدولة العباسية، قد صارتت، منذ نشأتها تيارات ومذاهب فكرية دخيلة على الدين، كانت سبباً في استنزاف طاقات الأمة فكرياً وعسكرياً. وربما أن عوامل سياسية، كانت السبب في انتشار الزنادقة في العصر العباسي؛ فقد روى الطبري أن المنصور، وجه "مع محمد بن أبي العباس بالزنادقة والمجان فكان فيهم حماد عجرد فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المجون وإنما أراد بذلك أن يبغضه إلى الناس"⁽¹⁾.

ولما تولى الخلافة الخليفة المهدي، رأى أن شر هذه الفئة قد تقاقم، فعمد إلى محاربتهم، بل استحدث وظيفة صاحب الزنادقة، ووكل إليه مهمة تعقبهم والقضاء عليهم. ويروي الأصفهاني: "لما نزل المهدي البصرة كان معه حمدويه صاحب الزنادقة، فدفع إليه بشاراً وقال اضربه ضرب التلف، فضربه ثلاثة عشر سوطاً، فكان كلما ضربه سوطاً قال له: أوجعتني ويلك، فقال: يا زنديق، أتضرب ولا تقول باسم الله؟ قال ويلك أتريدُ هو فأسمي الله عليه؟ قال: ومات من ذلك الضرب"⁽²⁾.

ولم يكن السيف هو السلاح الوحيد في محاربة الزنادقة، بل كانوا يحاولون إقناعهم ومناقشتهم لترك ما هم عليه، ويذكر أحمد أمين أن "المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين، بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين، وغيرهم، وأقاموا البراهين على المعاندين، وأزوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين"⁽³⁾.

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 4/ 531.

(2) الأصفهاني: الأغاني. 3/ 247.

(3) أمين: ضحى الإسلام. 1/ 159.

وقد سار الرشيد على سنة المهدي، فإنه كان يناقش الملحدين قبل قتلهم، فمن تاب عفا عنه، ويروي السيوطي: "أخذ هارون الرشيد زنديقاً، فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق: لم تضرب عنقي؟ قال له: أريح العباد منك، قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كلها ما فيها حرف نطق به؛ قال: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها، فيخرجانها حرفاً حرفاً"⁽¹⁾.

ولم تكن ظاهرة الزندقة مقتصرة على العصر العباسي؛ فقد عرفت في العصر الأموي، ويذكر الأصفهاني أن الوليد بن يزيد من فتيان بني أمية وظرفائهم وشعرائهم، "كان فاسقاً خليعاً متهماً في دينه مرمياً بالزندقة. وشاع ذلك من أمره وظهر، حتى أنكروه الناس؛ فقتل"⁽²⁾. كما أن بعض بني هاشم عرف عنهم ذلك فيروي الأصفهاني أن عبد الله من فتيان بني هاشم وشعرائهم "لم يكن محمود المذهب في دينه، وكان يرمى بالزندقة... وكان قد خرج بالكوفة في آخر أيام مروان بن محمد، ثم انتقل عنها إلى نواحي الجبل، ثم إلى خراسان، فأخذه أبو مسلم، فقتله هناك"⁽³⁾.

ويعرف الطبري الزنادقة بقوله: هي "فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا، والعمل للأخرة. ثم تخرجها إلى تحريم اللحم، ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تخرجوا وتحوبا، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور، والآخر الظلمة. ثم تبيح، بعد هذا نكاح، الأخوات والبنات، والاعتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق؛ لتنفذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور"⁽⁴⁾.

ولم يكن مفهوم الزندقة في العصر العباسي واضحاً تمام الوضوح؛ فقد دأبت العامة من الناس على خلع هذا اللقب على المجان، علماً أن منهم من كان يرمى بالزندقة لمجونه وتهتكه؛ كالشاعر إبراهيم بن سيبان⁽⁵⁾.

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 336.

(2) الأصفهاني: الأغاني. 6 / 7.

(3) المصدر السابق. 262 / 12.

(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 612 / 4.

(5) الأصفهاني: الأغاني. 111 / 12.

أما معنى الزندقة عند الخاصة، فهو: اعتناق الإسلام ظاهراً، والتدين بدين الفرس القديم باطناً، وخاصة مذهب ماني. ذلك أنه كان في ذلك العصر طائفة لم تؤمن بالإسلام، ولكن آمنت بسلطانه، ورأت أن لا سبيل لنيل الجاه والسلطان والمال إلا بالإسلام؛ فاعتنقته ظاهراً، وظلت تخلص لدينها القديم، وقوم من هؤلاء كان لهم غرض أعمق من هذا؛ إذ رأوا أنهم لا يستطيعون إفساد العقيدة الإسلامية إلا بالانتساب إليها أولاً حتى يؤمن جانبهم، وحتى يسهل على النفوس الأخذ بقولهم⁽¹⁾. وهو ما يتضح من قول الطبري بخصوص أبي العوجاء الذي اتهم بالزندقة، فلما تيقن أنه مقتول قال: "أما والله لئن قتلتُموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام، والله لقد فطرتكم في يوم صومكم وصومتكم في يوم فطركم فضربت عنقه"⁽²⁾.

ويمضي أحمد أمين في توضيح دور هؤلاء الزنادقة في محاربة الدين والعروبة، فيقول: "وحماة الرواية يفسد اللغة والأدب بما يعمل به من شعر يضيفه إلى الشعراء المتقدمين، ويدسه في أشعارهم... وصالح بن عبد القدوس يدس في الأشعار معاني زندقة، ويونس بن أبي فروة يعمل كتاباً في مثالب العرب وعيوب الإسلام، ويصير به إلى ملك الروم، فيأخذ منه مالا"⁽³⁾.

وكان من آثار تيار الزندقة، انتشار موجة المجون الهادفة إلى البحث عن اللذة، من خلال إطلاق العنان للشهوات مما دفع كثيراً من الشعراء إلى "دعوة الناس إلى الفجور والإباحة، وحملهم على الاستهتار، ولم يكتفوا أن يدعوا ما يدعون إليه من غير تعرض للدين، بل تعرضوا له أحياناً، وأخذوا يجهرون بأقوال فيها تهكم وسخرية. فيسخر من ممن يقول بتحريم الخمر، ويسخرون ممن يخوف بالنار، وممن يذكر بيوم البعث"⁽⁴⁾. وقد أورد صاحب الأغاني أشعاراً لبشار بن برد تتضمن مثل هذه الأفكار، إذ يقول:

(1) أمين: ضحى الإسلام. ص 168.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 4/ 508.

(3) أمين: ضحى الإسلام. 1/ 168، 169.

(4) المصدر السابق. 1/ 166.

لا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِنْ كُنَّا كَذَّاءَ أَبْدَا لا نَلْتَقِي وَسَبِيلَ الْمُلتَقَى نَهْجُ
 قَالُوا حَرَامٌ تَلَقِينَا فَقُلْتُمْ لَهُمْ ما فِي التَّلَاقِي وَلَا فِي قُبُلَةِ حَرَجُ
 مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرِ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهْجُ
 أَشْكُو إِلَى اللَّهِ هَمًّا مَا يُفَارِقُنِي وَشُرْعًا فِي فُؤَادِي الدَّهْرَ تَعْتَلِجُ⁽¹⁾

أما الناس الذين كانوا يستمعون إلى مثل هذا الشعر، "فطائفة تسخط لمثل هذا، وتحكم على قائله بالإلحاد، والخروج من الدين، وطائفة لا ترى هذا جداً من القول؛ إنما هو نوع من أنواع التملح، لم يُقل إلا على سبيل الفكاهة والمجون، وعلى هذا الأساس، شاع في ذلك العصر وصف الزنديق بالظرف"⁽²⁾.

ويخلص أحمد أمين إلى القول: إن: "كلمة الزندقة لم تكن ذات معنى واحد؛ وإنما تطلق على معان أربعة:

1. التهتك والاستهتار، والفجور مع تبجح في القول، يصل أحياناً إلى ما يمس الدين؛ ولكن قائله لم يقله عن نظر، وإنما قاله عن خلاعة ومجون.
2. اتباع دين المجوس. وخاصة دين ماني مع التظاهر بالإسلام؛ كالذي اتهم به الأفشين، والذي اتهم به بشار وحماد وابن المقفع.
3. اتباع دين المجوس، وخاصة ماني، من غير تظاهر بالإسلام، كالذي يرويهِ الجاحظ عن كتب الزنادقة.
4. ملحدون لا دين لهم؛ كالذي كان يحكيه المعري، ولكن يظهر أن الكلمة – أكثر ما كانت – تطلق على من اعتنق المانوية باطنياً، والإسلام ظاهراً، ثم توسعوا في معناها، فأطلقوها على الإباضي، والملحد الذي لا دين له"⁽³⁾.

(1) الأصفهاني: الأغاني. 3/ 196.

(2) أمين: ضحى الإسلام. 1/ 167.

(3) أمين: ضحى الإسلام 1/ 172، 173.

ولم تكن الزندقة تصل الحد الذي تصوره الكتب، بل ربما كانت هناك أسباب أخرى تثير هذا الموضوع: فقد كان يتهم الناس بالزندقة باطلاً للنكايه بهم والانتقام منهم، ويرى أحمد أمين أن الخصومة الأدبية، كانت في بعض الأحيان سبباً في وقوع الهجاء بين شاعرين صديقين؛ فيسرع أحدهما إلى اتهام خصمه بالزندقة، كما حدث بين بشار بن برد، وحماد عجرد⁽¹⁾.

وفي بعض الأحيان كانت الخصومة السياسية سبباً في اتهام الناس بالزندقة؛ فهذا حميد بن سعيد كان وجهاً من وجوه المعتزلة، فخالف أحمد بن أبي دؤاد، في بعض مذاهبه، فأغرى به المعتصم، وقال: إنه شعوبي زنديق فحبسه مدة طويلة⁽²⁾.

ويذكر أحمد أمين⁽³⁾ أن بشار بن برد ظل طوال حياته، يقول الشعر الماجن الخليع، ويتعرض للدين من قريب أو بعيد، ويظل في ذلك ثمانين عاماً أو نحوها؛ فلا يتعرض له أحد، إلا ما نهاه عنه المهدي لما هجا يعقوب بن داوود بقوله:

بني أمية هُبُوا طَالَ نَوْمُكُمْ إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزرق والعود⁽⁴⁾

ويخلص أحمد أمين إلى القول: "على كل حال كانت حركة الزندقة في عصرنا الذي نورخ له حركة عنيفة؛ كان من ضحاياها كثيرون، بالحق أحياناً، وبالباطل أحياناً"⁽⁵⁾.

وللتعرف إلى وجهة نظر هذه الطائفة الماجنة من الدين ومن الخلافة، فإن إلقاء نظرة خاطفة إلى أشعار هذه الطائفة كافٍ لتوضيح الصورة. ومن الأمثلة على شعراء هذه الطائفة الشاعر (إسماعيل بن يسار) الذي كان شديد التعصب ضد العرب، وقد أورد الأصفهاني بعضاً من أشعاره في هجاء العرب، ومنها قوله:

(1) أمين: ضحى الإسلام. 1/ 174.
(2) الأصفهاني: الأغاني. 18/ 159.
(3) أمين: ضحى الإسلام. 1/ 175.
(4) الأصفهاني: الأغاني. 3/ 241. بشار بن برد. ديوانه
(5) أمين: ضحى الإسلام. 1/ 176.

إِذْ نُرَبِّي بِنَاتِنَا وَتَدْسُو نَ سِفَاهَا بِنَاتِكُمْ فِي التُّرَابِ (1)

[الخفيف]

وفي هذا البيت يهجو الشاعر العرب، ويعيرهم بما كانوا يفعلونه من وأد للبنات، علماً أن الإسلام نهى عن ذلك. ومن الشعراء الذين أثار عنهم هجاء العرب (بشار بن برد)، الذي يقول

أصبحتُ مولى ذي الجلالِ وبعضُهم مولى العريبِ، فخذُ بفضلكِ وأفخرِ
مولاكِ أكرمُ من تميمٍ كلها أهلِ الفِعالِ ومن قُريشِ المشعرِ (2)

[الخفيف]

وهكذا، كان أتباع هذا المذهب من المجون والشعوبية يضمرون كل الحقد للعرب وللإسلام، بل وصاروا يصرحون بذلك، وبذلك ازدهرت الأفكار الماجنة وكثر أتباعها، ووجدت الفرصة مواتية للرد على العرب، والانتقام منهم، ولكن ذلك كله، لم يمنع طائفة أخرى، على الطرف الآخر، من أن تظهر، وتصيح بصوت الحق، معلنة ولاءها للإسلام، و متمسكة بتعاليم دينها، ولم يقتصر أتباع هذه الطائفة على العرب، إذ إننا لم نعدم بعضاً من غير العرب يردون على الشعوبية، ويضعون الأمور في نصابها.

(1) الأصفهاني: الأغاني. 404 / 4.

(2) المصدر السابق. 404 / 4.

المبحث الثاني

العوامل السياسية

المطلب الأول: اضطراب أمر الخلافة

إن الدولة العباسية، لم تقم بناء على بيعة بايعها الناس للخليفة، ولا تبعاً لنظام الشورى في الإسلام؛ وإنما نشأت هذه الدولة بناء على الدعوة العباسية التي ورثت الدعوة العلوية لأسباب تم ذكرها في الفصل السابق، وقد قامت الدعوة العباسية للتبشير بأفكار مضادة للدولة الأموية، تحت شعار "عودة الخلافة إلى أهل بيت النبي"، لذا، كان العباسيون طلبة ميراث، لا دعاة أفكار.

وقد استخدم العباسيون الطرق الممكنة لتأمين الأنصار وتجنيدهم، ومن ثم انقضوا على الدولة الأموية، وكانت لهم الغلبة بعدما دحرت جيوشهم الخليفة الأموي مروان الثاني. وقد تبين في الفصل السابق، كيف كان التنازع والتناحر ظاهرة شائعة عند العباسيين؛ إذ إن كثيراً من قادتهم تم تصفيتهم بعد انتهاء الحاجة منهم، ولتهم لم تكن مقنعة؛ فقتل أبو سلمة الخلال، ثم أبو مسلم الخراساني. والأول كان وزير العباسيين، والثاني قائد جيوشهم، وصانع انتصاراتهم. ولكنها السياسة⁽¹⁾.

وقد بدأ التنازع والتناحر بين القادة العباسيين في وقت مبكر؛ فقد حصل خلاف على ولاية عهد أبي العباس السفاح بعد وفاته، وكان السفاح قد عهد بالخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر المنصور، ولكن عمه عبد الله بن علي رفض الانصياع إلى ذلك، واستبد بالأمر في الشام، وجمع جيوشاً لمقاتلة ابن أخيه، فوجه إليه المنصور جيشاً على رأسه أبو مسلم الخراساني، ألحق الهزيمة بعبد الله والفتك بجيشه، على نحو ما ورد ذكره في الفصل الأول⁽²⁾.

ولم تقف الأمور عند هذا الحد، بل تجاوزت ذلك عندما امتدت المنافسة إلى أولياء العهد، وأبرز مظاهر تلك الفتنة ما حدث بين الأخوين: الأمين، والمأمون، فإن الرشيد قد عقد الولاية للعهد للأمين، ثم إلى المأمون⁽³⁾. وقد تولى الأمين الخلافة بعد موت والده، ثم زين له أصحابه خلع المأمون،

(1) ينظر الرسالة. ص. 5 وما بعدها.

(2) المصدر السابق. ص. 5 وما بعدها.

(3) بايع الرشيد بولاية العهد للأمين سنة (175)هـ، وللمأمون سنة (182)هـ. ينظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 334.

ويروي السيوطي أن "الفضل بن الربيع علم أن الخلافة إذا أفضت إلى المأمون لم يبق عليه، فأغرى الأمين به وحثه على خلعهم"⁽¹⁾، وهكذا، كان قرار خلع المأمون نتيجة تدخل عناصر منتفعة في بلاط الأمين، لا نتيجة خلافات بين الأخوين، وقد جرت هذه الخلافات ويلات كثيرة على الأمين، وعلى عامة الشعب في بغداد. وقد كان النزاع بين الأمين والمأمون نزاعاً بين النفوذ العربي والنفوذ الفارسي، وخاصة أن الأمين هاشمي ابن هاشمية، بخلاف المأمون إذ كانت أمه فارسية، ووزراؤه من الفرس، لذا يرى بعض الباحثين أن الخلاف بين الأمين والمأمون كان بداية الشعوبية، وكان انتصار المأمون انتصار الفرس على العرب⁽²⁾.

وكانت الموقعة الأولى بين الأمين والمأمون في العام (195) هـ، عندما أرسل الأمين علي بن عيسى لمحاربة المأمون، وكان حينئذ والياً على خراسان، فأرسل المأمون لقتاله طاهر بن الحسين، في أقل من أربعة آلاف، فكانت الغلبة له، وذبح علي وهزم جيشه"⁽³⁾. وذكر الطبري أنه لما علم المأمون بنصر طاهر خلع محمداً الأمين، ودعا لنفسه بالخلافة، فبايعه الناس في خراسان، وعندما وصلت أخبار مقتل علي بن عيسى، وانكسار جيشه إلى الأمين "أرجف الناس ببغداد إرجافاً شديداً وندم محمد علي ما كان من نكته وغدره"⁽⁴⁾.

ثم توالى انتصارات طاهر حتى دخل بغداد قسراً سنة (198) هـ وقتل الأمين وحمل برأسه للمأمون. ويروي أن المأمون اشتد عليه رؤية رأس أخيه؛ فحقد على طاهر، وأهمله مدة حتى مات⁽⁵⁾. وقد أدى انتصار المأمون إلى زيادة نفوذ الفرس في الدولة العباسية، بشكل أصبحوا يشكلون خطراً على الدولة.

ولما تفاقم أمر طاهر واتسع نفوذه، خشى المأمون منه، ويروي ابن كثير أن المأمون تألم لإهانة طاهر أخاه الأمين وقتله على نحو ما ذكر، وربما أحس طاهر بذلك، فطلب أن يوليه خراسان ليكون بعيداً عنه، فولاه المأمون خراسان، ولكنه "أطلق له خادماً من خدامه وعهد المأمون إلى الخادم

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 341.

(2) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وأشهر رجاله. الهيئة العامة للكتاب. 1984م. ص 11.

(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 342.

(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 5/ 54.

(5) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 343، 344.

إن رأى منه شيئاً يريبه أن يسمه، ودفع إليه سما لا يطاق، فلما خطب طاهر ولم يدع للمأمون سمة الخادم في كامخ فمات من ليلته⁽¹⁾.

وقد سجل شاعر الشيعة (دعبل الخزاعي) حادثة مقتل الأمين، فقال مخاطباً المأمون على سبيل التشفي والإهانة:

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ قَتَلْتَ أَخَاكَ وَشَرَّفْتَكِ بِمَقْعَدِ
رَفَعُوا مَحَلَّكَ بَعْدَ طَوْلِ خَمُولِهِ وَاسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ⁽²⁾
كَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَبْلَهُ وَخَلِيفَةٍ أَضْحَى لَنَا دَمُهُ لَدَيْذِ الْمَقْصُودِ⁽³⁾

[الكامل]

وهكذا، كانت الخصومة بين الخلفاء العباسيين عاملاً مهماً في تدهور مكانة الخليفة، حتى صار الخليفة، في وقت لاحق يعزل، وربما يقتل على يد غلمانه وحراسه، على نحو ما كان يحدث في العصر العباسي الثاني، وبخاصة بعد مقتل الخليفة المتوكل.

وقد قسم المؤرخون العصر العباسي إلى قسمين: العصر العباسي الأول، الذي امتاز بسيطرة الفرس على مقاليد الأمور، فكانوا هم الوزراء والقادة، واستمر حتى مقتل الخليفة المتوكل سنة (247)هـ⁽⁴⁾. والعصر العباسي الثاني، الذي امتاز بسيطرة الترك على مقاليد الخلافة وقيادة الجيش، وكانوا يعينون الخلافة ويعزلونه أو يقتلونه، واستمر الحال على ذلك حتى دخل البويهيون بغداد.

ففي العصر العباسي الأول اعتمد العباسيون، كثيراً على العنصر الفارسي، ويذكر الدكتور شوقي ضيف أنه قلما نجد وزيراً للعباسيين غير فارسي، ومن الأسر التي كان لها منصب الوزارة لدى العباسيين أسرة البرامكة⁽⁵⁾، ويذكر الطبري أن أخوة بالرضاعة تربط الرشيد ببعض البرامكة⁽⁶⁾. وقد

(1) ابن كثير: البداية والنهاية. 10 / 260.

(2) هذا البيت غير موجود في الديوان، وإنما موجود في الأصفهاني: الأغاني. 20 / 144. وعند السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 369 كان البيت برواية (شادوا بذكرك) بدل (رفعوا محلك)

(3) دعبل: ديوانه. ص 69، 70.

(4) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 396.

(5) ضيف: العصر العباسي الأول. ص 23.

(6) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 4 / 617.

انتهى أمر البرامكة بعدما فتك بهم الرشيد⁽¹⁾. ويذكر د. محمد عبد المنعم خفاجي إنه كان "للعنصر الفارسي مكانة عالية عند العباسيين، وحظوة كبيرة في قصورهم، وكان بيده مقاليد الأعمال، وتصريف شؤون الخلافة. كان الخليفة عربياً هاشمياً، ولكن وزراءه وأكثر قواده فارسيون، يزيد سلطانهم، ويقوى نفوذهم يوماً بعد يوم، ويزداد تبعاً لذلك شأن الموالي في الدولة".⁽²⁾

ويبدو أن الفرس استغلوا ذلك استغلالاً سيئاً، ويظهر أن الإيمان لم يرسخ بعد في صدورهم، فظل الحنين يراودهم إلى أمجاد أسلافهم رغبة في بعثه من جديد، وعليه فقد رأى بعض الباحثين أن كثيراً من الشعوبيين الفرس كانوا يحسون في أعماق أنفسهم، وهم يثورون في أنحاء المملكة العباسية، أنهم ينتقمون من يوم القادسية المشهور والمتبع للتاريخ العربي والإسلامي يرى أن إسلام الفرس وولاءهم للعرب لم يكونا صادقين؛ فظلت تعتمل في نفوسهم النزعة الدينية والقومية تظهر وتتبعث كلما أحست في الكيان العربي روح الوهن والضعف⁽³⁾.

وكان من مظاهر نفوذ العنصر الفارسي "نقل العاصمة إلى بغداد في العراق؛ لقربها من خراسان، موطن الدعوة، ونقلهم نظام الفرس الكسروي في الدواوين والسياسة، وأساليب الحرب... وكثرت الفرس كذلك في قصور الخلفاء والأمراء والولاة، وقصرت عليهم المناصب الكبيرة كالوزارة"⁽⁴⁾.

ويذكر الطبري أن تدخل العناصر غير العربية في أمور الخلافة، قد بدأت في وقت مبكر؛ ويذكر "أن الجند شغبوا لما بويح لأبي إسحاق [المعتصم] بالخلافة، فطلبوا العباس [ابن المأمون]، ونادوه باسم الخلافة فأرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضره فبايعه، ثم خرج إلى الجند فقال ما هذا الحب البارد، قد بايعت عمي وسلمت الخلافة إليه فسكن الجند"⁽⁵⁾.

(1) ضيف: العصر العباسي الأول. ص 24.

(2) خفاجي، محمد عبد المنعم: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ط 1. دار الجيل. بيروت. 1992م. ص 13.

(3) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وأشهر رجاله. ص 11، 12.

(4) خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ص 14.

(5) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 205 / 5

وفي العقد الثاني من القرن الثالث الهجري، حيث كانت ولاية المعتصم في العام (218) هـ⁽¹⁾، كان نفوذ الفرس قد وصل حداً لا يطاق، فعمد الخليفة المعتصم إلى الاستغناء عنهم والتخلص منهم، وبدلاً من الاعتماد على العنصر العربي، أفرط المعتصم في الاعتماد على الترك؛ إذ كانت أمه (ماردة) تركية⁽²⁾.

ولم يكن المعتصم في اختياره موفقاً، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإذا كان الفرس أصحاب ثقافة سياسة، وخلفاء حضارة؛ فإن الترك كانوا جنوداً أجلاً لا يعرفون من السياسة شيئاً، وقد استمروا في حياكة المؤامرات، وبخاصة بعد أن أسرف في الاعتماد عليهم الواثق خليفة المعتصم؛ إذ يروى أنه "استخلف على السلطنة (أشناس) التركي، وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهراً"⁽³⁾.

ويذكر الدكتور خفاجي أن "أول من استخدم الأتراك في الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام (158) هـ، ولكنهم كانوا شردمة صغيرة لا شأن لها في الدولة بجانب الفرس والعرب"⁽⁴⁾. وفي العام (220) هـ استقدم المعتصم عدداً كبيراً من الأتراك، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفاً، ثم ازداد عددهم في جيشه حتى بلغوا السبعين ألفاً، فنزع بهم إلى سامراء، وأخذ الأتراك يتعلمون العربية بعدما دخلوا في الإسلام، وكان ذلك ضربة قاضية للعنصر العربي ودوره في الخلافة⁽⁵⁾.

وبلغت المنزلة التي وصلها الترك في الدولة العباسية، بحيث صاروا هم الذين يختارون الخليفة، ثم يأخذون له البيعة من الناس، ويذكر الدكتور شوقي ضيف أنه لما مات الواثق لم يوص بخليفة له، فاستغل الترك ذلك فصاروا يعينون الخليفة، إذ أخذوا البيعة للمتوكل في العام (232) هـ⁽⁶⁾. وقد أشار خفاجي⁽⁷⁾ أن الأتراك دعموا ترشيح المتوكل، لأن أمه (شجاع) خوارزمية تركية، ولما تولى المتوكل الخلافة استشعر بخطر الأتراك، بحيث صار نفوذهم لا يطاق؛ فعمد إلى التخلص منهم، وكان

(1) خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ص14، السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 379.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية. 10 / 260.

(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 386.

(4) خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ص 17.

(5) المصدر السابق. ص 18.

(6) ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. ص 12.

(7) خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ص 19.

قد ندم على ثقته المطلقة بالترك، فحبس (إيتاخ) حتى مات، وحاول قتل (وصيف) و(بغا)⁽¹⁾، ولكن الوقت كان قد فات على مثل ذلك؛ فإن وصيف وبغا قد أسرعا إلى الإيقاع به، بالاستعانة بابنه المنتصر، وهو ما يرويه السيوطي إذ يقول: "كان المتوكل بايع لولاية العهد لابنه المنتصر، ثم المعتز، ثم المؤيد، ثم إنه أراد تقديم المعتز لمحبهته لأمه، فسأل المنتصر أن ينزل عن العهد فأبى... واتفق أن الترك انصرفوا عن المتوكل لأمر، فاتفق الأتراك مع المنتصر على قتل أبيه... فقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان سنة (247) هـ"⁽²⁾.

وقد هجا الشاعر (دعبل الخزاعي) الخليفة المتوكل عندما رآه مستعبدًا للعبيد، فقال:

ولست بقائلٍ قذعاً ولكن لأمرٍ ما تعبَّدك العبيدُ⁽³⁾

[الوافر]

وبمقتل المتوكل، بدأ العصر العباسي الثاني الذي لم يبق للخليفة فيه من الخلافة إلا الاسم، فهذا المنتصر الذي تولى الخلافة بعد مقتل أبيه، أو بعد قتله أباه، لم يتمتع في الخلافة كثيراً فقد استمرت خلافته أقل من ستة أشهر، وقيل إن الترك دسوا إليه من سمه فمات⁽⁴⁾. وقد بالغ الترك في تعسفهم في أمور الخلافة، فصاروا يعينون الخليفة، ويقتلون، فبعد مقتل المتوكل سنة (247) هـ وحتى سنة (256) تعاقب على الخلافة خمسة خلفاء، وهم: المنتصر، والمستعين، والمعتز، والمهتدي، والمعتمد⁽⁵⁾.

وفي عهد المعتمد انقسم الترك على أنفسهم، فطلبوا من المعتمد أن يعين قائداً للجيش من أهل بيته، فعين لهذا المنصب أخاه الواثق، فصار الواثق الحاكم الفعلي على الدولة وعلى الترك كذلك⁽⁶⁾، وكان للواثق هذا دورٌ مهمٌ في القضاء على ثورة الزنج على نحو ما سيتضح في الصفحات القادمة بإذن الله.

⁽¹⁾ وصيف، وبغا، وأشناس، من قادة الترك المتسلطين على السلطان، وقد ورد ذكرهم في الطبري: تاريخ الأمم والملوك 40/5، وما بعدها.

⁽²⁾ السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 397.

⁽³⁾ الأصفهاني: الأغاني. 160 / 20.

⁽⁴⁾ السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 404.

⁽⁵⁾ ينظر في ذلك: خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ص 21، والسيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 403، وما بعدها.

⁽⁶⁾ خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ص 21.

واستمر تسلط الأتراك على الخلافة والخلفاء إلا من بعض الخلفاء الذين أعادوا للخلافة هيبتها وهم قلة، ثم إن حوادث قد طرأت في الدولة العباسية كثورة الزنج، وثورة القرامطة، أشغلت الأتراك عما هم فيه من عبث، حتى دخل البويهيون بغداد في الثلث الأول من القرن الرابع الهجري، وكان ذلك نهاية النفوذ التركي في الدولة العباسية.

وقد صور الشعراء الحال التي وصلت إليه الخلافة زمن المستعين فقال أحدهم:

خَافِيَةٌ فِي قَفْصِ بَيْنَ وَصَيفِ وَبُغَا
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ كَمَا تَقُولُ الْبَبَّغَا(1)

[مجزوء الرجز]

المطلب الثاني: قيام الثورات

اتصف العصر العباسي بكثرة مشكلاته وحروبه الداخلية والخارجية على حد سواء، فبعد أن اتسم العصر العباسي الأول بكثرة النزاعات على ولاية العهد، وما تم فيه من حبك مؤامرات لتتصيب ولي عهد أو خلع آخر؛ فإن العصر العباسي، زاد على ذلك كله باستتراء خطر الفرس، ثم الترك، وقد ازداد الأمر سوءاً لما عمت في هذا العصر (القرن الثالث الهجري) ثورات لم يعهد لها الناس في ذلك الوقت مثيلاً، ومن أمثلتها: ثورتا الزنج والقرامطة.

أولاً: ثورة الزنج

يرى متولي أن ثورة "صاحب الزنج" من أعنف الثورات التي شغلت الدولة العباسية وكلفتها الكثير من الأموال والرجال. وهو رجل يدعى علي بن محمد. وقد انضمت إليه طائفة من العبيد، وأوقفوا الرعب والفرع في قلوب كثير من أهالي البلاد الإسلامية. فاستولوا على الأهواز وحرقوها، واستولوا على البصرة وذبحوا كثيراً من أهلها، وأشعلوا النار في المدينة، وقد دامت الحرب بينهم وبين

(1)السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 405.

العباسيين ما يقرب من أربعة عشر عاماً، إلى أن قضي على صاحب الزنج في عهد الموفق⁽¹⁾. ويتفق معه الدكتور شوقي ضيف فيرى أن هذه الثورة شغلت "الدولة أربع عشرة سنة، ونحو أربعة أشهر لم تضع فيها الحرب أوزارها منذ رمضان سنة (255 هـ) وحتى صفر سنة (270 هـ)"⁽²⁾.

ويذكر الطبري أن خروج صاحب الزنج كان ابتداءً من رجل "رعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وجمع إليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباح"⁽³⁾. والحقيقة أن هذا الرجل كان فارسياً من قرية عند الري، وقد بدأ ثورته في وقت مبكر، في البحرين، ولما وجد أنصاره قلة مال إلى البصرة، ودعا العبيد وبشرهم بتحريرهم، فانضم إليه الكثير منهم.⁽⁴⁾ وقد توجه بجيوشه إلى البصرة وروع أهلها الآمنين، واجتمع له من الأنصار الزنوج العدد الكبير. ويذكر شوقي ضيف أن هذا الرجل لم يكن صادقاً في دعوته؛ فقد ادعى أنه علوي من البيت الهاشمي، وفي الحقيقة هو فارسي، ثم إنه أوهم العبيد بأنه سيحررهم، فإذا به يسترق الأحرار⁽⁵⁾.

وقد حاولت الدولة العباسية القضاء على هذا الخبيث؛ فأرسل الخليفة في العام (256 هـ) جيشاً كبيراً للقضاء على ثورته ولكنه استتر بالأدغال والقنوات، ولم يجد قائد الخليفة (جعلان) "إلى لقاءه سبيلاً لضيق الموضع، بما فيه من النخل والدغل عن مجال الخيل، وأصحابه أكثرهم فرسان. فذكر عن محمد بن الحسن أن صاحب الزنج قال لما طال مقام (جعلان) في خندقه: رأيت أن أخفي له من أصحابي جماعة يأخذون عليه مسالك الخندق ويببئونه فيه. ففعل ذلك وبيته في خندقه؛ فقتل جماعة من رجاله، ورُبِعَ الباقيون روعاً شديداً؛ فترك جعلان عسكره ذلك، وانصرف إلى البصرة"⁽¹⁾.

ويذكر الدكتور شوقي ضيف الفطائع التي ارتكبها الزنج بقوله: "وتقول أقل الروايات مبالغة إن عدد القتلى بلغ ثلاثمئة ألف بين ذكر وأنثى، وشيخ وطفل، وإنه أحرق المسجد الجامع، وأحال البلدة

(1) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، ص 14.

(2) ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. ص 26.

(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 5 / 441.

(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 5 / 442.

(5) المصدر السابق. 5 / 442.

(1) المصدر السابق. 5 / 476.

أنقاضاً⁽¹⁾. ويذكر السيوطي بعض فظائعهم، فيقول: "وذكر الصولي: إنه قتل من المسلمين ألف ألف وخمسمئة ألف آدمي، وقتل في يوم واحد في البصرة ثلاثمئة ألف، وكان له منبر في مدينته يصعد عليه؛ فيسب عثمان وعلياً ومعاوية، وطلحة والزبير وعائشة. وكان ينادي على المرأة العلوية في عسكره بدرهمين وثلاثة"⁽²⁾.

وقد سطر الشاعر ابن الرومي، في شعره، صورة خالدة للمأساة التي تعرضت لها البصرة وأهلها، في أثناء احتلال الزنج لها، وذلك في ميميته المشهورة، ومطلعها:

ذَادَ عَن مَقْلَتِي لَذِيذَ الْمَنَامِ شَغَلَهَا عَنْهُ بِالْدُمُوعِ السَّجَامِ⁽³⁾

[الخفيف]

وفي هذه القصيدة ينوع الشاعر في أنواع التأثير في الناس، فيوضح لهم أن هذه المحنة عظيمة؛ إذ إنها حرمتهم المنام، كيف لا وهو يسوق الأسباب التي تمنعه النوم، ويوضحها بقوله:

أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا حَلَّ فِي الْبَصْرِ رَاةٌ مِنْ تَلْكُمُ الْهِنَاتِ الْعِظَامِ
أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا أَنْتَهَكَ الزَّيْجُ جُ، جَهَاراً مَحَارِمَ الْإِسْلَامِ
إِنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ لِأَمْرٍ كَادَ أَنْ لَا يَقُومَ فِي الْأَحْلَامِ⁽⁴⁾

[الخفيف]

وبعد هذه المقدمة الحزينة، يمضي الشاعر في هجاء صاحب الزنج، فيقول:

أَقْدَمَ الْخَائِنُ اللَّعِينُ عَلَيْهَا وَعَلَى اللَّهِ أَيَّمَا إِقْدَامِ
وَتَسْمَى بِغَيْرِ حَقِّ إِمَاماً لَا هَدَى اللَّهُ سَعِيَهُ مِنْ إِمَامِ⁽¹⁾

[الخفيف]

(1) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. ص 30.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 411.

(3) ابن الرومي: ديوانه. شرح أحمد حسن بسج. ج 3 / ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. ص 338.

(4) المصدر السابق. 3 / 338.

(1) ابن الرومي: ديوانه. 3 / ص 338، 339.

ثم يمضي الشاعر يتلَهَّف على البصرة، ويتقطع أسي على ما حلَّ بها، فيقول:

لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْكَ أَيُّهَا الْبَصْرُ رةً لَهْفًا كَمَثَلِ لَهَبِ الضَّرَامِ
لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْكَ يَا مَعْدِنَ الْخَيْدِ راتٍ لَهْفًا يُعِضُّنِي إِبْهَامِي⁽¹⁾
لَهْفَ نَفْسِي يَا قُبَّةَ الْإِسْـ لامٍ لَهْفًا يَطُولُ مِنْهُ غَرَامِي⁽²⁾
[الخفيف]

وبعد أن يتحسر الشاعر على ما حلَّ بالبصرة، يمضي مصوراً لحظة وقوع الفاجعة، فيقول:

بَيْنَمَا أَهْلُهَا بِأَحْسَنِ حَالٍ إِذْ رَمَاهُمْ عَيْدُهُمْ بِاصْطِلَامِ
دَخَلُوهَا كَأَنَّهُمْ قَطَعَ اللَّيْلَ لَ، إِذَا رَاحَ مَدَّاهُمْ الظُّلَامِ
طَلَعُوا بِالْمَهْنَدَاتِ جَهْرًا فَأَلْقَتْ حَمَلَهَا الْحَامِلَاتُ قَبْلَ التَّمَامِ⁽³⁾
[الخفيف]

وفي القصيدة تتجلى براعة ابن الرومي في الإتيان بالمعاني العميقة، واستقصاء الأفكار؛ ففي البيت الأخير يصور المصيبة من شدة هولها، وكأنها يوم القيامة، حيث تضع كل ذات حمل حملها، كما تشير الآية الكريمة⁽¹⁾. والقصيدة طويلة ينوع الشاعر في أساليب التأثير في الناس، وهي بلا شك صورة واقعية لما حلَّ بالبصرة أيام فتنة الزنج.

ويذكر ابن كثير بعض الوقائع التي حدثت بين جيوش الخليفة وبين صاحب الزنج، فيقول: "ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائتين ولثلاث عشرة بقيت من ذي القعدة، توجه موسى بن بغا إلى حرب الزنج، وخرج المعتمد لتوديعه، وخلع عليه عند مفارقتة له، وخرج عبد الرحمن بن مفلح إلى بلاد الأهواز نائبا عليها، وليكون عوناً لموسى بن بغا على حرب صاحب الزنج الخبيث فهزم عبد الرحمن

(1) يعضني إبهامي، يدفعني إلى عض إبهامي، وهي كناية عن الندم.

(2) ابن الرومي: ديوانه. 3/ 339.

(3) ابن الرومي: ديوانه، 3/ 339.

(4) الآية هي: "يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد". سورة الحج: آية (2).

بن مفلح جيش الخبيث، وقتل من الزنج خلفا كثيرا، وأسر طائفة كبيرة منهم، وأرعبهم رعبا كثيرا، بحيث لم يتجاسروا على مرافقته مرة ثانية، وقد حرصهم الخبيث كل التحريض فلم ينجع ذلك فيهم، ثم توافق عبد الرحمن بن مفلح وعلى ابن أبان المهلبي، وهو مقدم جيوش صاحب الزنج، فجرت بينهما حروب يطول شرحها، ثم كانت الدائرة على الزنج والله الحمد، فرجع علي بن أبان إلى الخبيث مغلوبا مقهورا، وبعث عبد الرحمن بالأسارى إلى سامرا فيأدر إليهم العامة؛ فقتلوا أكثرهم وسلبوهم قبل أن يصلوا إلى الخليفة⁽¹⁾.

وقد انتصرت الجيوش العباسية مرارا على صاحب الزنج دون أن تتمكن من القضاء على فتنته نهائياً، ففي العام (267 هـ) فيها وجه أبو أحمد الموفق ولده أبا العباس، في نحو من عشرة آلاف فارس ورجال، في أحسن هيئة، وأكمل تجمل لقتال الزنج، فساروا نحوهم، فكان بينهم وبينهم من القتال والنزال، حتى تمكن من الاستيلاء على بلاد كثيرة كان صاحب الزنج قد احتلها في واسط وأراضي دجلة⁽²⁾.

وقد توالى انتصارات الموفق وابنه أبي العباس حتى كانت سنة (269 هـ) عندما ضيق الموفق الخناق على صاحب الزنج وهزمه في مواقع عدة⁽³⁾، وفي العام (270 هـ) كانت الهزيمة النهائية لصاحب الزنج، حيث يذكر الطبري أنه في المحرم من هذه السنة، ألحق الموفق هزيمة منكرة بصاحب الزنج، ضعفت ملكه، وتعقبه الموفق بعد ذلك، فقتله في صفر من السنة ذاتها⁽⁴⁾.

ثانياً ثورة القرامطة

وفيها يذكر الطبري: إنه في سنة (278 هـ) "وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة، فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة، ومقامه بموضع منه

(1) ابن كثير: البداية والنهاية. 31 / 11.

(2) المصدر السابق. 40 / 11.

(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 562 / 5.

(4) المصدر السابق. 582 / 5.

يقال له النهرين، يظهر الزهد والتقشف، ويسف الخوص ويأكل منه كسبه، ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة، فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين، وزهده في الدنيا، وأعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس، خمسون صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك عنه بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت الرسول⁽¹⁾.

ويعرف السيوطي بهذه الطائفة قائلاً: "وهم نوع من الملاحدة، يدعون أنه لا غسل من الجنابة، وأن الخمر حلال، ويزيدون في أذانهم (وأن محمد بن الحنفية رسول الله)، وأن الصوم في السنة يومان: يوم النيروز، ويوم المهرجان، وأن الحج والقبلة لبيت المقدس"⁽²⁾. وقد قوي أمر هذه الطائفة في البحرين سنة (286 هـ)، ويذكر الطبري: إنه "ظهر رجل من القرامطة يعرف بأبي سعيد الجنابي بالبحرين، فاجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة... وقوي أمره، فقتل من حوله من أهل القرى، ثم صار إلى موضع يقال له القطيف، بينه وبين البصرة مراحل، فقتل من بها"⁽³⁾. وقد تفاقم أمر هذه الجماعة وازداد قتالها مع الدولة، فيروي السيوطي أنه في العام (289 هـ) "خرج يحيى بن زكرويه القرمطي، فاستمر القتال بينه وبين عسكر الخليفة إلى أن قتل سنة تسعين، فقام عوضه أخوه الحسين، وأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آيته"⁽⁴⁾.

واستمر أمر القرامطة بالتفاقم، وكلما أرسل إليهم الخليفة جيشاً هزموه، وارتكبوا بحق المسلمين جرائم كثيرة،، ويذكر الدكتور شوقي ضيف أن أبا طاهر القرمطي نازل بلداناً كثيرة في جنوب العراق، ناهباً وسافكاً للدماء، وأنه أغار على الحجيج في العام (317 هـ)، فقتل منهم خلقاً كثيراً، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه، وأنه منذ ذلك التاريخ وحتى العام (326 هـ) لم يحج أحد لبيت الله خوفاً من هذا الظالم. وظلت ثورتهم مستمرة حتى دخل البويهيون بغداد، فضعف أمر قرامطة البحرين والإحساء، ودخلوا في طاعة الخليفة⁽¹⁾.

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 5/ 601.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 414.

(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 5/ 630.

(4) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 424.

(1) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. ص 42.

المطلب الثالث: الثورات التقليدية

ونقصد بها ثورات الجماعات التي لها سابقة في الثورة والخروج على الدولة، وأخص بالذكر، هنا، الخوارج والشيعة؛ فإنهم كانوا أصحاب ثورات كثيرة زمن الأمويين. وتختلف هذه الثورات عن ثورتي القرامطة والزنج؛ في أن الأخيرة كانت طارئة على الدولة العباسية، من ناحية، وتم انتهاء أمرها فور القضاء عليها من ناحية أخرى. أما ثورات الشيعة والخوارج، فإنها استمرت لفترة طويلة بدءاً من العصر الأموي.

أولاً: ثورات الشيعة

سبقت الإشارة في الفصل الأول إلى أن الدعوة العباسية ابتدأت تحت شعار رد الخلافة إلى بيت النبوة، ولم يشأ العباسيون أن يسموا أحداً بالخلافة من البداية، خوفاً من الأمويين من ناحية، ورغبة في كسب تأييد البيت العلوي من ناحية أخرى، على نحو ما تمت الإشارة إليه في الفصل الأول (نشأة الدولة العباسية)⁽¹⁾. وما خير أبي سلمة خلال الذي أراد أن يرد الخلافة إلى واحد من البيت العلوي، قبيل بيعة أبي العباس، عنا ببعيد.

ويذكر الدكتور شوقي ضيف أنه "لم يكد العباسيون يستولون على مقاليد الخلافة، حتى أخذ العلويون يشيعون في الناس أنهم اغتصبوها منهم، فهم ورثتها الحقيقيون؛ إذ هم أبناء بنت الرسول فاطمة، وأبناء علي ابن عمه، ورد عليهم العباسيون بأنه ينبغي أن يرجع في ذلك إلى أصل حكم الله في المواريث، وما فرض فيها من حجب العم لابن العم"⁽¹⁾.

إذن، فالقضية لم تعد شأنًا للمسلمين عامة يختارون من بينهم الأصلح لقيادة الأمة، بل هي قضية ميراث اختلف عليه، وهو ما أشار إليه ضيف بقوله: "والعجب العجاب أن نرى جمهور المسلمين في هذا العصر لا يعودون بالخلافة إلى نظام الشورى، وأن تصبح حقاً للأمة، فقد ضللتهم دعاية البيت الهاشمي وجعلتهم يقتنعون بأنها ميراث آل إليهم من الرسول"⁽²⁾. وهكذا لم تكن العلاقات بين البيت

(1) يرجع في ذلك إلى ص (7) من الفصل الأول.

(1) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول. ص 26.

(2) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول. ص 29.

العلوي والبيت العباسي، حسنة دائماً؛ إذ شعر العلويون بالغبن. وقد قام العلويون بثورات متفرقة زمن العباسيين، وبالتحديد في القرن الثاني الهجري، ولكنها لم تصل إلى مستوى ثوراتهم زمن الأمويين، وقد تمت الإشارة إلى بعض منها في الفصل الأول.

وقد اختلف الخلفاء العباسيون في طريقة تعاملهم مع العلويين، وموقفهم منهم؛ فالمأمون مثلاً، كان يعطف على العلويين كثيراً، حتى أنه حاول جعل ولي عهده واحداً منهم، ويذكر الطبري أن المأمون جعل "علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولي عهد المسلمين والخليفة من بعده وسماه الرضي من آل محمد صلى الله عليه وسلم وأمر جنده بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة وكتب بذلك إلى الآفاق"⁽¹⁾. ويذهب السيوطي فيقول إن المأمون هم بأن يخلع نفسه ويولي الخلافة لعلي الرضا وذلك سنة (201)هـ، وحمله على ذلك إفراطه في التشيع.⁽²⁾ ولم يرق هذا الصنيع للأمرء العباسيين فناروا في وجهه، وخلعوه وبايعوا بالخلافة لإبراهيم بن المهدي، ولقبوه بالمبارك، وجرت بينهما أمور، ولكن علي الرضا لم يلبث أن مات؛ فكتب المأمون للناس أن سبب نقتهم هي بيعته للرضا، وقد مات، وعاد هو إلى لبس السواد⁽³⁾.

أما الخليفة المتوكل، فإنه كان على نقبض المأمون إذ أحيا السنة، وأوقف القول بخلق القرآن، أما من حيث موقفه من آل علي، فإنه كان ناقماً عليهم، ويذكر السيوطي أن المتوكل في سنة (230) هـ، "أمر بهدم قبر الحسين، وهدم ما حوله من الدور، وأن يعمل مزارع، ومنع الناس من زيارته، وخرّب وبقي صحراء"⁽¹⁾.

وهكذا، كانت ثورات الشيعة في العصر العباسي ليست ذات شأن، ولكن الخلفاء العباسيين، اختلفوا في موقفهم من العلويين على نحو ما رأينا.

ثانياً: ثورات الخوارج

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 5 / 137.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 350

(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 5 / 138، وما بعدها، والسيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 351، 352.

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 393.

أما الخوارج وهم الفئة التي خرجت على علي لقبوله التحكيم بعد وقعة صفين، فكانوا أعداء الأمويين وأعداء العلويين، وكانوا يرون أن الخلافة ليست وفقاً إلا على الأكفاء من المسلمين لا عبرة في ذلك لحسب أو جاه، ولقد أصلوا بني أمية ناراً حامية من ثوراتهم. ولم يتغير موقفهم في العصر العباسي إذ لم يجدوا فيه ما يرضي عقيدتهم في شأن الخلافة، فظلوا في ثورات متتابعة⁽¹⁾.

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن مذهب الخوارج "ضعف شأنه بسبب فتك الأمويين بهم فتكاً ذريعاً. بحيث لم يبق منهم إلى العصر العباسي سوى فلول في أنحاء متفرقة بعمان والجزيرة"⁽²⁾. وعليه فقد قام الخوارج بثورات متفرقة ومنها:

ثورة الخوارج الأباضيين في عمان⁽³⁾:

وقاد هذه الثورة رجل منهم عرف بالجلندي، ويذكر الطبري أن أبا العباس السفاح أرسل إليه جيشاً لقتاله بقيادة خازم بن خزيمة، وقد استمر القتال عدة أيام دون أن يظفر أحد من الفريقين بالآخر، حتى عمد خازم إلى إحراق بيوت الخوارج وكانت من الخشب، فانشغلوا ببيوتهم وما فيها ومن فيها، فأعمل جند أبي خازم فيهم السيف، وقضوا عليهم. وفي هذه المعركة "قتل الجلندي فيمن قتل، وبلغ عدة من قتل عشرة آلاف وبعث خازم برؤوسهم إلى البصرة فمكثت بالبصرة أياماً ثم بعث بها إلى أبي العباس"⁽¹⁾.

ويورد المرزباني أشعاراً لأحد شعراء الأباضية، وهو عمرو بن الحسن الأباضي، يرثي فيها قتلاهم، وفيها يقول:

فِي فِتْيَةٍ شَرَطُوا نَفْسَهُمْ لِمَشْرِفِيَّةٍ وَالْقَتَا السُّمْرِ
مُتْرَاحِمِينَ ذُووِ يَسَارِهِمْ يَتَعَفُّونَ عَلَى ذَوِي الْفَقْرِ
وَذُووِ خِصَاصَتِهِمْ كَأَنَّهُمْ مِنْ صِدْقِ عَفَاتِهِمْ ذُووِ الْفَرِّ

(1) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وأشهر رجاله. ص 13.

(2) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول. ص 32.

(3) الأباضية فرقة من الخوارج تقول بجواز أمر الله تعالى عنده بحكمين متضادين في شيء واحد، وقالوا: إن ذلك كمن دخل زرعاً لغيره، فهو مأمور بالخروج منه، ومنهي عنه؛ لأن في خروجه إفساد زرع غيره. البغدادي: الملل والنحل. ص 79.

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 4/ 369.

مُتَجَمِّمِينَ لَطِيبِ خَيْمِهِمْ لَا يَهْلَعُونَ لِنَبْوَةِ الدَّهْرِ
فَكَذَلِكَ مَثْرِيهِمْ وَمَقْتَرِهِمْ أَكْرَمَ بِمَقْتَرِهِمْ وَبِالْمَثْرِيِّ (1)
[الكامل]

ثورة الخوارج بقيادة يوسف بن إبراهيم:

وكانت هذه الثورة في خراسان، في العام (160 هـ)، فوجه الخليفة المهدي إليها جيشاً بقيادة يزيد بن يزيد الشيباني " فلقيه واقتتلا حتى صارا إلى المعانقة، فأسره يزيد وبعث به إلى المهدي، وبعث معه من وجوه أصحابه بعدة، فلما انتهى بهم إلى النهروان، حمل يوسف البرم على بغير قد حول وجهه إلى ذنب البعير وأصحابه على بغير، فأدخلوهم الرصافة على تلك الحال، فأدخلوه على المهدي، فأمر هرثمة بن أعين فقطع يدي يوسف ورجليه وضرب عنقه وعنق أصحابه وصلبهم" (2).

ثورة الوليد بن طريف الشاري بالجزيرة:

وكانت هذه الثورة في عهد الرشيد⁽¹⁾، فأرسل إليه إبراهيم بن خازم، فهزمه الخارجي، ثم مضى إلى أرمينية، ثم لم يلبث أن عاد إلى الجزيرة " واشتدت شوكته، وكثر تبعه، فوجه الرشيد إليه يزيد بن مزيد الشيباني، فراوغه يزيد ثم لقيه، وهو مغتر فوق هيت فقتله، وجماعة كانوا معه وتفرق الباقون" (2).

ويرى الأصفهاني أن الوليد بن طريف لما خرج لقتال يزيد بن مزيد كان ينشد:

أنا الوليدُ بن طريفِ الشَّاري قَسْوَرَةٌ لَا يُصْطَلَى بِنَارِي (3)
[الرجز]

(1) المرزباني: معجم الشعراء. 15 / 1.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 553 / 4.

(1) المصدر السابق. 638 / 4.

(2) المصدر السابق. 641 / 4.

(3) الأصفهاني: الأغاني. 115 / 12.

ويروي الأصفهاني كذلك أن أخته ليلي بنت طريف خرجت في اليوم التالي لتقاتل فعرفها يزيد وزجرها فاستحيت، ثم ذهبت وهي تتشد:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تحزن على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قناً وسؤوف⁽¹⁾

[الطويل]

كما قامت ثورات أخرى للخوارج، منها ثورة مهدي بن علوان الخارجي، التي حدثت في عهد المأمون سنة (203 هـ)، فأرسل إليه جيشاً بقيادة إبراهيم بن المهدي فقتل عليه،⁽²⁾ ويذكر الدكتور شوقي ضيف أن ثورات الخوارج كانت ضعيفة، إذ إن الخوارج لا يلبثون حين يثورون أن يقضى عليهم، وفرق بعيد بين ثوراتهم في هذا العصر، وثوراتهم في العصر الأموي، فقد أخذت دعوتهم تضعف تدريجياً، ولم يتركوا أثراً يذكر في الحياة الأدبية، وقلما نجد لهم شاعراً معروفاً⁽³⁾.

(1) المصدر السابق . 115 / 12

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 5 / 140.

(3) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول. ص 33.

المبحث الثالث

العوامل الاجتماعية والاقتصادية

المطلب الأول: التركيب العرقي للدولة

امتازت الدولة العباسية بتعدد الأعراق والأجناس الموجودة فيها، وكان لذلك الأثر الكبير في الحياة الاجتماعية للناس، فلم تعد الحياة بسيطة كما كانت عليه من قبل؛ فقد جاء كل قوم بثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ولم تكن النظرة للخلافة وللدین عند كل هؤلاء واحدة، وهذا ما ذهب إليه أحمد أمين حين قال: "إن الأمم، وإن اتخذت ديناً فكل أمة يختلف نظرها في تفاصيل دينها عن الأمم الأخرى، وهي تنظر إلى الدين من خلال تاريخها، ونظمها الاجتماعية، من خلال أديانها المتعاقبة، ومن خلال لغاتها وتقاليدها، ومن خلال ثقافتها وتربيتها"⁽¹⁾.

ومن المعروف أن الشعب في الخلافة العباسية كان يضم أعراقاً من بقاع شتى، ومنهم من كانت له ثقافة وحضارة سابقتين، ومنهم من لم تكن له هذه ولا تلك، منهم من كان يدين بدين، ومنهم من كان مشركاً أو وثنياً، ويشير الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي إلى التركيبة البشرية في العصر العباسي، فيجدها غاية في التنوع، ومن العناصر التي ذكرها⁽²⁾:

أولاً: العنصر الفارسي: ويذكر أنهم كانوا عماد النظام السياسي والإداري في الدولة حتى أقصاهم الأتراك، وكانوا دعاة الترف في الدولة.

ثانياً: العنصر التركي: وكان لهم النفوذ السياسي في الدولة، وقضوا على سلطان الفرس والعرب على حد سواء، وكثرت الجوارح الأتراك في قصور الخلفاء، ويذكر السيوطي أن المعتصم هو أول من استعان بالترك، وأدخلهم معترك الحياة السياسية والعسكرية، فيقول: إن المعتصم "اعتنى باقتناء الترك، فبعث إلى سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم، وبذل فيهم الأموال، وألبسهم أنواع الدباج

(1) أمين: ضحى الإسلام. 1/ 383.

(2) خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ص 28.

ومناطق الذهب، فكانوا يطردون خيلهم في بغداد، ويؤذون الناس، وضافت بهم البلد، فاجتمع إليه أهل بغداد، وقالوا: إن لم تخرج عنا بجندك حاربناك⁽¹⁾.

ثالثاً: العنصر الرومي: وهذا العنصر وفد إلى الدولة من خلال الحروب، أي أنهم دخلوا أسرى أرقاء، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات تركيات، ومن هذا العنصر على سبيل المثال الشاعر ابن الرومي.

رابعاً: العنصر الزنجي: وكانوا يجلبون من شرق إفريقيا، وكانوا يعملون في الزراعة والصناعة، وفي بيوت الطبقة المتوسطة، ومن مظاهر خطرهم على سبيل المثال ثورة الزنج التي ذكرت في الصفحات السابقة.

وقد كان التنوع العرقي من عوامل ازدهار الحياة العقلية والأدبية، فيرى أحمد أمين أن هناك فرقاً بين الخمريات عند طرفة وعند أبي نواس، وفرقاً آخر بين الشوق عند امرئ القيس، وعند عباس بن الأحنف، ولا يعزو هذا الفرق إلى الحضارة وحدها، بل إلى تزواج الاعراق، فيقول: "لم تكن الحضارة وحدها، هي التي أنتجت هذا الفرق. ولكن كان أكبر العوامل فيه: تزواج الأجناس، وتزواج الأفكار، كالذي كان في الشعر. فقد أخذ الفرس الوزن العربي، والقافية العربية، والأسلوب العربي، ولكن أخذوا إلى جانبه الخيال الفارسي، والذوق الفارسي"⁽²⁾.

وقد كان تنوع الأجناس وبالأعلى على الحالة السياسية، والتنازع العرقي في الدولة؛ إذ كان العرب قبل، قبائل متفرقة، وإذا افتخر أحدهم افتخر بقبيلته، لا بعروبته، ولما صارت لهم دولة وانتصرت على الفرس والروم، صارت للعرب مكانة عالية، وكانوا يحتقرون الموالى، ويذكر أمين: أن العرب احتقروا طائفة المولدين، وسموا ابن العربي من الأمة "الهجين"⁽³⁾، وجاء في لسان العرب: "الهجنة من الكلام ما يعيبك، الهجين: العربي ابن الأمة لأنه معيب"⁽⁴⁾.

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 381.

(2) أمين: ضحى الإسلام. 1/ 33.

(3) المصدر السابق. 1/ 43.

(4) ابن منظور: لسان العرب. مادة (هجن).

وقد ظهرت نزعة الشعوبية الداعية إلى الحط من شأن العرب، كما نجده عند بشار بن برد، إذ تروى له أبيات يهجو فيها العرب، ويقول:

أَعَاذُلُ لَا أَنَامُ عَلَى افْتِسَارِ وَلَا أَلْقَى عَلَى مَوْتَى وَجَارِ
سَأُخْبِرُ فَاخِرَ الْأَعْرَابِ عَنِّي وَعَنَّهُ حِينَ بَارَزَ لِلْفَخَارِ
أَنَا ابْنُ الْأَكْرَمِينَ أَبَا وَأَمَّا تُنَازِعُنِي الْمَرَازِبُ مِنْ طُخَارِ⁽¹⁾
[الوافر]

وفي هذه الأبيات يفخر الشاعر بنفسه وبنسبه في الفرس، ويتحدى الإنسان العربي الذي يفاخره، ويعني على الزمن الذي جاء بالعرب حتى صارت لهم دولة، فيقول:

إِذَا انْقَلَبَ الزَّمَانُ عَلَا بَعْدِي وَسَقَلُ بِالْبَطَارِيقِ الْكِبَارِ
مَلَكْنَاكُمْ فَعَطَيْنَا عَلَيْنَاكُمْ وَلَمْ نُنْصِبْكُمْ غَرَضًا لِإِدَارِ⁽²⁾
[الوافر]

ثم يمضي الشاعر في هجاء العرب، فيقول:

أَحِينَ لَبَسْتَ بَعْدَ الْعُرِيِّ خَزًّا وَنَادَمْتَ الْكِرَامَ عَلَى الْعُقَارِ
تَفَاخَرُ يَا ابْنَ رَاعِيَةِ وَرَاعٍ بَنِي الْأَحْرَارِ حَسْبُكَ مِنْ خَسَارِ⁽³⁾
[الوافر]

(1) المرزاب: جمع المرزبان وهو الرئيس من الفرس. ابن برد، بشار: ديوانه. ج/3 ص 229.

(2) ابن برد، بشار: ديوانه. ج/3 ص 230.

(3) المصدر السابق. ج/3 ص 230، 231.

المطلب الثاني: التفاوت الطبقي

من آثار امتزاج الحضارات حصول تقدم في مجالات العلوم والصناعة والزراعة، وإذا أضفنا إلى ذلك المساحات الواسعة من الأراضي التي دخلت تحت سلطان الدولة الإسلامية، وما تدر على الخزينة من أموال وفيرة، نجد أن رخاء اقتصادياً عاشته الدولة العباسية، وبالتحديد في القرن الأول من حياتها.

وللتعرف إلى مدى هذا الرخاء يكفي أن نذكر ما أورده الخضري؛ فتحت عنوان: الخراج في عهد المأمون، يذكر مقدار الجباية التي ترد من الأقاليم سواء من الناحية النقدية أو من ناحية العروض،⁽¹⁾ ويستغرق الكاتب أربع صفحات في تفصيل هذه الأقاليم وما ترسله لخيرينة الدولة، وما يهمننا في هذا المقام، هو المبلغ الإجمالي السنوي الذي يصل إلى خيرينة الخلافة، فيقول: "مجموع الخراج من الدراهم (3196000000)، درهم، و(3817000) دينار، ومن العروض ما ذكر أمام كل إقليم"⁽²⁾.

ويذكر الدكتور خفاجي أن متوسط الضرائب في منتصف القرن الثالث الهجري، بلغت ثلاثمئة مليون درهم.⁽³⁾ ويتحدث متولي عن هذا الرخاء الاقتصادي، فيقول: "الصناعة والزراعة والتجارة في ازدهار كبير. ففارس تصدر كل سنة ثلاثين ألف قارورة من ماء الورد، وخراسان تصنع عشرين ألف ثوب، وطبرستان ونهاوند ستمئة قطعة من الفرش ومئتين من الأكيسة. يضاف إلى هذا ألوف القناطر من الزيت والعسل والتمر من سائر أنحاء المملكة"⁽⁴⁾.

على أن هذه الأموال الوفيرة، لم تكن توزع بشكل عادل، بل كان يحظى بها أناس دون آخرين؛ فقد "انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء، وكان كبار الملاك يستقلون بإقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين حالة الناس... وعمت المصادر وانتشرت بين طبقات الناس،

(1) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية. ص 192 – 194.

(2) المصدر السابق. ص 194.

(3) خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ص 26.

(4) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وأشهر رجاله. ص 20.

وأصبحت بتوالي الأيام المصدر الرئيس لبيت المال، وأنشئ لها ديوان مخصوص⁽¹⁾. وقد قسم ضيف المجتمع العباسي ووجده يقع في طبقات ثلاث:

أولاً: الطبقة العليا: وهم الخلفاء والوزراء والقادة والولاة ومن يلحقهم من الأمراء، وهذه الطبقة مترفة منعمة تتمتع بالدخل الوفير الذي يرد إلى خزينة الدولة⁽²⁾.

ثانياً: الطبقة الوسطى: وتضم علماء العربية والفقه والتفسير والحديث، وكان كثير منهم يأخذ رواتب من الدولة، ويلحق بهذه الطبقة الشعراء والمغنون وأهل الصناعات⁽³⁾.

ثالثاً: طبقة العامة: وهي الطبقة التي تقوم بالأعمال المختلفة، وتهيئ الحياة للطبقتين العليا والمتوسطة، وأهل هذه الطبقة يعانون الأمرين لتأمين لقمة العيش، ومما لا شك فيه أن وجود مثل هذه الطبقة كان من العوامل المشجعة للثورات، كثورة الزنج، وثورة القرامطة⁽⁴⁾.

وكانت الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً، والنفوذ والثروة في يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف واللهو والمغالاة في البنيان⁽⁵⁾، ومن نماذج الأغنياء والأمثلة عليهم ابن الجصاص الجوهري ظل غنياً موسراً، بالرغم من أن المقتدر صادر ستة عشر مليون دينار، وأن المعتصم استوزر رجلاً وكان جاهلاً، إلا أنه كان غنياً؛ لأنه كان يخرج في اليوم مئة دينار صدقة⁽⁶⁾.

والأمثلة على إنفاق الخلفاء وأهل الطبقة العليا للمال، وحجم الترف الذي يعيشونه عصية على الحصر؛ فهذا المنصور خلف حين توفي أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستمئة مليون من الدراهم، والرشيد يموت عن تسعمئة مليون درهم، والمكتفي خلف مئة مليون دينار. وخالد البرمكي منح بشاراً ألف درهم لكل بيت من قصيدته التي مدحه فيها، وأعطى إبراهيم الموصلية يوماً ستمئة ألف درهم، وضيعة بمئة وستين ألفاً. واشتهر آل الفرات بالسخاء والكرم بعد البرامكة. فكانوا يفرضون الرواتب

(1) خفاجي: الأدب العربية في العصر العباسي الأول. ص 26.

(2) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. ص 53.

(3) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. ص 60-60.

(4) المصدر السابق. ص 53.

(5) خفاجي: الأدب العربية في العصر العباسي الأول. ص 29.

(6) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وأشهر رجاله. ص 21.

للعلماء والأدباء والفقهاء. ومثل ذلك قيل في المتوكل فقد أعطى الحسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت في قصيدة قيلت فيه. وكان المعتصم إذا أعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهرًا⁽¹⁾.

وأخبار زواج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل، أشهر من أن تذكر. فقد تحدث عنها المسعودي، فيقول: "وانحدر المأمون إلى فم الصلح في شعبان سنة تسع ومئتين، وأملك بخديجة ابنة الحسن بن سهل التي تسمى بوران، ونثر الحسن في ذلك الإملاك من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في إسلام، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقية إذا وقعت في يد رجل فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها، فيمضي إلى الوكيل الذي نصب لذلك، فيقول له: ضيعة يقال لها فلانة الفلانية من طسوج كذا، من رستاق كذا، وجارية يقال لها فلانة الفلانية... وأنفق المأمون على قواده وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده"⁽²⁾. أما عن إنفاق المأمون نفسه، فيقول المسعودي: "فلما أراد المأمون أن يصعد في دجلة منصرفاً إلى مدينة السلام، قال للحسن: حوائجك يا أبا محمد، قال: نعم يا أمير المؤمنين، أسألك أن تحفظ علي مكاني من قلبك، فإنه لا يتهيأ لي حفظه إلا بك، فأمر المأمون بحمل خراج فارس وكور الأهواز إليه سنة"⁽³⁾.

هذا في مجال الزواج، أما في مجال بناء القصور فحدث ولا حرج، وفي ذلك يقول ضيف عن المتوكل: "ويقال إن النفقات لم تبلغ في عصر من عصور الخلفاء ما بلغت في عصره، وخاصة في بناء القصور، وقد أحدث فيها البناء الموسوم بالبناء الحريري، وكان يُجعل فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام، وكان في الراق مجلس الخليفة... وكان كلما بنى قصرًا أتبعه بأخر حتى بلغت قصوره نحو العشرين"⁽⁴⁾. ويمضي ضيف قائلاً: "وتبارى الخلفاء بعد المتوكل في بناء القصور؛ فبنى المعتز ابنه قصره المعروف باسم التاج، أو الساج، وكان قصرًا ضخماً، وبنى المعتمد قصره المعشوق على شاطئ دجلة..."⁽⁵⁾.

(1) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وأشهر رجاله. ص 21-23.

(2) المسعودي: مروج الذهب. ص 704.

(3) المصدر السابق. ص 704-705.

(4) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. ص 55.

(5) المصدر السابق. ص 55.

أما عن مصاريف القصور، والخلفاء فكانت غاية في الإسراف؛ ويذكر المسعودي أن طبق سمك عند الرشيد يتكلف ألف درهم⁽¹⁾. ويذكر ضيف أنه في عصر المعتضد كان ينفق "على القصر والرم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهرياً، وكان ينفق على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهرياً، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفاً، غير ما ينفق على البوابين من البيض والسودان"⁽²⁾. وإذا أضفنا إلى تلك النفقات ما كان ينفق على رواتب أهل البيت العباسي، نرى مقدار الترف الذي عاشته الطبقة الخاصة في الدولة العباسية، وحجم الإنفاق غير المقول الذي كان يتم. ولا ريب في أن هذا كله كان على حساب العامة المحرومة، التي كانت تحيا حياة بؤس تقوم على شظف العيش؛ لينعم الخلفاء وكبار رجال الدولة وأمرأء البيت العباسي⁽³⁾.

وقد تذر الناس من هذه الفجوة الواسعة بين الطبقات، ويذكر الدكتور متولي أنه "اعترض ثائر على محمد بن سليمان وقال له: أمن العدل أن تكون غلتك كل يوم مئة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه، ثم التفت إلى "سوار" القاضي فقال له: إن كان هذا عدلاً فأنا أكفر به"⁽⁴⁾.

وكان من نتائج هذه السياسة أن الرقيق كثر في العصر العباسي كثرة مفرطة بسبب ما كانوا يأسرون في الحروب، وبسبب انتشار تجارته. وكان هذا الرقيق من أمم شتى وأجناس مختلفة، يحمل ثقافات ومدنيات متنوعة⁽⁵⁾. ويرى خفاجي أن كثرة الرقيق في القصور، أدى إلى أن كثر نسل الجوارى، واختلطت الدماء، وأشاع هؤلاء الجوارى فن الغناء، كما نشرن اللهو والمجون بين شتى الطبقات⁽⁶⁾.

ومن النتائج الأخرى لذلك يذكر الدكتور خفاجي فيقول: "ولتنوع الحياة الاجتماعية، إلى خاصة وعامة، وترف وفقر، ونسك ولهو؛ كانت البلاد معرضاً للنحل، ومجالاً لدعاية الجماعات السرية، وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية، ويعالجون الترفيه عن

(1) المسعودي: مروج الذهب. ص 648.

(2) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. ص 54.

(3) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وأشهر رجاله. ص 25.

(4) المصدر السابق. ص 25، 26. 1984م.

(5) المصدر السابق. ص 25.

(6) خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ص 30

الفقراء بالدعوة إلى المساواة، كان فيها التشيع برجالاته، والاعتزال بطوائفه، والسنة باختلاف أقوالها، والفلسفة بمذاهبها، والعلوم الحديثة بأنواعها⁽¹⁾.

نخلص إلى أن الحياة العباسية قد انحرفت عن المثل العليا السامية التي تحلى بها المسلمون في الدور الأول من تاريخ دولتهم، ومالت إلى المادية، وازداد فيها التهاك على الدنيا وزينتها. وكلما مالت الحياة العامة نحو المصالح المادية والملاذ الدنيوية، وجد هؤلاء الذين نشدوا المثل العليا الإسلامية أسباباً وبواعث تدفعهم إلى إبداء استهجانهم وسخطهم، متخذين لأنفسهم موقفاً خاصاً لا يحدون عنه وهو نبذ كل غاية دنيوية⁽²⁾.

(1) خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ص 30

(2) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وأشهر رجاله. ص 29.

الفصل الثالث

دراسة فنية

المبحث الأول: الصورة في شعر الخلافة

المبحث الثاني: الأسلوب واللغة

المبحث الثالث: الموسيقى الشعرية

المبحث الأول

الصورة في شعر الخلافة

تمهيد في مفهوم الصورة:

تتضح أهمية الصورة في الاهتمام بها قديماً وحديثاً ، فالشعر يقوم على الصورة ، فهي تشكيلاً لغوياً تقترب من الخيال ، فالخيال يمنح الشاعر القدرة على الانتقال من تصوير المؤلف إلى تصوير فني يعتمد على التأمل والتفكير للوصول إلى معانٍ جديدةٍ تثير الانتباه، فالصورة تنقل التجربة نقلاً صادقاً ، كما أنها من أقوى الوسائل للتعبير عن الفكر والشعور تعبيراً حياً ومؤثراً⁽¹⁾.

فالصورة انعكاس لذات الشاعر ونفسيته ومشاعره ، ونلاحظ ذلك في بيت شعر للبحثري

يقول:

كأنها حين لَجَّت في تدفقها يد الخليفة كما سال واديهما

[البسيط]

فالشاعر هنا يعكس التشبيه ، فيجعل المشبه مشبهاً به ومن المشبه به مشبهاً (تشبيه مقلوب) ن فبين صورة ممدوحه الخليفة المتوكل ، إذ بدا تدفق مياه البركة مشبهاً لتدفق يد الخليفة ، إعلاءً لشأنه ، صورة كرم المتوكل الذي كان سبب إنشاء البركة .

عندما نطالع معاجم اللغة باحثين عن معنى(الصورة)، فإننا نجد: "المُصَوِّرُ: من أسماء الله تعالى، وهو الذي صور جميع الموجودات ورتبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها، وكثرت. وتصورت الشيء: توهمت صورته، فتصور لي،

قال ابن الأثير: الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته،

وعلى معنى صفتته".⁽²⁾

(1) صبح، علي: الصورة الأدبية (تاريخ النقد). دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، عيسى الحلبي، ص131.

(2) ابن منظور: لسان العرب. دار المعارف. القاهرة. مادة (صور).

فإذا ما انتقلنا لنرى مدلول الصورة في القرآن الكريم، فإننا نلتقي بمادة (صور) في القرآن ست مرات: مرتين بصيغة الفعل الماضي، الأول: (صوركم) في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (1).

قال الزمخشري: "(فأحسن صوركم): لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان. وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم" (2). فصورة الأدميين صورة حسنة، والفعل هنا يشير إلى الشكل والهيئة والصفة.

ويطالعنا اللفظ أيضاً بصورة الماضي (صورناكم) في قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا اِلَّا اِبٰٓلٰسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّٰجِدِيْنَ) (3). قال أبو السعود: "خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور، ثم صورناه أبداع تصوير، وأحسن تقويم سار إليكم جميعاً" (4). فالتصوير هنا بمعنى التشكيل، وأنه مرحلة تالية بعد الخلق.

ومرة بصيغة اسم الفاعل (المصور) كما في قوله تعالى: (هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (5). أي الذي إذا أراد شيئاً فإنه يقول له كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار" (6).

ومرة بصيغة الفعل المضارع (يصوركم) في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَآ إِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (1). قال ابن كثير: "يخلقكم في الأرحام كما

(1) سورة غافر: 64.

(2) الزمخشري: الكشاف، 4/ 176.

(3) سورة الأعراف: آية (11).

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ت عبد القادر أحمد عطا. مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، 325/2.

(5) الحشر: 24.

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 4/ 45. دار الفكر. بيروت. 1401هـ.

(1) سورة آل عمران: آية (6).

يشاء من ذكر وأنتى وحسن وقبيح وشقي وسعيد⁽¹⁾. وفي هذا دليل على أن الإيجاد يكون على صفة وشكل يريد الله كيفما يشاء، وبلا سبب.

ومرة بصورة الجمع (صوركم) في آية سورة "غافر" السابقة، ومرة بصيغة المفرد (صورة) في قوله تعالى: (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ)⁽²⁾. أي: شكلك، وقال مجاهد: أي في شبه أب، أو أم، أو خال، أو عم⁽³⁾.

والمأخوذ من الآيات السابقة، ومن كلام أئمة التفسير أن الصورة تعني الخلق، والإيجاد، التشكيل، والتركيب، وإلى هذا أشار أحد الباحثين بقوله: "اللفظة (الصورة) تشير إلى فعل التصوير، وإلى فعل التركيب، وهما لا يقوم أحدهما دون الآخر بحيث يمكن القول: إن التصوير تركيب، وإن التركيب ذو عناصر ينحل إليها، وأن هذه العناصر ذات علاقة فاعلة ومتفاعلة، تنثر في النهاية نشاطاً تصويرياً ما فمدلول الصورة هو نشاط عناصر التركيب"⁽⁴⁾.

وإذا كان حديثنا السابق انصب حول مادة (صور) في الذكر الحكيم، فمن الواجب أن نشير إلى أن "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن؛ فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية"⁽⁵⁾.

وإذا نظرنا إلى البلاغيين القدماء لوجدنا أن لهم نظرات في الصورة؛ فهذا الجاحظ يقول: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"⁽¹⁾.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم. 46 / 1.

(2) سورة الانفطار: آية (8).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم. 482 / 4.

(4) علي، أحمد يوسف: مفهوم الشعر عند العباسيين. رسالة دكتوراة مخطوطة، كلية الآداب. جامعة الزقازيق. 1984م. ص 400.

(5) قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن. القاهرة: دار المعارف، ط10. ص34.

(1) الجاحظ: الحيوان. تحقيق: عيد السلام هارون. بيروت: المجمع العلمي العربي الإسلامي. ط3. 1969م. 13/3.

أما قدامة بن جعفر فيقول: "ومما يوجب تقدمته وتوسيده - قبل ما أريد أن أتكلم فيه- أن المعاني كلها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم منها في ما أحب وأثر، من غير أن يُحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، وإذا كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية، والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة، من أنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها: مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة، وعلى الشاعر - إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعفة، والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح، وغير ذلك من المعاني الحميدة، أو الذميمة - أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة"⁽¹⁾. والأمر الذي زاده ابن قدامة، على الجاحظ، هو أنه جعل للشعر مادة (وهي المعاني)، وصورة (وهي الصياغة اللفظية، والتجويد في الصناعة).

وفي العصر الحديث، نهض مجموعة من الكتاب لتعريف الصور؛ منهم علي صبح الذي يعرفها بقوله: "الصورة الأدبية هي التركيب القائم على الإصاغة في التنسيق الحي لوسائل التعبير التي ينتقيا وجود الشاعر - أعني خواطره ومشاعره وعواطفه - المطلق من عالم المحسّات؛ ليكشف عن حقيقة المشهد والمعنى في إطار قوي تام محس مؤثر على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين"⁽²⁾. أما د. أحمد الشايب، فيرى أن الصورة الأدبية: "الوسائل التي يحاول الأديب نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه أو سامعيه"⁽³⁾.

(1) ابن جعفر، قدامة: نقد الشعر. ت محمد عبد المنعم خفاجي. ص 65، 66. بيروت: دار الكتب العلمية.

(2) صبح، علي: الصورة الأدبية تأريخ ونقد. ص 149. ط1. القاهرة: دار قباء للطباعة. 2000م.

(3) الشايب، أحمد: أصول النقد الأدبي. ص 242. ط 8. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

المطلب الأول: الصورة بمعناها العام

تأثرت صورة الخلافة، صعوداً وهبوطاً، بشخص الشاعر الذي يصفها، أو يمدح الخليفة من ناحية، وبموقف هذا الشاعر من الخليفة العباسي موضع المدح من ناحية أخرى. فقد كان الحديث عن الخلفاء العباسيين الذين ورد ذكرهم في الفصل الأول من هذه الدراسة، مدحاً أحياناً، وهجاءً أحياناً آخر. ومن المعروف أن المدح والهجاء غرضان شعريان معروفان منذ العصر الجاهلي. فهل تم تناول هذين الغرضين بطريقة جديدة مبتكرة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في السطور التالية.

الجانب الأول: أنواع الصور

أولاً: الصور الإيجابية

حيث صورَّ بعض الشعراء الخليفة بصورة الإنسان كريم الأصل، ورفيع الشأن، ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر أبي دلالة:

لَوْ كَانَ يَقَعْدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ لَقِيلَ اقْعُدُوا يَا آلَ عَبَّاسٍ
ثُمَّ ارْتَقُوا فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ كُلِّكُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَأَنْتُمْ أَطْهَرُ النَّضَّاسِ
وَقَدِّمُوا الْقَائِدَ الْمَنْصُورَ رَأْسَكُمْو فَالْعَيْنُ وَالْأَنْفُ وَالْأَذْنَانُ فِي الرَّأْسِ

[البسيط]

ففي هذه الصورة، يرى الشاعر أن للعباسيين منزلة عالية، لدرجة أنه لو كان أحد يقعد فوق الشمس لكانوا هم، وأبعد من ذلك، فقد استشعر أحدهم قداسة الخليفة، فلو عبَدَ إنسانٌ لكان الخليفة، يقول الحسين بن مطير في مدح الخليفة المهدي:

لَوْ يَعْبُدُ النَّاسُ يَا مَهْدِي أَفْضَلَهُمْ مَا كَانَ فِي النَّاسِ إِلَّا أَنْتَ مَعْبُودٌ⁽¹⁾

[البسيط]

(1) الأصفهاني: الأغاني. 29 / 16.

ومن تلك الصور كذلك، صورة الخليفة المهدي، الذي صورته الشاعر بأنه يحيي السنة لالتزامه بها، ووقفه عند حلالها وحرامها، ومن ذلك قول الشاعر:

أَيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ سُنَّ النَّبِيِّ حَرَامَهَا وَحَلَّالَهَا⁽¹⁾

[الكامل]

ومن تلك الصور، صورة الخليفة الأهل للخلافة، والمستحق الوحيد لها، فهو قد ورثها كائناً عن كابر، وخلافته ليست محط خلاف، بل تشهد بأحقيته لذلك كل الأدلة العقلية والنقلية. ومن ذلك قول الشاعر:

الْوَحْيُ بَيْنَ بَنِي الْبَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ قَطَعَ الْخِصَامَ فَلَاتَ حِينَ خِصَامِ
مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيضَةٌ نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ
أَنْيَ يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ
أَلْغَى سِهَامَهُمُ الْكِتَابُ فَحَاوَلُوا أَنْ يَشْرَعُوا فِيهَا بِغَيْرِ سِهَامِ
ظَفَرَتْ بَنُو سَاقِي الْحَجِيجِ بِحَقِّهِمْ وَغُرِّرْتُمْ بِتَوَهُمِ الْأَحْلَامِ
خَلَّوْا الطَّرِيقَ لِمَعَشَرَ عَادَاتِهِمْ وَحَطُّ الْمَنَاقِبِ كُلِّ يَوْمٍ زِحَامِ
وَأَرْضُوا بِمَا قَسَمَ الْإِلَهُ لَكُمْ بِهِ وَدَعَا وَرِاثَةَ كُلِّ أَصِيدٍ حَامِ⁽²⁾

[الكامل]

ومن تلك الصور، صورة الخليفة الذي يلجأ الناس إليه عند الملمات، ومن ذلك قول سلم الخاسر في مدح الهادي:

بَعِيسَابَاذَ حَرًّا مِنْ قَرِيشٍ عَلَى جَنَابَتِهِ الشَّرْبُ الرِّوَاءِ
يَعُوذُ الْمَسْلُومُونَ بِحَقْوَتِيهِ إِذَا مَا كَانَ خَوْفًا أَوْ رَجَاءِ
وَكَمْ مِنْ قَائِلٍ: إِنِّي صَحِيحٌ يَشُدُّ يَدَهُنَّ قَوْمٌ أَدْعِيَاءُ⁽³⁾

[الوافر]

(1) المرزباني: معجم الشعراء. 99 / 1.

(2) الأصفهاني: الأغاني. 220 / 13.

(3) غرونيبوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطبع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 92.

ويرتبط بهذه الصورة صورة الخليفة الذي يضع الأمور في نصابها، وينتصر لحرمت الدين،
ومن ذلك ما نظمه الشاعر علي بن الجهم لما أوقف المتوكل القول بخلق القرآن، إذ يقول:

قَامَ وَأَهْلُ الْأَرْضِ فِي رَجْفَةٍ	يَخْبِطُ فِيهَا الْمُقْبِلَ الْمُدْبِرُ
فِي فِتْنَةٍ عَمِيَاءَ لَا نَارَهَا	تَخْبُو وَلَا مَوْعِدَهَا يَفْتَرُ
كُلُّ حَنِيْفٍ مِنْهُمْ مُتْسَلِّمٌ	لِلْكَفْرِ فِيهِ مَنْظَرٌ مُنْكَرٌ
إِمَّا قَتِيلٌ وَإِمَّا أُسِيرٌ فَلَا	يُرْثَى لِمَنْ يُقْتَلُ أَوْ يُوسَرُ
فَأَمَرَ اللَّهُ إِمَامَ الْهُدَى	وَاللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ يُنْصَرُ
وَجَرَدَ الْحَقَّ فَأَشْجَى بِهِ	مَنْ كَانَ عَنِ أَحْكَامِهِ يَنْفِرُ
وَانْفَضَّتِ الْأَعْدَاءُ مِنْ حَوْلِهِ	كَحُمُرٍ أَنْفَرَهَا قَسْوَرُ
وَصَاحَ إِبْلِيسُ بِأَصْحَابِهِ	حَلَّ بِنَا مَا لَمْ نَزَلْ نَحْذَرُ
الرَّدَّةَ الْأَوْلَى تَنَى أَهْلَهَا	حَزْمُ أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ يَكْفُرُوا
وَهَذِهِ أَنْتَ تَلَاْفِيْتَهَا	فَعَادَ مَا قَدْ كَادَ لَا يُذْكَرُ
فَأَسْلَمَ لَنَا يَا خَيْرَ مُسْتَخْلَفٍ	مِنْ مَعْشَرٍ مَا مِثْلُهُمْ مَعْشَرُ ⁽¹⁾

[السريع]

ومن صور الخلافة، وربما من المبالغة فيها، تصوير الخلافة بأنها تهتز طرباً للخليفة، فهي
تسعى إليه قبل أن يسعى إليها، وهي تنتشر به. ومن ذلك قول البحرني:

إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمَّا اهْتَزَّ مِنْبَرُهَا	بِحَفَرٍ أُعْطِيَتْ أَقْصَى أَمَانِيهَا
أُبْدَى التَّوَاضُّعَ لَمَّا نَالَهَا دِعَاةٌ	عَنْهَا وَنَالَتُهُ فَأَخْتَالَتْ بِهِ تِيهَا ⁽²⁾

[البيسط]

بل يمضي البحرني في مبالغته حين يرى الخليفة منح الخلافة لأنه أهل لها، فيقول:

(1) ابن الجهم: ديوانه. جمع وتحقيق خليل مردم بيك، ط2. دار الأفاق. بيروت. 1959. ص 73

(2) البحرني: ديوانه. 18/1.

أَعْطَاكَهَا اللَّهُ عَنْ حَقِّ رَأْيِكَ لَهَا أَهْلًا وَأَنْتَ بِحَقِّ اللَّهِ تُعْطِيهَا (1)

[البسيط]

وفي المعنى نفسه يقول أبو نواس:

إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمْ تَنْزَلْ تَزَهُو وَتَفَخَّرُ بِالْأَمِينِ
وَتَحِنُّ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهِ دَائِمَةً الْخَنِينِ

[مجزوء الكامل]

ومن الصور كذلك، صورة الخليفة العفو المتفضل، على نحو ما أورده الشاعر منصور النمرى، مذكراً العلويين بفضل العباسيين عنهم، وإحسانهم إليهم، وعفوهم عنهم، وهو يذكرهم بعفو الرشيد عن يحيى بن عبد الله بعدما ثار عليه، ولم يقتله الرشيد بعدما ظفر به بل اكتفى بسجنه، وفي ذلك يقول:

يَدُ لَكَ فِي رِقَابِ بَنِي عَلِيٍّ وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَنْ الْيَسِيرِ
مَنْتَ عَلَى ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَحْيَى وَكَانَ مِنَ الْخُتُوفِ عَلَى شَفِيرِ
بَنِي حَسَنِ وَقُلْ لِبَنِي حُسَيْنٍ عَلَيْكُمْ بِالسَّادِ مِنْ الْأُمُورِ (2)

[الوافر]

ومن الصور، صورة الخليفة الرؤوم بالناس الساهر على مصالحهم، فهم يلجؤون إليه عند الملمات، ومن ذلك ما نظمه أبو العتاهية من حديث عما تشكو منه الطبقة الكادحة، ووجه بخطابه هذا للخليفة، فيقول:

إِنِّي أَرَى الْأَسْعَا رَ أَسْعَارَ الرَّعِيَّةِ غَالِيَةً
وَأَرَى الْمَكَاسِبَ نَزْرَةً وَأَرَى الضَّرُورَةَ غَاشِيَةً
وَأَرَى غُمُومَ الدَّهْرِ رَا نَحَّةً تَمُرُّ وَغَادِيَةً

(1) البحتري: ديوانه. 18 / 1.

(2) النمرى: ديوانه. ص 85، 87.

وَأَرَى الْيَتِيمَ سَامِيً وَالْأَرَا
 مِنْ بَيْنِ رَاجٍ لَمْ يَزَلْ
 يَشْكُونَ مَجْهَدَةً بِأَصْوَا
 يَرْجُونَ رِفْدَكَ كَمَا يَرَوَا
 مَنْ يُرْتَجَى لِلنَّاسِ غِيَةً
 مَنْ يُرْتَجَى لِدِفَاعِ كَرٍ
 مَنْ لِلْبَطُونِ الْجَائِعَا
 يَا بَنَ الْخَلَائِفِ لَا فُقِدْ
 إِنَّ الْأَصُولَ الطَّيِّبَا

مَلَّ فِي الْبُيُوتِ الْخَالِيَةَ
 يَسْمُو إِلَيْكَ وَرَاجِيَةَ
 تِ ضِعَافٍ عَلِيَّةَ
 مِمَّا لَقَوْهُ الْعَافِيَةَ
 رَكَ لِلْعِيُونَ الْبَاكِئَةَ
 بَ مَلَمَّةٍ هِيَ مَا هِيَ
 تِ وَلِلْجُسُومِ الْعَارِيَةَ
 تِ وَلَا عَدَمَتِ الْعَافِيَةَ
 تِ لَهَا فُرُوعٌ زَاكِيَّةٌ⁽¹⁾

[مجزوء الكامل]

ومن الصور كذلك، صورة الخليفة بصفته مشروعاً استثمارياً، يلجأ إليه الشاعر لا لهدف إلا لكسب العطاء، وإن كان هذا الهدف هو الهدف الحقيقي لكثير من الشعراء، الذين يندرون حياتهم الأدبية، في تصوير أمجاد ولاة أمور يكون كثير منها زائفاً؛ إلا أن هذا الهدف يكون في غاية الوضوح، عند الشاعر أبي دلامة؛ إذ يصرح في ذلك، ويستجدي الخليفة على نحو مكشوف، وإن ستره ببعض الملاحظة والظرف، فيقول:

إِنِّي رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَا
 مَمْلُوءَةً بِدِرَاهِمٍ
 م وَأَنْتَ تُعْطِينِي خِيَارَةَ
 وَعَلَيْكَ تَفْسِيرُ الْعِبَارَةِ⁽²⁾

[مجزوء الكامل]

وفي موطن آخر يقول أبو دلامة:

رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَامِ كَسَوْتَ جِدِي
 فَكَانَ بِنَفْسِي الْخَزْفِ فِيهَا
 ثِيَاباً جَمَّةً وَقَضَيْتَ دِينِي
 رَأَتْهَا فِي الْمَنَامِ كَذَلِكَ عَيْنِي⁽³⁾

[الوافر]

(1) أبو العتاهية: ديوانه. ص 304.

(2) أبو دلامة: ديوانه. ت إميل بديع يعقوب. ط1. دار الجيل. بيروت. 1994م. ص 61.

(3) أبو دلامة: ديوانه. ص 118.

وهكذا، يطلب الشاعر من الخليفة عطاء، من دون أن يقدم أي مديح، فهو يريد عطاء لأجل أحلام رآها في منامه، إن كان قد رأى حقاً شيئاً منها

ثانياً: الصور السلبية

وإلى جانب ما تم إيراد من صور إيجابية للخليفة والخلافة، فإننا لا نعدم أن نجد صوراً سلبية أخرى، وهكذا تكون الصور انعكاساً لرؤية صاحبها تجاه الخليفة، وتعبيراً عن وجهة نظره السياسية أو الفكرية. ومن الصور السلبية:

صورة الخليفة الذي يدعي بأنه المهدي المنتظر، وهو ما ادعاه الخليفة المهدي، على نحو ما ذكر في الفصل الأول؛ لذا يبادر السيد الحميري إلى الإشارة إلى أن الخليفة مجرد شخص عادي أما المهدي فهو أفضل من ذلك وأعلى، وفي ذلك يقول:

تَظَنَّا أَنَّهُ الْمَهْدِيُّ حَقًّا وَلَمْ تَقَعِ الْأُمُورُ كَمَا تَظُنَّا
وَلَا وَاللَّهِ مَا الْمَهْدِيُّ إِلَّا إِمَامٌ فَضَّلَهُ أَعْلَى وَأَسْنَى⁽¹⁾

[الوافر]

ومن الأمثلة على تلك الصور ما نظمه الشاعر دعبل الخزاعي، إذ يصور الخليفة المأمون بالعاجز، وفي ذلك يقول:

وَيَسُومُنِي الْمَأْمُونُ خِطَّةً عَاجِزٍ أَوْ مَا رَأَى بِالْأُمْسِ رَأْسَ مُحَمَّدٍ⁽²⁾
يُوفِي عَلِيَّ هَامَ الْخَلِيفِ مِثْلَمَا تُوفِي الْجِبَالَ عَلَى رُؤُوسِ الْقَرَدِ
لَا تَحْسَبَنَّ جَهْلِي كَحِلْمِ أَبِي فَمَا حِلْمُ الْمَشَايخِ مِثْلُ جَهْلِ الْأَمْرِدِ
إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيُوفِيهِمْ قَتَلْتَ أَخَاكَ وَشَرَقْتَكَ بِمَقْعَدِ
رَفَعُوا مَحَلَّكَ بَعْدَ طُولِ خُمُولِهِ وَاسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ⁽³⁾
كَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَبْلَهُ وَخَلِيفَةٍ أَضْحَى لَنَا دَمُهُ لَذِيذِ الْمَقْصَدِ⁽⁴⁾

[الكامل]

(1) السيد الحميري: ديوانه. ص 26.

(2) محمد هو الأمين الخليفة العباسي. وقتله جند المأمون بقيادة طاهر بن الحسين. السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 342.

(3) هذا البيت غير موجود في الديوان، وإنما موجود في الأصفهاني: الأغاني. 20 / 144. وعند السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص

369 كان البيت برواية (شادوا بذكرك) بدل (رفعوا محلك)

(4) دعبل: ديوانه. ص 69، 70.

ومن الصور السلبية كذلك ما نظمها هذا الشاعر من صور منفرة للخليفة على نحو ينفي عنه كل الصور الإيجابية، وفي يقول دعبل الخزاعي:

وسمّوا رشيداً ليسَ فيهم لرشدهِ
وهذا ذاك مأمونٌ وذاك أمينٌ
فما قبّلت بالرشدِ منهم رعايةَ
ولا لولي بالأمانة دينٌ
رشيدهم غاوٍ، وطفلاه بعده،
لهذا رزايما دون ذاك مجون⁽¹⁾
[الطويل]

ثالثاً: الصور الحيادية

ومن الأمثلة على الصور الحيادية، الصور التي أوردتها شعراء الزهد، عندما نفروا من الخلافة، وامتنعوا عن تقلد الوظائف العالية فيها، لأن متاع الدنيا زائل، ومن ذلك ما نظمها عبد الله بن المبارك في رسالة إلى صديق يلومه على تولي ديواني المظالم، يقول:

يا جاعِلَ الدينَ لَهُ بازيَا
يَصِيدُ بِهِ أَمْوَالَ الْمَسَاكِينِ
احْتَلَمْتُ لِلدُّنْيَا وَإِدَّتْهَا
بِحِيلَةٍ تَذْهَبُ بِالْـدِّينِ
فصرتَ مجنوناً بها بعدما
كتبتَ دواءً للمجذباتينِ
لا تَبِعَ الدينَ بالدُّنْيَا كَمَا
يَفْعَلُ ضُلَّالُ الرّهَابيينِ⁽²⁾
[السريع]

الجانب الثاني: خصائص الصور

أولاً: الصورة المتكاملة

من أبرز خصائص الصورة في مدح الخلفاء وتصوير الخلافة، هو ما يمكن أن يطلق عليه، الصورة المتكاملة؛ إذ يعتمد الشاعر إلى مدح الخليفة بكل معاني الفضيلة، ويخلع عليه كل الفضائل؛ فالخليفة من أصل كريم، وفي ذلك يقول الشاعر:

(1) دعبل: ديوانه، ص 152.

(2) عبد الله بن المبارك: المحتسب، ص 153.

مَلِكٌ تَفَرَّعَ نَبْعُهُ مِنْ هَاشِمٍ مَدَّ إِلَهُ عَلَى الْأَنْبَامِ ظِلَالَهَا⁽¹⁾
[الكامل]

والخليفة كذلك يحافظ على الدين، فهو حامي الأمة، والمدافع عن حرمان الله، يحيي السنن
ويحارب البدع، ومن ذلك قول الشاعر:

أَحْيَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ سُنَنَ النَّبِيِّ حَرَامَهَا وَحَلَالَهَا⁽²⁾
[الكامل]

وهو الوريث الحقيقي للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يقول الشاعر:

يَا ابْنَ الَّذِي وَرِثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا دُونَ الْأَقْرَابِ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ⁽³⁾
[الكامل]

وهو قريب الرسول صلى الله عليه وسلم، وابن عمه كذلك، وفي ذلك يقول علي بن الجهم:

بَارَكَ اللَّهُ لِلْخَلِيفَةِ فِي الْعِيْدِ دِوْفِي كُلِّ طَارِفٍ وَتَلِيدِ
صَفْوَةُ اللَّهِ وَابْنُ عَمِّ نَبِيِّ اللَّهِ هِ وَابْنُ الْمَهْدِيِّ وَابْنُ الرَّشِيدِ⁽⁴⁾
[الخفيف]

وهو فوق ذلك العليم ببواطن الأمور، بصير الفكر، ثاقب النظر، شجاع يفتك بالأعداء، وفي
ذلك يقول الشاعر:

لَمْ تَغْشَهَا مِمَّا تَخَافُ عَظِيمَةً إِلَّا أَجَالَ لَهَا الْأُمُورَ مَجَالَهَا
حَتَّى يُفَرِّجَهَا أَغْرُ مُبَارَكٌ أَلْفَى أَبَاهُ مُفَرِّجًا أَمْثَالَهَا
ثَبَّتْ عَلَى زَلَلِ الْحَوَادِثِ رَاكِبٌ مِنْ صَرْفِهِنَّ لِكُلِّ حَالٍ حَالَهَا

(1) المرزباني: معجم الشعراء. 99 / 1.

(2) المصدر السابق. 99 / 1.

(3) الأصفهاني: الأغاني. 220 / 13.

(4) ابن الجهم: ديوانه. ص 34، 35.

حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ أَوَائِلُ خَيْلِهِ جِيحَانٌ بَثَّ عَلَى الْعَدُوِّ رِعَالَهَا
أَدَمَتْ دَوَابِرَ خَيْلِهِ وَشَكِيمَهَا غَارَاتُهُنَّ وَأَلْحَقَتْ آطَالَهَا⁽¹⁾

[الكامل]

ثانياً: المبالغة في الصور: تبدو المبالغة في غير موطن، ومن مواطنها:

تصوير مبايعة الإنس والجن للخليفة، كناية عن اتفاق الناس عليه، وفي ذلك يقول سلم الخاسر
بمناسبة أخذ الرشيد البيعة للأمين:

قَدْ بَايَعَ الثَّقَلَانِ فِي مَهْدِي الْهُدَى لِمَحَمَّدِ بْنِ زَيْدَةَ ابْنَةَ جَعْفَرٍ⁽²⁾

[الكامل]

ومنها كذلك، المبالغة في تصوير كرم الخليفة ونوره، وفي ذلك قول الشاعر:

أَضَحَتْ يَمِينِكَ مِنْ جُودٍ مَصَوَّرَةً لَا بَلْ يَمِينِكَ مِنْهَا صُورُ الْجُودِ
لَوْ أَنَّ مِنْ نُورِهِ مِثْقَالَ خَرْدَلَةٍ فِي السُّودِ طَرّاً إِذْ لَابْيَضَّتِ السُّودُ⁽³⁾

[البيسيط]

فالشاعر يرى الجود مشتقاً من الشاعر لأنه جواد، وليس أن الخليفة جواد لأنه يتصف بالجود.
والشاعر بذلك يخالف طبيعة الواقع، بل يخالف طبيعة اللغة، عندما يرى الجود مشتقاً من الجواد وليس
العكس.

ومن المبالغة في إضفاء هالة من التقديس على الخليفة، أن الشاعر يكاد يرى الخليفة يستحق

العبادة، ومن ذلك قول الشاعر:

لَوْ يُعْبَدُ النَّاسُ يَا مَهْدِيَّ أَفْضَلَهُمْ مَا كَانَ فِي النَّاسِ إِلَّا أَنْتَ مَعْبُودٌ⁽⁴⁾

[البيسيط]

(1) المرزباني: معجم الشعراء. 1/ 99.

(2) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 100.

(3) المصدر السابق. ص 77. والأصفهاني: الأغاني. 16 / 29.

(4) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 77. والأصفهاني: الأغاني.

والمعروف في الدين أن العبادة لله وحده، ولكن تسابق الشعراء خلف الهبات والجوائز تدفعهم إلى ذلك.

وتصل المبالغة في مدح الخليفة درجة تدفع الشاعر إلى وصف الخليفة بكل الصفات الخلقية والخلقية الحسنة، بل يرى أن فضله على الناس أمر مسلم به وليس محط نقاش، ومن ذلك قول الشاعر:

وإلى أمير المؤمنين _____
جمَعَ الخِلافةَ والسَّما _____
مَلِكُ ضَرِيبَةٌ رَأْيُهُ _____
يَقْضِي أُمُورَ الْمُؤْمِنِي _____
قَالَتْ قُرَيْشٌ كُلُّهَا _____
وَخِيَارُ مَنْ وَطِئَ الحِصَى _____
فَضَلَ المُلُوكَ مُحَمَّد _____
نَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ الأَنام _____
حَاةَ وَالشَّجَاعَةَ فِي نِظام _____
أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ الحُسام _____
نَ بِرَأْيِ حَازِمٍ وَأَعْتِزام _____
وَهُمَ الكِرَامُ بَنُو الكِرَام _____
مِنْ بَيْنِ كَهْلٍ أَوْ غُلام _____
فَضَلَ الحَلاَلِ عَلى الحَرام⁽¹⁾

[مجزوء الكامل]

فهو خير الأنام، ويجمع الخلافة والسماحة والشجاعة، ورأيه قاطع كالسيف (غير متردد)، وهو حازم عازم، وفضله على الناس كفضل الحلال على الحرام.

ومن المبالغات ما قاله الشاعر في رثاء المنصور، حيث قال:

عَجَباً لِلذِي نَعَى النَّاعِيانِ _____
مَلِكٌ إِنْ غَدَا عَلى الدَّهْرِ يَوْمًا _____
لَيْتَ كَفًّا حَثَّتْ عَلَيْهِ تُرابًا _____
ذَهَبَتْ دُونَهُ النُّفُوسُ حِذارًا _____
كَيْفَ فَاهَتْ بِمَوْتِهِ الشُّفْتانِ _____
أَصْبَحَ الدَّهْرُ ساقِطًا لِلجِيرانِ _____
لَمْ تَعُدْ فِي يَمِينِها بِنانِ _____
غَيْرَ أَنَّ الأرواحَ فِي الأبدانِ⁽²⁾

[الخفيف]

(1) غرونيوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون. ص 114، 115.

(2) المصدر السابق. ص 117، 118.

وفي هذه الأبيات، يتعجب الشاعر من تجرؤ الناعي على إعلان وفاة الخليفة، ويدعو على الكف التي حثت عليه التراب، بل يورد في البيت الأخير مبالغة لا يتصورها العقل؛ فالنفوس قد ذهبت حزناً عليه ولكن الأرواح فيها، وكأنه يقول بأن الناس ماتوا حزناً عليه ولكنهم ظلوا أحياء! ومن المبالغة في الصور كذلك، المبالغة في الولاء للخليفة، من دون أدنى تفكير، ومن ذلك قول علي بن الجهم:

أَنْتُمْ خَيْرُ سَادَةٍ يَا بَنِي الْعَبَّاسِ سِ قَابِقُوا وَنَحْنُ خَيْرُ الْعَبِيدِ
 نَحْنُ أَشْيَاءُكُمْ مِنْ أَهْلِ خُرَّاسَا نَ أُولُو قُوَّةٍ وَبَأْسٍ شَدِيدِ
 إِنْ رَضَيْتُمْ أَمْرًا رَضِينَا وَإِنْ تَأْتَأ بُوَا أَبَيْتَنَا إِبَاءُضِ الْأَسْوَدِ
 حَسْبُنَا اللَّهُ وَالْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ دُ، وَمِنْ بَعْدِهِ وِلَاةُ الْعُهُودِ⁽¹⁾

[الخفيف]

فالشاعر هنا يعطي ولاء دائماً وغير مشروط لا للخليفة فحسب، بل لأولياء العهود من بعده، والغريب أن ولاءه هذا يمزجه بالفخر بقومه بأنهم أولو بأس شديد، ولا أدري كيف هم كذلك إذا كان شعارهم كما في ورد في البيت الثالث (إن رضيتم رضينا...)، علماً أن هذا الأمر منهي عنه في الدين، وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا. ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أسأؤوا فلا تظلموا"⁽²⁾.

ومن المبالغة في المدح، تشبيه الخلافة بالنبوة، وفي ذلك يقول مروان بن أبي الجنوب:

كَانَتْ خِلَافَةً جَعْفَرٍ كَنْبُوتٍ جَاعَتْ بِلا طَلَبٍ وَلَا بِتَنْحُلِ
 وَهَبَ الْإِلَهَ لَهُ الْخِلَافَةَ مِثْلَمَا وَهَبَ النَّبُوتَ لِلنَّبِيِّ الْمُرْسَلِ⁽³⁾

[الكامل]

(1) ابن الجهم: ديوانه. ص 34، 35.

(2) الترمذي: سنن الترمذي. ج 4/ ص 364.

(3) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك. ج 5/ ص 339. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1407هـ.

ثالثاً: هجاء الأعداء والخصوم

ويبلغ الولاء للخليفة حداً يدفع الشاعر إلى تبني مواقفه كلها، بل والوقوف معه ضد خصومه، فصارت من لوازم الولاء للخليفة هجاء الخصوم، وربما هجا الشاعر شخصاً كان بالأمس قد مدحه، ولكن الدنيا تتغير، فتتغير لذلك المواقف. ومن ذلك ما قاله علي بن الجهم في هجاء ابن أبي دؤاد لما أوقف المتوكل القول بخلق القرآن:

يا أحمدُ بنَ أبي دُؤادِ دَعوَةً بَعَثْتُ إِلَيْكَ جَنادِلاً وَحَدِيداً
ما هذهِ البِدْعُ التي سَمَّيْتَهَا بِالْجَهْلِ مِنْكَ الْعَدْلَ وَالْتَوْحِيداً
أَفْسَدْتَ أَمْرَ الدِّينِ حِينَ وَلَّيْتَهُ وَرَمَيْتَهُ بِأَبِي الْوَيْدِ وَلَيْدِ
لا مُحْكَمًا جَزَلاً ولا مُسْتَطَرَفًا كَهَلًا، ولا مُسْتَحَدَّثًا مُحْمُوداً⁽¹⁾

[الكامل]

وشببه بذلك شماتة مروان بن أبي الجنوب، بابن الزيات لما فتك به المتوكل، وكان ابن الزيات من الذين يتولون تعذيب الأئمة الذين لا يقولون بخلق القرآن، فلما قتل ابن الزيات، قال الشاعر:

وقيل لي الزياتُ لاقى حِمامَه فقلتُ أتاني اللهُ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ
لقد حفر الزياتُ بِالْبَغِيِّ حُفْرَةً فألقاه فيها اللهُ بِالْكَفْرِ وَالْغَدْرِ⁽²⁾

[الطويل]

ولما فتك المنصور بأبي مسلم الخراساني، سارع أبو دلامة إلى هجاء أبي مسلم والشماتة به، وفي ذلك يقول:

أبا مُجرِمٍ ما غَيَّرَ اللهُ نِعْمَةً عَلَيَّ عِبْدِهِ حَتَّى يُغَيِّرَها الْعَبْدُ
أبا مُجرِمٍ خَوَّفَتْنِي الْقَتْلَ فَاتَّحَى عَلَيْكَ بِما خَوَّفَتْنِي الْأَسَدُ الْوَرْدُ
أَفِي دَوْلَةِ الْمَهْدِيِّ حَاوَلْتَ غَدْرَةً أَلَا إِنَّ أَهْلَ الْغَدْرِ أَبَاؤُكَ الْكُرْدُ⁽³⁾

[الطويل]

(1) ابن الجهم: ديوانه. ص 125، 126.

(2) الأصفهاني: الأغاني. 218/23.

(3) أبو دلامة: ديوانه. ص 52.

رابعاً: الازدواجية في الصورة

ويقصد بها أن يمدح الشاعر الخليفة في موطن ويهجوهُ في موطن آخر، على نحو ما نجده عند شعراء الشيعة الذين ما انفكوا على ولاتهم للعلويين، ولكن الظروف السياسية، تدفع بعضهم إلى مدح الخليفة والتزلف إليه على سبيل التقية، وهو ما يظهر عند السيد الحميري، الذي مدح الخليفة المنصور بقوله:

إِنَّ إِلَهَ الَّذِي لَا شَيْءَ يُشْبِهُهُ أَعْطَاكُمْ الْمُلْكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ
أَعْطَاكُمْ اللَّهْتَ مُكَاً لَا زَوَالَ لَهُ حَتَّى يُقَادَ إِلَيْكُمْ صَاحِبُ الصِّينِ
وَصَاحِبُ الْهِنْدِ مَأْخُوداً بِرِمْتِهِ وَصَاحِبُ التَّرِكِ مَحْبُوساً عَلَى هُونِ⁽¹⁾

[البسيط]

ثم إنه يشدد النكير على الخلفاء العباسيين الذين تسموا بالمهدي والهادي، وهو يرى، على ما يبدو، أن هذه الأسماء حكر على العلويين، وفي ذلك يهجو العباسيين بقوله:

فَقُلْ لِلنَّاصِبِ الْهَادِي ضَالِلاً تَقُومُ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ غِنَاءُ
فِدَاءً لِابْنِ خَوْلَةَ كُلِّ نَذْلٍ يَطِيفُ بِهِ وَأَنْتَ لَهُ فِدَاءُ⁽²⁾

[الوافر]

المطلب الثاني: الصور الفنية والمحسنات البديعية

الصور الفنية:

ومنها صورة وضوح أحقية العباسيين في الخلافة كوضوح النجوم والقمر في السماء، وفي

ذلك يقول الشاعر:

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا بِأَكْفُكُمْ أَمْ تَسْتُرُونَ هِلَالَهَا⁽³⁾

[الكامل]

(1) السيد الحميري: ديوانه. ت شاكر هادي شكر. ص 444. ديوان السيد الحميري.

(2) ابن خولة هو محمد بن الحنفية، وخولة هي خولة بنت جعفر الحنفية. ص 50.

(3) مروان بن أبي حفصة: ديوانه. ص 99.

ومن ذلك قول سلم الخاسر:

فَضَلَ الْمُلُوكَ مُحَمَّدًا فَضَلَ الْحَلَالَ عَلَى الْحَرَامِ⁽¹⁾

[مجزوء الكامل]

صورة الخليفة في تفضيله على من سواه من الملوك، دون أدنى جهد لمن أراد الموازنة، كصورة
أفضلية الحلال على الحرام.

ومن ذلك قول الشاعر:

وَأَنْفَضَّتِ الْأَعْدَاءُ مِنْ حَوْلِهِ كَحُمْرٍ أَنْفَرَهَا قَسُورُ⁽²⁾

[السريع]

وهنا يصور الشاعر هروب الأعداء من الخليفة كهروب الحمر من الأسد.

ومن الصور كذلك، قول الشاعر:

يَدَاهُ فِي الْجُودِ ضَرَّتَانِ عَلَيْهِ كِلْتَاهُمَا تَغَارُ⁽³⁾

[مخلع البسيط]

وهنا يشبه اليمين بالضرتين اللتين تغار إحداهما من الأخرى.

ومن الصور كذلك، قول الشاعر:

إِذَا الْغَيْثُ أَكْدَى وَأَقْشَعَرَّتْ نُجُومُهُ فَعَيْثُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَطِيرُ⁽⁴⁾

[الطويل]

وهنا يصور الشاعر كرم الخليفة الرشيد بالغيوم الممطرة.

(1) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 114، 115.

(2) ابن الجهم: ديوانه . ص 73.

(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 396.

(4) النمري: ديوانه. ص 95.

ويلاحظ في الصور الواردة، هنا، أن الشعراء يعتمدون على التصوير السطحي المباشر، ويقفون في الصور الخيال البعيد أو المعاني الغامضة، ويبدو أن طبيعة هذا النمط من الشعر السياسي، ربما تدفع الشعراء إلى انتهاج السهولة أسلوباً لمخاطبة أكبر شريحة من المجتمع، والتأثير في آرائهم.

الكناية: هي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي.

ومنها قول الشاعر سلم الخاسر:

يَعُوذُ الْمُسْلِمُونَ بِحَقَوْتِيهِ إِذَا مَا كَانَ خَوْفٌ أَوْ رَجَاءٌ⁽¹⁾

[الوافر]

ويعوذ بحقوتيه (الحقوة الإزار) أي يعوذون به وهي كناية عن نسبة.

ومن الأمثلة على الكناية أيضاً، قول سلم الخاسر:

لَمَّا أَتَتْ خَيْرَ بَنِي هَاشِمٍ خِلَافَةَ اللَّهِ بِجَرَجَانٍ
شَمَّرَ لِلْحَزْمِ سِرَابِيلَهُ بِرَأْيٍ لَا عُمْرٍ وَلَا وَاتِي⁽²⁾

[السريع]

وشمر سراويله كناية عن الحزم والعزم، وهي كناية عن صفة.

ومن الأمثلة على الكناية كذلك قول الشاعر:

قَامَ وَأَهْلُ الْأَرْضِ فِي رَجْفَةٍ يَخْبِطُ فِيهَا الْمُقْبِلَ الْمُدْبِرُ⁽³⁾

[السريع]

وأهل الأرض في رجفة، كناية عن الظلام والظلم والخوف الذي بدده الخليفة، وهي كناية عن

صفة. ومن الأمثلة على الكناية كذلك، قول الشاعر:

(1) غرونهاوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 92.

(2) المصدر السابق. ص 117.

(3) ابن الجهم: ديوانه. ص 73.

مَنِيْعُ الحَمَى لَكِنَّ أَعْنَاقَ مَالِهِ يَظَلُّ النَّدى يَسْطُو بِهَا وَيَسُورُ⁽¹⁾
[الطويل]

ويقصد بمنيع الحمى، القوي العزيز، وهي كناية عن صفة.

الاستعارة: وهي لفظ استخدم في غير معناه لعلاقة المشابهة مع قرينة لفظية او معنوية تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، وهي نوعان : تصريرية ومكنية .

ومنها قول الشاعر:

أَحْيَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ سُنَنَ النَّبِيِّ حَرَامَهَا وَحَلَالَهَا⁽²⁾
[الكامل]

وهنا يشبه الشاعر السنن بالإنسان الذي يحيا، فحذف المشبه به وأبقى بعض لوازمه، وهي الحياة، فالاستعارة مكنية.

ومن الأمثلة على الاستعارة، قول الشاعر:

فَدَرُوا الْأَسْوَدَ خَوَادِرًا فِي غَيْلِهَا لَا تَوَلَّغْنَ دِمَاءَكُمْ أَشْبَالَهَا⁽³⁾
[الكامل]

وهنا يشبه خلفاء بني العباس بالأسود، فصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

المجاز المرسل:

ومن الأمثلة على المجاز المرسل قول الشاعر:

كَمْ فِي يَدَيْكَ مِنَ النَّدى وَضُرُوبِ أَلْوَانِ الحِمَامِ⁽⁴⁾
[الكامل]

(1) النمرى: ديوانه. ص 95.

(2) مروان بن أبي حفصة: ديوانه. ص 97.

(3) المصدر السابق. ص 99.

(4) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطبع بن إيباس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 114، 115.

فذكر اليدين لأنهما سبب في الكرم؛ فالعلاقة سببية. ومن الأمثلة على المجاز كذلك قول الشاعر:

يَدُكَ فِي رِقَابِ بَنِي عَلِيٍّ وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَنْ يَسِيرٍ⁽¹⁾

[الوافر]

وهنا مجاز مرسل علاقته سببية؛ لأن اليد سبب في العمل.

وبعد الاطلاع على الصور البيانية والمحسنات البديعية، نلاحظ أن الشعراء اقتصدوا في هذه الفنون البلاغية؛ فالموضوع المطروح ليس موضوعاً شخصياً ذاتياً يعمد الشاعر فيه إلى الخيال الواسع. كما يلاحظ في الصور الواردة، هنا، أن الشعراء يعتمدون على التصوير السطحي المباشر.

المبحث الثاني

الأسلوب واللغة

الأسلوب هو: "طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ، وتأليف الكلام، أو هو طريقة خلق الفكرة وتوليدها وإبرازها في الصورة اللفظية المناسبة"⁽²⁾. وسنحاول في هذا المبحث – إن شاء الله تناول الأسلوب من حيث النواحي الآتية:

أولاً: أسلوب الخطاب

تنوعت نبرة الخطاب في شعر الخلافة، تبعاً لتغير المواقف، أو قل تبعاً لتغير موقف الشاعر من الخلافة العباسية من جهة، أو تغير الفئة التي يخاطبها الشاعر من جهة ثانية. ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى أن التنوع في نبرة الخطاب تؤدي في محصلتها إلى التأثير في الملتقي، من خلال طرح الموضوع الواحد من مداخل عدة، حتى لا يبقى للسامع مجال للتردد أو الرفض.

(1) النمري: ديوانه. ص 85، 87.

(2) خفاجي، محمد عبد المنعم وزميله: الأسلوبية والبيان العربي. ط1. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة. 1992. ص 42.

ومن أساليب الخطاب في شعر الخلافة، أسلوب التقرير؛ حيث يميل الشاعر إلى طرح مواقفه أو أفكاره -إن كانت أفكاره حقاً- على أساس أنها حقائق مسلم في صحتها، ولا مجال إلى مناقشتها، فضلاً عن نفيها. ومن الأمثلة على هذا النوع من الخطاب ما نظمه الشاعر علي بن الجهم في قوله:

قَامَ وَأَهْلُ الْأَرْضِ فِي رَجْفَةٍ	يَخْبُطُ فِيهَا الْمُقْبِلُ الْمُدْبِرُ
فِي فِتْنَةٍ عَمِيَاءَ لَا نَارَهَا	تَخْبُؤُ وَلَا مَوْقِدَهَا يَفْتُرُ
كُلُّ حَتِيفٍ مِنْهُمْ مَسْلَمٌ	لِلْكَفْرِ فِيهِ مَنْظَرٌ مُنْكَرٌ
إِمَّا قَتِيلٌ وَإِمَّا أُسِيرٌ فَلَا	يُرْتَى لِمَنْ يُقْتَلُ أَوْ يُوسَرُ
فَأَمَرَ اللَّهُ إِمَامَ الْهُدَى	وَاللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ يُنْصَرُ
وَجَرَدَ الْحَقَّ فَأَشْجَى بِهِ	مَنْ كَانَ عَنْ أَحْكَامِهِ يَنْفِرُ
وَأَنْفَضَّتِ الْأَعْدَاءُ مِنْ حَوْلِهِ	كَحُمُرٍ أَنْفَرَهَا قَسُورُ
وَصَاحَ إِبْلِيسُ بِأَصْحَابِهِ	حَلَّ بِنَا مَا لَمْ نَزَلْ نَحْذَرُ
الرَّدَّةَ الْأُولَى تَنَى أَهْلَهَا	حَزْمُ أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ يَكْفُرُوا
وَهَذِهِ أَنْتَ تَلَافَيْتَهَا	فَعَادَ مَا قَدْ كَادَ لَا يُذْكَرُ
فَأَسْلَمَ لَنَا يَا خَيْرَ مُسْتَخْلَفٍ	مِنْ مَعْشَرٍ مَا مِثْلُهُمْ مَعْشَرُ ⁽¹⁾

[السريع]

وفي هذه الأبيات يورد الشاعر جملة من المزاعم وهي: أن الخليفة نهض بأعباء الخلافة بعد تردي الأحوال حسب ما فصلها، ثم قبض الله لهذا الخليفة السداد وألهمه الصواب، حتى وضع الأمور في نصابها، وجليل عمله في ذلك لا يمكن مقارنته إلا بما قام به أبو بكر من قضاء على فتنة الردة.

ومن الأمثلة كذلك على هذا النوع من الخطاب، قول الشاعر علي بن الجهم:

بَسُورٍ مَنْ رَأَى إِمَامًا عَدِلَ	تَعْرِفُ مِنْ بَحْرِهِ الْبِحَارُ
الْمُنْكَ فِيهِ وَفِي بَنِيهِ	مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

(1) ابن الجهم: ديوانه. جمع وتحقيق خليل مردم بيك. ص 73.

يُرْجَى وَيُخْشَى لِكُلِّ خَطْبٍ كَأَنَّهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ
يَدَاهُ فِي الْجُودِ ضَرَّتَانِ عَلَيْهِ كِلْتَاهُمَا تَغَارٌ
لَمْ تَأْتِ مِنْهُ الْيَمِينُ شَيْئاً إِلَّا أَتَتْهُ مِثْلُهُ الْيَسَارُ⁽¹⁾

[مخلع البسيط]

وفي هذه الأبيات يذكر الشاعر أن الخليفة في مقره بسامراء، وهو مرجع يرجع إليه في كل الأمور، وخلافته باقية أبد الدهر، وستنتقل إلى ولده، ثم إلى ولد ولده، وهو خليفة يرجى ويخشى، وهو كريم. ويورد هذه المزامع على أساس التقرير، دون أدنى محاولة لتفسير موقفه من ذلك، وكان ما يقوله حقائق مسلم بها.

وثاني أساليب الخطاب التي اعتمدها الشعراء أسلوب الحث والتحضيض، ومن ذلك ما قاله الشاعر الشيعي السيد الحميري، إذ يقول:

دُونِكَمَا يَا بَنِي هَاشِمٍ فَجِدُّوْا مِنْ عَهْدِهَا الطَّمَسَا
دُونِكَمَا لَا عِلَاكَ عِبْ مَنْ أَمْسَى عَلَيْكُمْ مَلَكُهَا مُنَافِسَا
دُونِكَمَا فَالْبَسُوا تَاجَهَا لَا تَعْدِمُوا مِنْكُمْ لِابِسَا
خِلَافَةُ اللَّهِ وَسُلْطَانَةُ وَعَنْصَرٌ كَانَ لَكُمْ دَارِسَا
قَدْ سَاسَهَا قَبْلَكُمْ سَاسَةٌ لَمْ يَتْرِكُوا رَطْبًا وَلَا يَابِسَا
لَوْ خَيْرَ الْمُنْبَرِ فُرْسَانُهُ مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسَا
فَلَسْتُ مَنْ أَنْ تَمْلِكُوهَا مَهْبَطُ عَيْسَى مِنْكُمْ آيسَا⁽²⁾

[السريع]

وفي هذه الأبيات، يحث الشاعر بني العباس على التمسك بالخلافة، وأنها حق من حقوقهم، بصيغة الأمر مستخدماً اسم فعل الأمر (دونك) مكرراً في الأبيات السابقة، موضعاً في البيت الأخير من أنه لا مناص لهم من ذلك. ويفسر الدكتور شوقي ضيف أشعار السيد الحميري هذه المؤيدة

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 396.

(2) السيد الحميري: ديوانه. ت شاكر هادي شكر. ص 258، 259.

للعباسيين، على أساس أنه من الشيعة الكيسانية التي لم تر بأساً في تولي العباسيين الخلافة طالما أنهم هاشميون، ولا سيما أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية قد تنازل لهم عنها⁽¹⁾.

ومن أساليب الخطاب كذلك، أسلوب الاستنكار؛ إذ يستنكر الشاعر مروان بن أبي حفصة أن يعارض قوم بني العباس، أو ينافسونهم في الخلافة، ويرد عليهم بقوله:

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا بِأَكْفَكُمْ أَمْ تَسْتُرُونَ هَلَالَهَا
أَمْ تَجْعَدُونَ مَقَالََةً عَنِ رَبِّكُمْ جَبْرِيْلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا⁽²⁾

[الكامل]

وفي هذين البيتين، يرى الشاعر أن أحقية بني العباس في الخلافة ثابتة، ولا مجال لمناقشتها، ويستنكر على الذين يناوئونهم، ويرى أن من ينكر أحقية بني العباس في الخلافة، كمن يحاول أن ينكر وجود النجوم والقمر في السماء، وهو محال، مشيراً إلى أنهم بذلك ينكرون آية من القرآن الكريم، ويعطلون حكماً شرعياً.

ومن الأمثلة كذلك على النوع من الخطاب، قول الشاعر نفسه، مستنكراً أن يدعو العلويون لواحد من أئمتهم ليكون خليفة، فيجيبهم قائلاً:

يا ابنَ الَّذِي وَرِثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا دُونَ الْأَقْرَابِ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ
الْوَحْيِ بَيْنَ بَنِي الْبَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ قَطَعَ الْخِصَامَ فَلَاتَ حِينَ خِصَامِ
مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيضَةٌ نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ
أَنْ يَكُونَ وَكَأَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنِ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ
أَلْغَى سِهَامَهُمُ الْكِتَابُ فَحَاوَلُوا أَنْ يَشْرَعُوا فِيهَا بَغَيْرِ سِهَامِ⁽³⁾

[الكامل]

(1) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول. ص 305 .

(2) مروان بن أبي حفصة: ديوانه. ت حسين عطوان. ط1. القاهرة: دار المعارف. ص 99.

(3) الأصفهاني: الأغاني. 13 / 220.

وفي هذه الأبيات، يرفض الشاعر أن تكون البنت وريثة من دون العم، وهذا مخالف للدين، فيطرح سؤالاً على سبيل الاستفهام الاستكاري قائلاً (أنى يكون)، وهو في رأيه لا يكون، ثم يوضح في الأبيات اللاحقة تفسيراً لحكمه هذا.

ومن أساليب الخطاب كذلك، أسلوب الأمر الذي يراد به التحقير، ومن ذلك قول الشاعر:

فَذَرُوا الْأَسْوَدَ خَوَادِرًا فِي غَيْلِهَا لَا تَوْلِغَنَّ دِمَاءَكُمْ أَشْبَالَهَا⁽¹⁾

[الكامل]

والشاعر بذلك، يأمر المنافسين للخليفة العباسي ألا يحاولوا منازعته، فهم ليسوا أهلاً لذلك.

ثانياً: أسلوب الاحتجاج العقلي، والحوار والمناقشة:

نظراً لأن هذا النمط من الشعر يمكن إدراجه ضمن الشعر السياسي، فإن الحاجة فيه تكون ماسة إلى إظهار الأدلة، والتسلح بالبراهين المنطقية، وطبعي من كل شاعر يتبنى مذهباً معيناً، أن يعمد إلى الدفاع عن مذهبه، وأن يحاول تجنيد الكثير من الأنصار له من خلال إقناع الناس بصواب رأيه أو إقناعهم بضلال الخصوم.

أدت هذه الأمور مجتمعة إلى أن يطغى جانب العقل على جانب العاطفة (وإن كانت العاطفة ضرورية)، في هذا الشعر. وإذا أردنا أن نستطلع آراء الشعراء؛ فإننا نجد شعراء يدافعون عن الحق العباسي في الخلافة، ويسوقون الأدلة على ذلك، وبالمقابل نجد شعراء يدافعون عن حق العلويين بالخلافة، وبين هذين الفريقين نجد شعراء آخرين يتزلفون إلى الخلفاء ويسوقون الأدلة على حقهم في الخلافة، دون أن يكون ذلك حقيقة موقفهم السياسي.

ومن الشعراء الذين دافعوا عن حق العباسيين في الخلافة، الشاعر مروان بن أبي حفصة الذي

يقول:

(1) ديوان مروان بن أبي حفصة. ص 99.

يا ابنَ الَّذِي وَرِثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا دُونَ الْأَقْرَابِ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ
الْوَحْيِ بَيْنَ بَنِي الْبَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ قَطَعَ الْخِصَامَ فَلَاتَ حِينَ خِصَامِ
مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيضَةٌ نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْأَعْمَامِ
أَنْيَ يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِثَةُ الْأَعْمَامِ
أَلْغَى سِهَامَهُمُ الْكِتَابُ فَحَاوَلُوا أَنْ يَشْرَعُوا فِيهَا بِغَيْرِ سِهَامٍ⁽¹⁾

[الكامل]

والشاعر في أبياته هذه، يتعامل مع قضية الخلافة على أساس أنها قضية ميراث، ينظر فيها في مضان كتب الفقه، التي تنص على أن العم وريث أقوى من البنت، دون أن يقدم أدنى سبب منطقي أو عقلي أو ديني على ذلك، ولا سيما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما اشتد عليه مرضه أوصى بأبي بكر ليصلي في الناس، وكان ذلك إحياء للناس اعتمدوا عليه في اختيار خليفة لرسول الله.

ومن الشعراء الذين دافعوا عن الحق العباسي، كذلك، الشاعر منصور النمري، إذ يقول:

وَمِنْ إِمَامِ الْهُدَى الْمَنْصُورِ يَلْحَقُهُ قَهْرُ الْأُمُورِ وَحَزْمٌ حِينَ يُقْتَرَعُ
وَتَشْبَهُ الْقَائِمِ الْمَهْدِيِّ مَرْحَمَةٌ مِنْهُ وَبَحْرُ نَوَالٍ حِينَ يُنْتَجَعُ
يَا بَنَ الْأَيْمَةِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ وَيَا بَنَ نَ الْأَوْصِيَاءِ أَقْرَّ النَّاسُ أَوْ دَفَعُوا
إِنَّ الْخِلَافَةَ كَانَتْ إِرْثًا وَالِدِكُمْ مِنْ دُونَ تَيْمٍ وَعَفْوُ اللَّهِ مُتَسَعُ
وَمَا لَالٍ عَلَيَّ فِي إِمَارَتِكُمْ حَقٌّ وَمَا لَهُمْ فِي إِرْثِكُمْ طَمَعُ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَعَزُّبْ عُقُولَكُمْ وَلَا تُضَيِّفْكُمْ إِلَى أَكْنَافِهَا الْبِدْعُ
الْعَمُّ أَوْلَى مِنْ ابْنِ الْعَمِّ فَاسْتَمِعُوا قَوْلَ النَّصِيحِ فَإِنَّ الْحَقَّ يُسْتَمَعُ⁽²⁾

[البيسط]

والشاعر، هنا، يقرر أن الخلافة من حق العباسيين دون العلويين، علماً أن هذا الشاعر مكن شعراء الشيعة، ويفسر ذلك الدكتور شوقي ضيف بقوله: "أما شعراء الإمامية، فقد وجدوا أمامهم فسحة

(1) الأصفهاني: الأغاني. 13 / 220.

(2) النمري: ديوانه. ص 97، 103.

كي ينافقوا العباسيين، وكي يظهرُوا غير ما يبطنون، لمبدأ النقية المشهور الذي كان يأخذ به الشيعة الإمامية من اثني عشرية وإسماعيلية، ومن ثم رأيناهم يمدحون خلفاء بني العباس، يسترون بذلك حقائقهم، على نحو ما هو معروف عن منصور النمري⁽¹⁾.

وهناك شعراء دافعوا عن الحق العلوي بالخلافة، وساقوا أدلتهم على ذلك، ومنهم الشاعر السيد الحميري الذي يقول:

صَحَّ قَوْلِي بِالْإِمَامَةِ وَتَعَجَّأْتُ السَّلامَةَ
وَأَزَالَ اللَّهُ عَنِّي، إِذْ تَجَعَّفَ رَتِّ، الْمَلَامَةَ
قُلْتُ مِنْ بَعْدِ حُسَيْنٍ بَعْلِي ذِي الْعَلَامَةِ⁽²⁾
[مجزوء الرمل]

ومن أشعاره في أحقية العلويين في الخلافة، قوله:

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَوَلَاةَ الْحَقِّ، أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ⁽³⁾
عَلِيٍّ وَالثَّلَاثَةِ مِنْ بَنِيهِ هُمْ أَسْبَابُهُ وَالْأَوْلِيَاءُ
فَأَنَّى فِي وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ يَكُونُ الشَّكُّ مِنَّا وَالْمِرَاءُ
بِهِمْ أَوْصَاهُمْ وَدَعَا إِلَيْهِمْ جَمِيعُ الْخَلْقِ لَوْ سَمِعَ الدُّعَاءُ
فَسَبَطُ سَبْطِ إِيْمَانٍ وَحَلْمٍ وَسَبَطُ غَيْبَتِهِ كَرِبْلَاءُ
وَسَبَطُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودُ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللِّوَاءُ⁽⁴⁾
[الوافر]

وهكذا، تعامل شعراء الأحزاب والفرق مع موضوع الخلافة على أساس أنه قضية ميراث، ينظر إليها في باب المواريث في الشريعة، علماً أن الشريعة لها رأيها الواضح في أسلوب اختيار الخلافة، وفي شروطه ومقوماته، ومهامه وحقوقه.

(1) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول. ص 305.

(2) ديوان السيد الحميري. ص 409.

(3) هم علي بن أبي طالب، وأبناء الحسن والحسين، وابنه محمد بن الحنفية.

(4) ديوان السيد الحميري. ص 51.

ثالثاً: أسلوب الشعر من حيث التقليد والتجديد

من المعروف أن الشعر العربي بداية العصر العباسي، ونتيجة لظروف سياسية واجتماعية وثقافية، قد طرأ عليه تطور في الموضوعات والأساليب على حد سواء، ويذكر الدكتور شوقي ضيف إنه شاع في العصر العباسي أسلوب جديد في الشعر عرف بأسلوب المولدين، وهو "أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية والنحوية، ويلتزم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة، بحيث تنفى عنه ألفاظ العامة المبتذلة، كما تنفى عنه ألفاظ البدو الحوشية"⁽¹⁾. وسنحاول في هذه السطور استشراف نواحي الحداثة في أسلوب الشعراء في شعر الخلافة.

ومن معالم التجديد في هذا الشعر اعتماد الأوزان القصيرة السهلة والمجزوءة، ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر سلم الخاسر:

وَإِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ	نَ مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ
جَمَعَ الْخِلَافَةَ وَالسَّيْمَةَ	حَاةً وَالشَّجَاعَةَ فِي نِظَامِ
مَلِكٍ ضَرِيْبَةٍ رَأْيِهِ	أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ الْحَسَامِ
يَقْضِي أُمُورَ الْمُؤْمِنِينَ	نَ بِرَأْيِ حَزْمٍ وَاعْتِزَامِ
قَالَتْ قُرَيْشٌ كُلُّهَا	وَهُمُ الْكِرَامُ بَنُو الْكِرَامِ
وَخِيَارُ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى	مِنْ بَيْنِ كَهْلٍ أَوْ غُلَامِ
فَضَلَ الْمُلُوكَ مُحَمَّدٌ	فَضَلَ الْحَلَالَ عَلَى الْحَرَامِ
فَأَسْلَمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ	نَ فَأَنْتَ رَهْنٌ بِالسَّلَامِ
كَمْ فِي يَدَيْكَ مِنَ النَّدَى	وَضُرُوبِ أَلْوَانِ الْحِمَامِ ⁽²⁾

[مجزوء الكامل]

وينظم الشاعر هذه القصيدة على مجزوء الكامل، ومن الملاحظ فيها أن ألفاظها سهلة معروفة بسيطة، وتقترب في بساطتها من لغة الحياة اليومية، كما تقوم هذه القصيدة على وحدة الموضوع؛ إذ

(1) ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول. ص 146.

(2) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطبع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 114، 115.

إن هناك ارتباطاً بين طول القصيدة من جهة، وبين بحرهما وتنوع موضوعاتها من جهة أخرى. ولو نظرنا في قصيدة أخرى على مجزوء الكامل كذلك، وهي للشاعر أبي دلامة الذي يقول:

إِنِّي رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَا م وَأَنْتَ تُعْطِينِي خِيَارَهُ
مَمْلُوءَةً بِدِرَاهِمٍ وَعَلَيْكَ تَفْسِيرُ الْعِبَارَةِ⁽¹⁾

[مجزوء الكامل]

ومن الواضح جداً بساطة ألفاظ الشاعر وسطحية أفكاره في هذين البيتين.

ومن الشعراء الذين أولعوا بالتجديد الشاعر أبو العتاهية الذي اعتمد البساطة والسهولة في موضوعاته الشعرية جميعاً حتى في المديح، فإنه لم يلجأ إلى تقليد فحول الشعراء السابقين، ومن الأمثلة على ذلك قوله:

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَدْيَالُهَا
وَلَمْ تَكُ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرَهُ نَزَلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالُهَا
وَإِنَّ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَغْضٍ لَا إِلَيْهِ لِيُبْغِضُ مِنْ قَالِهَا⁽²⁾

[المتقارب]

وبالنظر في هذه الأبيات نجد أن هذه القصيدة قليلة الأبيات وجاءت على بحر المتقارب، وامتزت بألفاظها السهلة ومعانيها المباشرة الواضحة. ولا شك أن هذا أسلوب أبي العتاهية حتى قيل عنه: "والسهولة في الصياغة والتراكيب وقرب المعاني من الإفهام في شعر أبي العتاهية سماها الباحثون — الشعبية — لأنه موجه للجماهير عموماً"⁽³⁾.

(1) أبو دلامة: ديوانه. ص 61.

(2) أبو العتاهية: ديوانه. جمعه أحد الأدباء اليسوعيين. مطبعة الآباء اليسوعيين. بيروت. 1886م. ص 309.

(3) جامعة القدس المفتوحة: نصوص شعرية (2) ص. 35.

ويعلق شوقي ضيف هذه القصيدة بقوله: "فإن أبا العتاهية يخطو للأمام خطوة بمدائحه إذ ينتحى عن الصحراء والأطلال، إلا ما قد يأتي عرضاً، وأيضاً فإنه لا يتمسك غالباً بالأسلوب القديم الجزل الرصين"⁽¹⁾.

على أن هذا العصر شهد صراعاً بين القديم والجديد، وإذا رأينا معالم التجديد واضحة لدى أبي العتاهية على سبيل المثال، فإن هذه القاعدة لم تنسحب طراً على الشعراء جميعاً فهذا أبو نواس حافظ على أسلوبه الجزل الفخم في موضوعي المديح والثناء، وكان مجدداً في موضوع الخمرة مثلاً. وما يهمننا هنا أشعاره في الخلافة والخليفة مادحاً كان أم راثياً، فإنه كان في هذه وتلك سائراً على نهج السابقين في الجزالة والرصانة. وبالنظر في ديوانه في المدائح مثلاً، نجد أنه نهج القدماء في البدء بالأطلال⁽²⁾.

ومن مدائحه التي استعطف بها الخليفة الأمين يقول أبو نواس:

تَذَكَّرُ أَمِينَ اللَّهِ - وَالْعَهْدُ يَذَكُرُ - مَقَامِي، وَإِنشَادِيكَ وَالنَّاسُ حُضَّرُ
وَتَثْرِي عَلَيَّكَ الدُّرَّ يَا دَرَّ هَاشِمِ فَيَا مَنْ رَأَى دُرّاً عَلَى الدُّرِّ يُنْثَرُ
أَبُوكَ الَّذِي لَمْ يَمْلِكْ الأَرْضَ مِثْلَهُ وَعَمُّكَ مُوسَى الصَّفْوَةَ الْمُتَخَيَّرُ
وَجَدُّكَ مَهْدِيَّ الهُدَى وَشَقِيقُهُ أَبُو أَمِّكَ الأَدْنَى، أَبُو الفَضْلِ جَعْفَرُ
وَمَنْ قَبْلُ مَنْصُورِيكَ: مَنْصُورِ هَاشِمِ وَمَنْصُورِ قحطَانٍ إِذَا عُدَّ مَفْخَرُ⁽³⁾

[الطويل]

وفي هذه الأبيات يتضح ما يتصف به أسلوب الشاعر من جزالة في اللفظ وفخامته، وهو بذلك ينهج نهج القدماء، كما أن هذه الأبيات جاءت على البحر الطويل.

أما رثاء أبي نواس للأمين فكان تقليدياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وفي ذلك يقول:

طَوَى المَوْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَآيَسَ لَمَّا تَطَوَّى المَنِيَّةَ نَاشِرُ

(1) ضيف: تاريخ الأدب العربي. ص 245.

(2) أبو نواس: ديوانه. ص 58 وما بعدها.

(3) المصدر السابق. ص 106.

فَلَا وَصَلَ إِلَّا عِبْرَةً تَسْتَدِيمُهَا أَحَادِيثُ نَفْسٍ مَا لَهَا الدَّهْرَ ذَاكِرُ
وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحَدُهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحَاذِرُ
لَنْ عُمِرْتُ دُورٌ بِمَنْ لَا أُوْدُهُ فَقَدْ عُمِرْتُ مِمَّنْ أَحَبُّ الْمَقَابِرِ⁽¹⁾

[الطويل]

جزالة الألفاظ في هذا الرثاء، الذي جاءت أبياته على البحر الطويل. ويرى الدكتور شوقي ضيف أن أبا نواس كان "يتوقر في شعره الرسمي، ويختار له إطاراً جزلاً قوياً متيناً، يقدم له بوصف الصحراء، على طريقة القدماء"⁽²⁾.

أما الشاعر مروان بن أبي حفصة، فقد كانت مدائحه في الخليفة تقليدية، ومنها قصيدته التي

مطلعها:

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خَيَالَهَا بِيَضَاءِ تَخْلِطُ بِالْحَيَاءِ دَلَالَهَا⁽³⁾

[الكامل]

وقد بدأ الشاعر قصيدته هذه بالوقوف على الأطلال، ثم ولج في موضوع القصيدة وهو المديح، وقد جاءت قصيدته في نحو من (38) بيتاً من الشعر، لذا أمكن عدها من الشعر التقليدي الذي يتبع نهج القدماء، وبخاصة أنها لم تكن مجزوءة الوزن وإنما جاءت على البحر الكامل.

ومن الأمثلة على الشعر التقليدي كذلك قصيدة البحترى في وصف بركة المتوكل ومدح

الخليفة، ومطلعها:

مِيلُوا إِلَى الدَّارِ مِنْ لَيْلَى نُحْيِيهَا نَعَمْ وَنَسْأَلُهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِهَا⁽⁴⁾

[البسيط]

وتتنوع الموضوعات في هذه القصيدة التي جاءت على البحر الكامل، وبلغ عدد أبياتها حوالي

(40) بيتاً، ومن موضوعاتها: المقدمة الغزلية، ثم وصف البركة، ويختتمها بمدح الخليفة المتوكل.

(1) أبو نواس: ديوانه. ص 129.

(2) ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ص 162.

(3) ديوان مروان بن أبي حفصة. ص 96.

(4) البحترى: ديوانه. 1/ 16.

وهكذا، فإن أغلب الشعر الذي نظم في موضوع الخلافة، كان تقليدياً نظراً لأن قضية الشعر المحدث لم تكن راسخة بين الشعراء جميعاً.

رابعاً: أسلوب الموازنة

من الأساليب التي انتهجها الشعراء في موضوع الخلافة، أسلوب الموازنة؛ فقد كان الشعراء يحرصون على مدح الخليفة الجديد، حتى أثناء رثائهم للخليفة المتوفى، وقد سبقت الإشارة إلى أن المنصور غضب لما رثى أبو دلامة أبا العباس السفاح من دون أن يشير ببيت واحد من المديح له. ومن أجل ذلك حاول بعض الشعراء إظهار براعتهم في الموازنة بين التعزية والتهنئة، من خلال الجمع بين موضوعي الرثاء والمديح، وشيخهم في هذا الميدان أبو دلامة الذي يقول:

عينان: واحدة تُرى مسرورةً	بإمامها جذلي وأخرى تذرفُ
تبكي وتضحك مرةً ويسوؤها	ما أبصرت ويسرُّها ما تعرفُ
فيسوؤها موت الخليفة محرماً	ويسرُّها أن قام هذا الأرفُ
هالك الخليفة يا لأمة أحمد	فأتاكم من بعده من يخلفُ
أهدى لهذا الله فضل خلافة	ولذاك جنات النعيم تزخرفُ
فابكوا لمصرع خيركم ووليكم	واستشرفوا لمقام ذا وتشرفوا ⁽¹⁾

[الكامل]

وقد نظم الشاعر هذه القصيدة بعد موت المنصور وتولي المهدي من بعده، وقد حرص على إبراز الرثاء والمديح في كل بيت من الأبيات على نحو ما ورد.

وعلى الجانب الآخر، نجد بعض الشعراء المعارضين للخلافة العباسية يجمعون بين هجاء الخليفة السابق والخليفة الجديد، على نحو ما نجده عند الشاعر دعبل الخزاعي، فإنه لما مات المعتصم وخلفه الواثق قال:

(1) أبو دلامة: ديوانه. ص 82، 83.

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا صَرَ وَلَا جَدُّ وَلَا عَزَاءُ إِذَا أَهْلُ الْبِلَا رَقَدُوا
 خَلِيفَةٌ مَاتَ لَمْ يَحْزَنْ لَهُ أَحَدٌ وَأَخْرَ قَامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أَحَدٌ
 فَمَرَّ هَذَا وَمَرَّ الشُّؤْمُ يَتَّبِعُهُ وَقَامَ هَذَا فَقَامَ الظُّلْمُ وَالنَّكَدُ⁽¹⁾

[البسيط]

وهكذا، نجد الشاعر قد ذم الاثنتين معاً في كل بيت من أبياته.

أما عند شعراء الزهد، فقد انشغلوا عن الخلافة، مهتمين بالعبادة والجهاد، وقد عمد شاعرهم عبد الله بن المبارك إلى الموازنة بين حياة العابد في المسجد، وحياة المجاهد المرابط على الثغور، وذلك في الرسالة الشعرية التي بعث بها إلى الفضيل بن عياض، ويقول فيها:

يا عَابِدَ الْحَرَمِينَ لَوْ أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
 مَنْ كَانَ يَخْضِبَ جِيدَهُ بِدُمُوعِهِ فَنَحُورِنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
 أَوْ كَانَ يُتَعَبُ خَيْلُهُ فِي بَاطِلٍ فَخَيْوَلِنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ
 وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالٍ نَبِيكُمُ قَوْلٌ صَاحِحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
 لَا يَسْتَوِي غِبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي أَنْفِ امْرِئٍ، وَدُخَانِ نَارٍ تَلْهَبُ
 هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ، لَا يَكْذِبُ⁽²⁾

[الكامل]

وفي هذه الأبيات يوازن الشاعر بين نمطي حياة، تاركاً للقارئ الحكم.

خامساً: الأفكار ومصادرها

بالنظر في أشعار الخلافة، نجد أن معاني هذه الأشعار وأفكارها قد استمدت من واقع الحياة السياسية والعقلية في العصر العباسي خلال القرنين: الثاني والثالث الهجريين. ونظراً للثراء الفكري والعقلي الذي ساد في هذا العصر، فإن الأفكار قد استمدت من عناصر متعددة، وقد تبين أثر ذلك في الشعر.

(1) دعل: ديوانه، ص 59.

(2) عبد الله بن المبارك، ص 153.

ومن مصادر الأفكار الدين الإسلامي؛ حيث استمد الكثير من الشعراء أفكارهم ومعانيهم من واقع الحياة الدينية، واستدلوا على موقفهم بآيات قرآنية، وأحاديث شريفة، ناهيك من الكثير من الألفاظ الذي كان الدين الإسلامي مصدراً لها. ومن ذلك قول سلم الخاسر:

لَقَدْ فَازَ مُوسَى بِالْخِلَافَةِ وَالْهُدَى وَمَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ⁽¹⁾
فَمَاتَ الَّذِي عَمَّ الْبَرِّيَّةَ فَقَدُهُ وَقَامَ الَّذِي يَكْفِيكَ مَنْ يَتَفَقَّدُ⁽²⁾

[الطويل]

ويظهر في هذين البيتين ألفاظ مستمدة من الشريعة الإسلامية، كألفاظ: الخلافة، والهدى، وأمير المؤمنين، البرية.

ويقول الشاعر نفسه أيضاً:

فَهُوَ الْخَلِيفَةُ عَنْ أَبِيهِ وَجَدَّهُ شَهِدَا عَلَيْهِ بِمَنْظَرٍ وَبِمَخْبَرٍ
قَدْ بَايَعَ الثَّقَلَانِ فِي مَهْدِي الْهُدَى لِمُحَمَّدِ بْنِ زُبَيْدَةَ ابْنَةَ جَعْفَرٍ
وَلِيَّتَهُ عَهْدَ الْأَتَامِ وَأَمْرَهُمْ فَدَمَعْتَ بِالْمَعْرُوفِ رَأْسَ الْمُنْكَرِ⁽³⁾

[الكامل]

ومن الألفاظ الإسلامية الواردة هنا: الثقلان، والمعروف، والمنكر.

وترد ألفاظ أخرى عند الشعراء؛ كالحلال والحرام، ومن ذلك قول الشاعر:

فَضَّلَ الْمَلُوكَ مُحَمَّدٌ فَضَّلَ الْحَلَالَ عَلَى الْحَرَامِ⁽⁴⁾

[مجزوء الكامل]

(1) موسى هو اسم الخليفة الملقب بالهادي.

(2) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 96.

(3) المصدر السابق. ص 100.

(4) المصدر السابق. ص 114، 115.

وترد ألفاظ إسلامية أخرى تعبر عن قضايا إسلامية كالردة مثلاً، ومن ذلك قول الشاعر علي

بن الجهم:

الرَّدَّةُ الْأَوْلَى ثَنَى أَهْلَهَا حَزْمُ أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ يَكْفُرُوا
وَهَذِهِ أَنْتَ تَلَايْتَهَا فَعَادَ مَا قَدْ كَادَ لَا يُذَكَّرُ⁽¹⁾
[السريع]

ومن مصادر اشتقاق الأفكار كذلك، المذاهب الكلامية والمعتزلة، حيث وردت كثير من الألفاظ

ذات الصلة بهم، ومن ذلك قول الشاعر:

يَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ دَعْوَةٌ بَعَثْتُ إِلَيْكَ جَنَادِلًا وَحَدِيدًا
مَا هَذِهِ الْبِدْعُ الَّتِي سَمَّيْتَهَا بِالْجَهْلِ مِنْكَ الْعَدْلُ وَالتَّوْحِيدُ⁽²⁾
[الكامل]

ووردت في هذين البيتين ألفاظ المعتزلة؛ كالعدل، والتوحيد، وهما من المبادئ التي قام عليها

المذهب الاعتزالي. كما وردت كلمة النظير، وهي من ألفاظ المتكلمين، ومن ذلك ما قاله أبو نواس في

مدح الأمين، حيث يقول:

أَلَا يَا خَيْرَ مَنْ رَأَتْ الْعُيُونَ نَظِيرُكَ لَا يَحْسُ وَلَا يَكُونُ⁽³⁾
[الوافر]

ومن مصادر اشتقاق الأفكار المذهب الشيعي، حيث وردت ألفاظ كثيرة ومصطلحات عدة

يستخدمها الشيعة ومن ذلك قول السيد الحميري:

أَلَا إِنَّ الْأَمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ نَ وَالْأَمَّةَ الْحَقُّ، أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلِيٍّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمْ أَسْبَاطُهُ وَالْأَوْلِيَاءُ

(1) ابن الجهم: ديوانه. ص 73.

(2) المصدر السابق. ص 125، 126.

(3) أبو نواس: ديوانه. ص 116.

فَأَنَّى فِي وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ يَكُونُ الشُّكُّ مِنَّا وَالْمِرَاءُ
بِهِمْ أَوْصَاهُمْ وَدَعَا إِلَيْهِمْ جَمِيعُ الْخَلْقِ لَوْ سَمِعُوا الدُّعَاءُ
فَسَبَطَ سَبَطَ إِيمَانٍ وَحَلْمٍ وَسَبَطَ غَيْبَتَهُ كَرِبْلَاءُ
وَسَبَطَ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودُ الْخَيْلَ يَقْدِمُهَا اللِّوَاءُ⁽¹⁾

[الوافر]

وفي هذه الأبيات يحدد الأئمة ويذكرهم واحداً واحداً. ومن ذلك قول الشاعر كذلك:

سَمِي نَبِيْنَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ سِوَاهُ فَعَنْدَهُ حَصَلَ الرَّجَاءُ⁽²⁾
تَغَيَّبَ غَيْبَةً مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ وَلَا قَتْلٍ وَسَارَ بِهِ الْقَضَاءُ
وَبَيْنَ الْوَحْشِ يَرَعَى فِي رِيَاضٍ مِنَ الْآفَاقِ مَرْتَعَهَا خَلَاءُ⁽³⁾

[الوافر]

وفي هذه الأبيات يشير إلى آخر إمام من أئمة الشيعة الذي دخل سرداباً واختفى وأنه يعيش مع

الوحش، وهو لم يموت بعد. ويكثر ذكر الأئمة في شعر الشيعة ومن ذلك قول دعبل:

يَا أَحْمَدُ بَنَ أَبِي دُوَادٍ دَعْوَةٌ أَحِبَّايَ مَا عَاشُوا وَأَهْلُ ثِقَاتِي
مَا هَذِهِ الْبِدْعُ الَّتِي سَمَّيْتَهَا وَزِدْ حُبَّهُمْ يَا رَبِّ فِي حَسَنَاتِي
أَلَمْ تَرَ أَنِّي مِنْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً أَرْوَحُ وَأَغْدُو دَائِمَ الْحَسَرَاتِ
أَرَى فِيئَهُمْ فِي غَيْرِهِمْ مُنْقَسَمًا وَأَيْدِيَهُمْ مِنْ فِيئِهِمْ صَفَرَاتِ
وَلَوْلَا الَّذِي أَرْجُوهُ فِي الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ تَقَطَّعَ قَلْبِي إِثْرَهُمْ حَسَرَاتِ
خُرُوجِ إِمَامٍ لَا مَحَالَةَ خَارِجٍ يَقُومُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتِ
يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَيُجْزِي عَلَى النِّعْمَاءِ وَالنَّقَمَاتِ⁽⁴⁾

[الطويل]

(1) السيد الحميري: ديوانه. ص 51.

(2) المذهب الكيساني يرى رجعة محمد بن الحنفية إلى الدنيا وكان السيد يعتقد أنه لم يموت وأنه في جبل رضوى بين أسد ونمر يحفظانه وعنده عينان نضاختان يجريان بماء وعسل ويعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً .

(3) السيد الحميري: ديوانه. ص 49، 50.

(4) دعبل: ديوانه. ص 42.

سادساً: الألفاظ والمعاني

من أبرز الملاحظات التي تطالع القارئ لشعر الخلافة في العصر العباسي، طابع السهولة والشعبية والبساطة في هذا الشعر؛ فنادرًا ما يحتاج القارئ إلى معجم ليستخرج منه معنى مبهمًا، أو يستوضح منه تركيباً صعباً.

ومن الطبيعي أن يكون شعر الخلافة بهذه الصفة، طالما أنه شعر سياسي موجه لكل الناس بهدف التأثير فيهم، وتوجيههم للوجهة التي يريدها الشاعر، فليس الشعر والحالة تلك موجهاً لفئة خاصة من الناس حتى يكون خاصاً في ألفاظه ومعانيه وأفكاره وصوره وأساليبه. ومن أبرز الأشعار التي تتصف بالسهولة واليسر، أشعار أبي العتاهية، ومنها قصيدته التي مدح فيها الخليفة بقوله:

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تُجْرِرُ أَدْيَالَهَا
وَلَمْ تَكُ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرَهُ نَزَلَتْ الْأَرْضُ لَزَالَهَا
وَإِنَّ الْخِلِيفَةَ مَنْ بَغِضَ لَا إِلَيْهِ لِيَبْغِضُ مَنْ قَالَهَا⁽¹⁾

[المتقارب]

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن الشاعر "يختار لمديحه أسلوباً خفيفاً يجعله قريباً إلى النفوس، وهو في ذلك يخطو بعد بشار خطوة، فقد كان بشار يحافظ في مدائحه على الأسلوب الجزل القوي، وكذلك كان يصنع أبو نواس غالباً، أما أبو العتاهية فالترزم هذا الأسلوب اليسير لا في غزلياته شأن أبي نواس، بل أيضاً في مدائحه، وهي سهولة تفتن بموسيقا صافية حلوة"⁽²⁾.

ومن السمات المتعلقة بالصياغة كذلك، وضوح المعاني وقربها من الأفهام؛ فشعر الخلافة في الأعم الأغلب يتسم بالوضوح في تراكيبه ومعانيه، ومن الأمثلة على ذلك، قول مروان بن أبي حفصة:

(1) أبو العتاهية: ديوانه . ص 309

(2) ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ص 169.

عُقِدَتْ لِمُوسَى بِالرِّصَافَةِ بَيْعَةً شَدَّ الْإِلَهُ بِهَا عُرَى الْإِسْلَامِ
مُوسَى الَّذِي عَرَفَتْ قُرَيْشٌ فَضْلَهُ وَ لَهَا فَضِيلَتُهَا عَلَى الْأَقْوَامِ
بِمُحَمَّدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ حَيِّ الْحَلَالِ وَمَاتَ كُلُّ حَرَامٍ
مَهْدِي أُمَّتِهِ الَّذِي أُمِّسَتْ بِهِ لِلنُّزْلِ أَمْنَةً وَ لِلْإِعْدَامِ
مُوسَى وَلِي عَهْدُ الْخِلَافَةِ بَعْدَهُ جَعَّتْ بِذَلِكَ مَوَاقِعَ الْأَقْلَامِ⁽¹⁾

[الكامل]

فالألفاظ في هذه الأبيات تشرح نفسها بنفسها، ولا داعي للبحث عن معانٍ لها، وهي بساطة تدفع بالشعر إلى الاقتراب من لغة الحياة اليومية، وبالرجوع إلى الأشعار الواردة في الفصل الأول من هذه الدراسة يظهر لنا صدق هذا الرأي، اللهم إلا من أشعار لأبي نواس نظمها في المديح والرثاء، وحرص أن يتبع فيها أساليب القدماء على نحو ما أشرنا.

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 317.

المبحث الثالث

الموسيقا الشعرية

المطلب الأول: الموسيقا الخارجية

أولاً: الوزن العروضي

يرى بعض الباحثين "أن البحر الطويل قد نُظِمَ منه ما يقرب من ثلث الشعر العربي، وأنه الوزن الذي كان القدماء يؤثرونه على غيره، ويتخذونه ميزاناً لأشعارهم، ولا سيما الأغراض الجدّيّة، الجليّة الشأن، وهو لكثرة مقاطعه؛ يتناسب وجمال مواقف المفاخرة، والمهاجاة، والمناظرة، تلك التي عُنِيَ بها الجاهليون عناية كبيرة... ثم نرى كلاً من الكامل والبسيط، يمثل المرتبة الثانية في نسبة الشيوخ، وربما جاء بعدهما كل من الوافر والخفيف. وتلك هي البحور الخمسة التي ظلت في كل العصور موفورة الحظ، يطرقها كل الشعراء، ويكثرون النظم منها، وتألّفها آذان الناس في بيئة اللغة العربية"⁽¹⁾. وعن البحر الطويل يقول الدكتور أحمد الشايب: إن البحر الطويل "يتسع لكثير من المعاني"⁽²⁾.

وهكذا، نجد أن البحور الأكثر استعمالاً في العصور القديمة، هي: الطويل، والبسيط، والكامل، والخفيف، والوافر. ومما لا شك فيه أن هناك ارتباطاً بين البحر العروضي، والموضوع الشعري المطروق، وإن كان هذا الارتباط يختلف على تقدير حجمه الباحثون؛ فيميل بعضهم إلى تقرير الموسيقا الداخلية، وما للألفاظ ومعانيها وإيحاءاتها من أثر في تحقيق الموسيقا الشعرية، وهو ما سنتعرض له في الموسيقا الداخلية.

والعصر العباسي الذي نتعرض بدراسة موضوع شعر الخلافة فيه، اتسم بمحاولات جادة قام بها كثير من الشعراء للثورة على الأساليب القديمة في الشعر، سواء من ناحية الموضوع، أو من ناحية

(1) أنيس، إبراهيم: موسيقا الشعر العربي. ص210. بيروت: دار القلم. 1965م.

(2) الشايب، أحمد: أصول النقد الأدبي. ص322.

الوزن، وقد تم تفصيل التطور من ناحية الموضوع في المبحثين السابقين، أما من ناحية الوزن، فإننا سنحاول التعرض إلى ما طرأ من تطور في هذا المجال.

ولما كانت الثورة ضد الأساليب القديمة في هذا العصر لم تصل إلى درجة النضج، فإننا وجدنا كثيراً من الشعراء الداعين إلى هذه الثورة، يضطرون في كثير من الأحيان إلى السير على نهج القدماء، وبخاصة ما ورد عن أبي نواس في تقليده لمعاني القدماء في مديحه وراثته؛ لأنه في هذه الأشعار ينظم أبياتاً لتلقى استحسان الناس، وعلى رأسهم الخليفة، بخلاف شعره الخمري الذي نهج فيه النهج الذي يريد.

وما دام الأمر كذلك، فإننا نجد في شعر الخلافة مزجاً لأساليب القدماء فيما يتعلق بالوزن العروضي، ومنهج المحدثين في ذلك؛ أي أننا نجد بعض الأوزان التي اشتهر بها المتقدمون، بالإضافة إلى أوزان خفيفة ومجزوءة أخرى أُلحِق بها المحدثون، ولا سيما وأن التطور الشعري كان في مرحلة المخاض بعد.

ومن الأمثلة على الأبيات التي جاءت على البحر الطويل، مثلاً، قول الشاعر:

لَقَدْ فَازَ مُوسَى بِالْخِلَافَةِ وَالْهُدَى وَمَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ⁽¹⁾

وقول الشاعر كذلك:

أَبَا مُجْرِمٍ مَا غَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَةً عَلَى عَبْدِهِ حَتَّى يُغَيِّرَهَا الْعَبْدُ⁽²⁾

وقول الشاعر أبي نواس في رثاء الأمين:

طَوَى الْمَوْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ لِمَا تُطَوِي الْمَيِّتَةَ نَاشِرٌ⁽¹⁾

وهكذا، نجد أن الأشعار التي نظمت على البحر الطويل كانت في موضوعات المدح (المثال الأول)، والهجاء السياسي (المثال الثاني)، والثناء (المثال الثالث). وهي موضوعات جديدة إن جاز

(1) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 96.

(2) أبو دلالة: ديوانه. ص 52.

(1) أبو نواس: ديوانه. ص 129.

التعبير أو قل موضوعات مدفوعة الأجر، وقد لا تعبر عن موقف الشاعر حقيقة، أو غير صادرة عن عاطفة صادقة.

أما البحر الكامل، فالأمتلة عليه وفيرة، ومنها قول الشاعر:

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خَيْالَهَا بِيَضَاءِ تُخْلِطُ بِالْحَيَاءِ دَلَالَهَا⁽¹⁾

دَلَالَهَا⁽¹⁾

وهي قصيدة تقع في (38) بيتاً، وموضوعها المديح، ولكن الشاعر بدأه بالغزل وهي طريقة تقليدية. ومن الأمثلة على الكامل كذلك، قول الشاعر:

قُلْ لِلْمَنَازِلِ بِالْكَثِيبِ الْأَعْفَرِ أُسْقِيتِ غَادِيَةَ السَّحَابِ الْمَمْطَرِ⁽²⁾

الممطر⁽²⁾

وقول الشاعر:

عَيْنَانِ: وَاحِدَةٌ تُرَى مَسْرُورَةً بِإِمَامِهَا جَذَلَى وَأُخْرَى تَذْرِفُ⁽³⁾

تذرف⁽³⁾

وقول الشاعر:

مَا هَذِهِ الْبِدْعُ الَّتِي سَمَّيْتَهَا بِالْجَهْلِ مِنْكَ الْعَدْلَ وَالتَّوْحِيدَا
أَفْسَدْتَ أَمْرَ الدِّينِ حِينَ وَاكَيْتَهُ وَرَمَيْتَهُ بِأَبِي الْوَلِيدِ وَكَيْدَا⁽⁴⁾

(4)

وحتى لا نطيل الكلام عن هذه البحور، فإن الأمثلة على البحور المشهورة كثيرة؛ فعلى البحر

البسيط، قول الشاعر:

لَوْ يُعْبَدُ النَّاسُ يَا مَهْدِي أَفْضَلَهُمْ مَا كَانَ فِي النَّاسِ إِلَّا أَنْتَ مَعْبُودُ⁽¹⁾

(1) مروان بن أبي حفصة: ديوانه. ص 96.

(2) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 100.

(3) أبو دلالة: ديوانه. ص 82، 83.

(4) ابن الجهم: ديوانه. ص 125، 126.

وهكذا، نجد الشعراء راوحوا بين استخدامهم للأوزان الطويلة والتامة، وبين الأوزان القصيرة والمجزوءة، وإن كانت أمثلة النوع الأول أكثر وروداً.

ثانياً: القافية

للقافية دور مهم في تشكيل الموسيقى الخارجية للشعر، ولا نقصد بالقافية، هنا، الروي فقط، بل كل ما يتعلّق بموسيقا الشعر من حروف القافية، كالوصل، والخروج، والردف، والتأسيس⁽¹⁾. وقد تنبّه الأدباء والباحثون إلى دور الروي في إضفاء موسيقا شعرية للأبيات تسهم في تكامل الموسيقى الشعرية للقصيدة، وتحقيقها، وقد رأى بعضهم أن هناك حروفاً تصلح للروي، فتكون جميلة الجرس، لذيدة النغم، سهلة المتناول، وبخاصة إذا كانت القافية مطلقة، ومن ذلك الهمزة، والباء، والدال، والراء، والعين، واللام⁽²⁾.

وسنحاول في الأسطر التالية تتبع الروي في أشعار الخلافة لنتبين مدى توافقها مع ما ذهب إليه الشايب. وبالنظر في الأشعار التي نظمت في صورة الخلافة، وبالأخص ما ورد منها في هذه الدراسة؛ فإن حضوراً كبيراً لهذه الأحرف نجده في رويها؛ فعلى سبيل المثال، فإن من الأشعار التي وردت على روي الدال، مثلاً، قول الحسين بن مطير:

لَوْ يُعْبَدُ النَّاسُ يَا مَهْدِيَ أَفْضَلَهُمْ مَا كَانَ فِي النَّاسِ إِلَّا أَنْتَ مَعْبُودٌ⁽¹⁾

[الوافر]

وقصيدة سلم الخاسر التي يقول فيها:

(1) الوصل: حرف مد ناتج عن إشباع حركة الروي، أو هاء ساكنة تتبع الروي. الخروج: حرف مد ناتج عن إشباع هاء الوصل.

الردف: حرف مد يسبق الروي. التأسيس: حرف مد بينه وبين الروي حرف صحيح. عتيق، عبد العزيز: علم العروض والقافية. دار النهضة العربية. بيروت. 1987. ص 143 وما بعدها

(2) الشايب، أحمد: أصول النقد الأدبي. ص 325.

(1) غرونيوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطبع بن إيباس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 77. والأصفهاني: الأغاني. ج

لَقَدْ فَازَ مُوسَى بِالْخِلَافَةِ وَالْهُدَى وَمَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ (1)

[الطويل]

وقصيدة أبي العتاهية التي يقول فيها:

أَنْتَ الْمُقَابِلُ وَالْمُدَا بَرُّ فِي الْمُنَاسِبِ وَالْعَدِيدِ (2)

[مجزوء الكامل]

أما روي الراء، فقد ورد في قصيدة سلم الخاسر التي جاء فيها:

قُلْ لِلْمَنَازِلِ بِلِكْثِيبِ الْأَعْفَرِ أُسْقِبَتِ غَادِيَةَ السَّحَابِ الْمُمَطَّرِ (3)

[الكامل]

كما ورد في قصيدة أبي دلامة التي جاء فيها:

إِنِّي رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَا مِ وَأَنْتَ تَعْطِينِي خِيَارَةَ

مَمْلُوءَةً بِدِرَاهِمٍ وَعَلَيْكَ تَفْسِيرُ الْعِبَارَةِ (4)

[مجزوء الكامل]

وقصيدة منصور النمري التي جاء فيها:

يَذُوكَ فِي رِقَابِ بَنِي عَلِيٍّ وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَنْ الصَّغِيرِ (1)

[الوافر]

وقصيدة أبي نواس في استعطاف الأمين التي جاء فيها:

تَذَكُرُ أَمِينَ اللَّهِ - وَالْعَهْدُ يَذَكُرُ - مَقَامِي، وَإِنْشَادِيكَ، وَالنَّاسُ حُضَّرُ (2)

[الطويل]

(1) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطبع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 96.

(2) أبو العتاهية: ديوانه. ص 310.

(3) غرونباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطبع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 100.

(4) أبو دلامة: ديوانه. ت إميل بديع يعقوب. ص 61.

(1) النمري: ديوانه. ص 85، 87.

(2) أبو نواس: ديوانه. ص 106.

وورد اللام رويًا في قول الشاعر مروان بن أبي حفصة:

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خَيَالَهَا بِيَضَاءِ تُخْلِطُ بِالْحَيَاءِ دَلَالَهَا⁽¹⁾

[الكامل]

كما وردت الهمزة رويًا في قول السيد الحميري:

أَلَا إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَوَلَاةَ الْحَقِّ، أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلَيٍّ وَالثَّلَاثَةَ مِنْ بَنِيهِ هُمْ أَسْبَابُهُ وَالْأُولِيَاءُ⁽²⁾

[الوافر]

وورد العين رويًا في قول الشاعر السيد الحميري:

إِنَّ الْخِلَافَةَ كَانَتْ إِرْثَ وَالِدِكُمْ مِنْ دُونَ تَيْمٍ وَعَفْوِ اللَّهِ مُتَسَعُ
وَمَا لَأَلِ عَلِيٍّ فِي إِمَارَتِكُمْ حَقٌّ وَمَا لَهُمْ فِي إِرْثِكُمْ طَمَعُ⁽³⁾

[البيسط]

وورد الباء رويًا في قول الشاعر:

سَخَّرَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا لَمْ تُسَخَّرْ لِصَاحِبِ الْمِحْرَابِ
فَإِذَا مَا رَكَابُهُ سِرْنَ بَحْرًا سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْثَ غَابِ⁽¹⁾

[الخفيف]

وهكذا، كانت الأصوات التي رأى الباحثون أنها تصلح للروي أكثر من غيرها، لها حضور في شعر وصف الخلافة.

المطلب الثاني: الموسيقى الداخلية

(1) مروان بن أبي حفصة: ديوانه. ص 96.

(2) السيد الحميري: ديوانه. ص 51.

(3) النمري: ديوانه. ص 97، 103.

(1) المصدر السابق . ص 116.

يرى بعض الباحثين أن العروض لا يستطيع أن يحقق الموسيقى الداخلية للشعر، ولا بد لذلك من توافر جانبين مهمين: الأول، اختيار الكلمات وترتيبها. والثاني، المشاكلة بين أصوات هذه الكلمات والمعاني التي تدل عليها، وعليه فإن الشعراء يتفاضلون فيما بينهم⁽¹⁾.

وإذا كانت الأوزان الشعرية وحرف الروي لها دور في تحقيق الموسيقى الشعرية، فإن الموسيقى الداخلية التصويرية لا تتحقق؛ فقد تشابه القصائد في البحور التي تنظم عليها وقد تتوحد كذلك في القافية، وفي الموضوع الشعري، كما يحدث في المعارضات أو النقائض مثلاً، ولكن القصائد تتفاوت فيما بينها في القيمة الفنية؛ مما يتطلب البحث عن أمر آخر، ربما يكون هو السر في تحقيق سحر البيان.

ومن مظاهر الموسيقى الداخلية:

أولاً: التجسيم والتشخيص

من التقنيات الفنية التي استخدمت في العصر العباسي، ظاهرة التجسيم والتشخيص؛ فكثيراً ما يحقق التشبيه والاستعارة صورة تقريبية لشيء ذهني، ولكن التشخيص يعني خلع الحياة على الجوامد أو ما في حكمه من نباتات وأشجار بعض صفات الأشخاص كقول الشاعر: (فنسيم المياها يسرق عطرا) فهو هنا يشخص النسيم في صورة لص ظريف يسرق العطر من الطبيعة، أما التجسيم: هو نقل ما هو معنوي إلى صورة المحسوس، ثم بث الحياة فيها كقول: (شحبت الفضيلة) : فالفضيلة شيء معنوي أُحيل إلى شيء ملموس (إنسان مريض)، فإكساب الجمادات صفة الأشخاص، يحقق موسيقياً داخلية تجعل للجوامد صفات الأحياء. ومن الأمثلة على التشخيص، قول الشاعر سلم الخاسر:

قُلْ لِلْمَنَازِلِ بِالْكَثِيبِ الْأَعْفَرِ أُسْقِيَتْ غَادِيَةَ السَّحَابِ الْمُمَطَّرِ⁽¹⁾

[الكامل]

فالشاعر هنا، يخاطب المنازل وهي من الجماد، بينما يرى الشاعر نفسه في موطن آخر

الخلافة تأتي للخليفة هي، فيقول:

(1) درويش، العربي حسن: الشعراء المحدثون في العصر العباسي. ص 186.

(1) غرونبوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطبع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 100.

لَمَّا أَتَتْ خَيْرَ بَيْتِي هَاشِمٍ خِلَافَةَ اللَّهِ بِجَرَجَانِ
شَمْرًا لِلْحَزْمِ سَرَابِيلَةً بِرَأْيِ لَا عُمْرٍ وَلَا وَاثِي (1)
[السريع]

وللدلالة على كرم الخليفة، يرى الشاعر أن البحار تغرف من بحر الخليفة، فيقول:

بِسُرٍّ مَنْ رَأَى إِمَامَ عَدْلِ تَغْرِفُ مِنْ بَحْرِهِ الْبَحَارُ (2)
[مخلع البسيط]

أما أبو نواس فيرى أن الخلافة تزهو وتتفاخر بالخليفة الأمين، إذ يقول:

إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمْ تَزَلْ تَزْهُو وَتَفْخَرُ بِالْأَمِينِ
وَتَحِنُّ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهِ هِيَ دَائِمَةٌ الْحَنِينِ (3)
[مجزوء الكامل]

وأما أبو العتاهية، فيقرر أن الخلافة هي التي أتت للخليفة مذعنة منقادة، فيقول:

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تَجَرَّرُ أُنْيَالُضُهَا (1)
[المتقارب]

ثانياً: السيولة والتدفق

نعني بالسيولة والتدفق، أن الأبيات والألفاظ تتسلسل في القصيدة كما تتسلسل العواطف والأفكار الذهنية عند الشاعر؛ وعندها تكون القصيدة، أو مجموعة الأبيات، جسماً متلاحماً متآلفاً، يؤدي السابق منه للتالي، وتكون الأبيات عندئذ متسلسلة كتسلسل القصة. ومن الأمثلة على السيولة والتدفق هذا، ما نظمه الشاعر دعبل الخزاعي، في هجاء المعتصم، في قصيدته التي جاء فيها:

(1) المصدر السابق. ص 117.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 396.

(3) أبو نواس: ديوانه. ص 115.

(1) أبو العتاهية: ديوانه. جمعه احد الأدباء اليسوعيين. ص 309.

وَقَامَ إِمَامًا لَمْ يَكُنْ ذَا هِدَايَةِ فَلَيْسَ لَهُ دِينَ وَلاَ لَيْسَ لَهُ لُبٌّ⁽¹⁾

[الطويل]

ففي هذا البيت يقرر الشاعر أن الخليفة لم يكن مهدياً، ولا لب له، وهو الآن (الشاعر) لم يحدد الخليفة الذي يتحدث عنه. ثم يمضي في البيت الثاني ليقرر أن الأنبياء والأخبار تشير إلى عدم أهليته للخلافة، وبذلك هو يقدم الدليل على ما قاله في البيت الأول، فيقول:

وَمَا كَانَتْ الْأَنْبَاءُ تَأْتِي بِمِثْلِهِ يُمْكِّ يَوْمًا أَوْ تَدِينُ لَهُ الْعَرَبُ⁽²⁾

[الطويل]

ثم يمضي في البيتين الثالث والرابع ليقرر أن خلفاء بني العباس هم سبعة فقط، أما الثامن فهو محط شك، وبذلك بدأ الشاعر يحدد المقصود من هجائه هذا، وهو المعتصم، فيقول:

وَلَكِنْ كَمَا قَالَ الَّذِينَ تَتَابَعُوا مِنْ السَّلَفِ الْمَاضِينَ إِذْ عَظَّمَ الْخَطْبُ

مُلُوكُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتُبِ سَبْعَةٌ وَلَمْ تَأْتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُمْ كُتُبٌ⁽³⁾

[الطويل]

وبعد أن اتهم الشاعر الخليفة بقلّة العقل وقلّة الهداية، وأن الأخبار لم تشر إلى خلافته، وأنه لا يستحق هذا المنصب، مشيراً إلى أن خلفاء بني العباس هم سبعة فقط، يبدأ في هجاء الخليفة من طرف خفي عندما يقول: إن الخلفاء العباسيين كأهل الكهف سبعة أما الثامن فهو كلبهم، فيقول:

كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي الْكَهْفِ سَبْعَةٌ خِيَارٌ إِذَا عُدُوا، وَثَامِنُهُمْ كَلْبٌ⁽¹⁾

[الطويل]

ثم يستدرك الشاعر، عندما يرى أن تشبيهه هذا غير كاف، فيقرر أن كلب أصحاب الكهف ليس له ذنب بخلاف الخليفة فهو مذنب، فيقول:

وَإِنِّي لِأَعْلِي كَلْبَهُمْ عَنْكَ رُفْعَةٌ لِأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ، وَلاَ لَيْسَ لَهُ ذَنْبٌ⁽²⁾

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 369.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 369.

(3) المصدر السابق. ص 369.

(1) المصدر السابق. ص 369.

[الطويل]

ويمضي الشاعر بعد ذلك ليقرر النتيجة الطبيعية لذلك (حسب وجهة نظره) وهي ضياع حقوق الناس والعباد، فيقول:

لَقَدْ ضَاعَ مِنْكَ النَّاسُ إِذْ سَاسَ مَلِكَهُمْ وَصَيْفٌ، وَأَشْناسٌ، وَقَدْ عَظُمَ الْكَرْبُ⁽²⁾

[الطويل]

وهكذا، وجدنا الشاعر يتسلسل في هجاء المعتصم، بادئاً بالحديث عن خليفة لم يسمه، ثم كنى عنه عندما أشار إلى أن هجاءه ينصب على ثامن الخلفاء، وقد شبه العباسيين بأصحاب الكهف للإيحاء بشتم المعتصم، ثم استدرك مشيراً إلى تفضيل الكلب عليه، وخلص إلى النتيجة التي حدثت وهي فساد الأمة نتيجة إطلاق المعتصم يد الموالي الترك ليتحكموا في رقاب الناس وأموالهم.

ثالثاً: التكرار والمشتقات

يشكل التكرار ظاهرة أسلوبية داخل النص الشعري فلا يأتي عبثاً وإنما يعمل على توضيح وإنارة الشعر من عدة جوانب ، الجانب الأول :أنه يظهر الوحدة العضوية بحيث تبدو الأبيات داخل النص متماسكة بعضها ببعض، وكأنها منظومة في عقدٍ فريد ، أمّا الجانب الثاني فيتصل بالقيمة الجمالية التي يحدثها أسلوب التكرار من خلال الكشف عن مشاعر الذات، ودهشة وانبهار المتلقي بشعرية الشعر (1). فالتكرار مهم في بناء النص الشعري .

(1) المصدر السابق. ص 369.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص 369.

يؤدي تكرار الكلمة بلفظها أو إحدى مشتقاتها، إلى منح الأشعار جرساً موسيقياً، من خلال تكرار وحدات معنوية كالكلمات أو التراكيب. ومن الأمثلة على التكرار، قول الشاعر مروان بن أبي حفصة:

لَمْ تَعَشَهَا مِمَّا تَخَافُ عَظِيمَةً إِلَّا أَجَالَ لَهَا الْأُمُورَ مَجَالَهَا
حَتَّى يُفَرِّجَهَا أَغْرُ مُبَارِكٌ أَلْفَى أَبَاهُ مُفَرِّجاً أَمْثَالَهَا
ثَبَّتْ عَلَى زَلِّ الْحَوَادِثِ رَاكِبٌ مِنْ صَرْفِهِنَّ لِكُلِّ حَالٍ حَالَهَا
[الكامل]

وفي البيت الأول تكرار أجال، ومجال، وهما من الاشتقاق نفسه. وفي الثاني يفرج، ومفرج من الأصل (فرج)، وفي البيت الثالث تكرار حال، وحالها.

ومن الأمثلة كذلك على التكرار، قول الشاعر مروان بن أبي حفصة:

الْوَحْيُ بَيْنَ بَنِي الْبَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ قَطَعَ الْخِصَامَ فَلَاتَ حِينَ خِصَامِ
أَنْتِي يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِائَةُ الْأَعْمَامِ
أَلْفَى سِيَاهَهُمُ الْكِتَابُ فَحَاوَلُوا أَنْ يَشْرَعُوا فِيهَا بِغَيْرِ سِيَاهٍ⁽¹⁾
[الكامل]

وفي البيت الأول تكرار كلمة (الخصام)، وفي الثاني تكرار (يكون وكائن) وهما من الأصل (كان)، وفي الثالث تكررت كلمة (سياه).

ومن الأمثلة على التكرار كذلك قول الشاعر:

سَقَى اللَّهُ نَجْدًا وَالسَّلَامُ عَلَى نَجْدِ وَيَا حَبْدًا نَجْدٌ عَلَى النَّايِ وَالْبَعْدِ
نَظَرْتُ إِلَى نَجْدٍ وَبَعْدًا دُونَهَا لَعَلِّي أَرَى نَجْدًا وَهِيَهَاتَ مِنْ نَجْدِ

(1) الأصفهاني: الأغاني. 13 / 220.

بلادٌ بها قومٌ هَواهُمُ زيارتي ولا شيء أشهى من زيارتهم عندي⁽¹⁾

[الطويل]

ففي هذه الأبيات تكرار لكلمة (نجد) حيث وردت خمس مرات في البيتين الأول والثاني، أما كلمة زيارة فقد وردت مرتين في البيت الثالث.

ما سبقت الإشارة إليه كان تكراراً لألفاظ محددة، ولكن، هناك أمثلة على تكرار تراكيب، ومنها قول الشاعر:

أبا مجرمٍ ما غيرَ الله نعمةً على عبده حتى يغيرها العبدُ
أبا مجرمٍ خوفتني القتلَ فانتحي عليك بما خوفتني الأسدُ الوردُ
أفي دولة المهديِّ حاولتَ غدره ألا إنَّ أهلَ الغدرِ أبؤك الكردُ⁽²⁾

[الطويل]

حيث تكرر التركيب (أبا مجرم) في البيتين الأول والثاني، بالإضافة إلى تكرار كلمات: (العبد) في البيت الأول، و(خوفتني) في البيت الثاني، و(الغدر) في البيت الثالث. ومن الأمثلة على تكرار التراكيب قول الشاعر:

دونكما يا بني هاشمٍ فجددوا من عهدِها الطامسا
دونكما لا علا كعب من أمسى عليكم ملكها منافسا
دونكما فالبسوا تاجها لا تعدموا منكم لابساً⁽¹⁾

[السريع]

وقد كرر الشاعر التركيب (دونكما) في الأبيات الثلاثة.

رابعاً: ملاءمة اللفظ للمعنى

من الأمور اللازمة لتحقيق الموسيقى الشعرية ملاءمة الألفاظ لمعانيها، ولا بد من وجود ارتباط بين الموضوع الشعري والألفاظ المعبرة عن معانيه، فالمطلوب من الشاعر اختيار الكلمات الرقيقة

⁽¹⁾الأصفهاني: الأغاني . 216 / 23.

⁽²⁾ أبو دلامة: ديوانه. ص 52.

⁽¹⁾ السيد الحميري: ديوانه. ت شاكر هادي شكر. ص 258، 259.

للتعبير عن المعاني الرقيقة، واستخدام الألفاظ الجزلة للتعبير عن المعاني الجدية السامية. ومن الأمثلة على ملاءمة الألفاظ لمعانيها، ما نظمه الشاعر منصور النمري مصوراً مقتل الحسين، فيقول:

فَوَافِقُوا كَرِيبَاءَ مَعَ الْمَنَائِيَا	بِمِرْدَاةٍ مُسَوِّمَةِ الْخِيُولِ
فَمَا بَخَلَتْ أَكْفُهُمْ بِضَرْبِ	كَأَمْثَالِ الْمَصَاعِبَةِ الْبُزُولِ
وَلَا وَجِدَتْ عَلَى الْأَصْلَابِ مِنْهُمْ	وَلَا الْأَكْتَفِ آثَارُ النَّصُولِ
وَلَكِنَّ الْوُجُوهُ بِهَا كُلُّومٌ	وَفَوْقَ نُحُورِهِمْ مَجْرَى السُّيُولِ
أُرِيْقَ دَمُ الْحُسَيْنِ وَلَمْ يُرَاعُوا	وَفِي الْأَحْيَاءِ أَمْوَاتُ الْعُقُولِ ⁽¹⁾

[الوافر]

وما دام الشاعر يتحدث عن مقتل الحسين بوحشية؛ فإنه يحشد الكثير من ألفاظ القسوة والشدة، ومنها: (المنايا)، و(ضرب)، و(النصول)، و(كلوم)، و(مجرى السيول)، و(أريق دم الحسين)، و(أموات).

ولو توجهنا إلى أبي نواس لوجدنا نمطين شعريين عنده؛ فعندما رثى الأمين استخدم الألفاظ الجزلة الدالة على الحزن والموت، على نحو ما يقول:

طَوَى الْمَوْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ	وَلَيْسَ لِمَا تَطْوِي الْمَيِّتَةَ نَاشِرٌ
فَلَا وَصَلَ إِلَّا عِبْرَةٌ تَسْتَدِيمُهَا	أَحَادِيثُ نَفْسٍ مَا لَهَا الدَّهْرَ ذَاكِرٌ
وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحَدُّهُ	فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحَازِرٌ
لَسِنٌ عَمَّرَتْ دُورٌ بِمَنْ لَا أُوْدُهُ	فَقَدْ عَمَّرَتْ مِمَّنْ أَحَبُّ الْمَقَابِرِ ⁽¹⁾

[الطويل]

فقد استخدم أبو نواس لفظ الموت أو ما يرادفه ثلاث مرات، ثم أورد الألفاظ الدالة على الحزن، كـ (طوى)، و(تطوي)، و(عبرة)، و(أحذر)، و(أحازر)، و(المقابر).

أما عندما تحدث أبو نواس عن الخمرة، فإن ألفاظه جاءت بمنتهى الرقة والبساطة والسلاسة، فيقول:

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ	وَدَاوِنِي بِالتِّي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
---	---

(1) النمري: ديوانه. ص 126، 127.

(1) أبو نواس: ديوانه. ص 129.

صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانَ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَاءُ
قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فَلَاحَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ
فَارَسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّهَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَانِمُهَا لَطَافَةٌ وَجَفَاءٌ عَنِ شَكْلِهَا الْمَاءُ

[البسيط]

ولو نظرنا في الأدب العربي فيما قبل أبي نواس، لوجدنا ذكراً للخمرة، على نحو ما نجده في معلقة عمرو بن كلثوم مثلاً، أو في قول الأعشى:

وَكَأْسٌ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

[المتقارب]

إلا أن فرقاً في التعبير بين الشاعرين، مع التشابه الظاهري في قوليهما. ويرى بعض الباحثين أن المعنى الذي جاء به أبو نواس وإن لم يكن جديداً "إلا أنه اتخذ على يدي النواسي إيقاعاً جديداً اتضحت فيها بعض صفات العصر من أناقة في التنسيق التركيبي، وذوق موسيقي في اختيار الألفاظ وترتيبها فلم يذكر الخمر صراحة، لا ليبعد ذكرها بل ليجعلنا نتمثل لها صورة جديدة ويؤكد أنها حاضرة في وجدانه وروحه"⁽¹⁾.

(1) حمدان، ابتسام أحمد البيل: الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي. مراجعة أحمد عبد الله فرهود. ط1. دارالقلم العربي. حلب. 1997. ص14.

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة، أمكننا أن نرصد أهم النتائج التي تم التوصل إليها. فقد كان موضوع الخلافة موضوعاً شعرياً خصباً، تناوله شعراء تلك الفترة الزمنية، كل بما يوائم هواه، وتبعاً لأرائه وأهوائه. وقد ظهر أثر التيارات الفكرية والسياسية، والطبقات الاجتماعية والعرقية بارزاً في هذا الموضوع.

أولى هذه النتائج تمثل في أن تناول موضوع الخلافة لم يكن نزيباً ولا موضوعياً حيادياً عند أي صنف من الشعراء؛ فشعراء الدولة العباسية، مثلاً، تناولوا الموضوع تحت تأثير الرغبة في الجوائز، والحاجة إلى نيل المكانة العليا في البلاط العباسي؛ فأسبغوا على الخلافة والخليفة هالة من القداسة، كانت المبالغة أبرز معالمها، وأوضح خصائصها، ولم ينسَ هؤلاء الشعراء مناسبة شخصية ولا عامة، إلا وأظهروا تأييدهم المطلق للخليفة العباسي فيها؛ فعند موت خليفة، وتولي آخر ينفرون إلى رثاء الأول وتهنئة الثاني، من خلال الجمع بين هذين الفنين، في كل بيت من الأبيات تقريباً، على نحو ما نجده عند سلم الخاسر، مثلاً، إذ يقول:

لَقَدْ فَازَ مُوسَى بِالْخِلَافَةِ وَالْهُدَى وَمَاتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدُ
فَمَاتَ الَّذِي عَمَّ الْبَرِّيَّةَ فَقَدُهُ وَقَامَ الَّذِي يَكْفِيكَ مَنْ يَتَفَقَّدُ (1)

[الطويل]

أما شعراء الشيعة، فقد تناولوا هذا الموضوع على نحو مغاير تماماً؛ فقد مال بعضهم إلى هجاء الخليفة والخلافة، ما سنحت لهم الفرصة، ولعل الشاعر دعبل الخزاعي من أبرز الأمثلة على ذلك، وهجاؤه للخليفة المعتصم أشهر من أن يذكر (2). أما مناسبة موت خليفة وتولي آخر، فقد اغتتمها للجمع بين هجاء الحي و هجاء الميت على نحو قوله:

(1) غرونيبوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون (مطبع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق). ص 96.

(2) الرسالة. ص 55.

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا صَبِيرٌ وَلَا جَلَدٌ وَلَا عَزَاءٌ إِذَا أَهْلُ الْبِلَا رَقَدُوا
خَلِيفَةً مَاتَ لَمْ يَحْزَنْ لَهُ أَحَدٌ وَآخِرُ قَامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أَحَدٌ
فَمَرَّ هَذَا وَمَرَّ الشُّؤْمُ يَتَّبَعُهُ وَقَامَ هَذَا فَقَامَ الظُّلْمُ وَالنَّكَدُ⁽¹⁾

[البسيط]

ولم يكن شعراء الشيعة كلهم على هذه الشاكلة؛ فقد مال بعضهم إلى مهادنة الخليفة تبعاً لمبدأ التقية الذي يؤمن به الشيعة، على نحو ما نجده عند منصور النمري الذي كان يصل به الأمر إلى هجاء العلويين، على الرغم من أنه من أنصارهم⁽²⁾.

أما شعراء الزهد، فقد نأوا بأنفسهم عن الخليفة وعن الخلافة، وانشغلوا بالعبادة، ومال بعضهم إلى عتاب زميل لهم إن رضي إشغال منصب رفيع في الدولة، مثل ما وجدناه عند عبد الله بن المبارك، وتمثلت خصائص الزهد عنده، كذلك، في الانشغال بمدح الأئمة كأبي حنيفة، والإعلاء من شأن الجهاد في سبيل الله⁽³⁾. أما الزاهد الآخر، فكان أبا العتاهية الذي وظف شعره للتعبير عن هموم الطبقات المسحوقة، على نحو ما وجدناه في قصيدته عن غلاء الأسعار⁽⁴⁾.

أما شعراء المجون والزندقة، فقد مالوا إلى مدح الخليفة طمعاً في التكسب، ورغبة في التستر على مجونهم ولهوهم.

والنتيجة الثانية، تمثلت في أن العوامل السياسية والفكرية والعرقية والاجتماعية كان لها أثر في بلورة موقف الشعراء من هذا الموضوع. ويبدو أن موضوع الخلافة ربما كان مطية للتنظير للمذاهب المختلفة، أو متنفساً يعبر من خلاله الشاعر عن هموم طبقته أو طبقة معينة من الناس. وقد أدى رقي الحياة العقلية، وانتشار العلوم المختلفة، إلى الميل بالشعر خطوة إلى الأمام نحو الإقناع والجدال والمناظرة، على نحو لم يكن مألوفاً في العصور السابقة؛ فقد مال بعض الشعراء إلى استخدام ألفاظ المتكلمين وتعبيراتهم على نحو ما وجدناه عند أبي نواس، مثلاً⁽⁵⁾.

(1) دعبل: ديوانه. ص 59.

(2) الرسالة. ص 50، 51.

(3) المصدر السابق. ص 58، 59.

(4) المصدر السابق. ص 63، 64.

(5) الرسالة. ص 69.

أما النتيجة الثالثة، فهي أن موضوع الخلافة لم يتم تناوله على نحو عادل، وجل ما في الأمر، أن الشعراء على اختلاف طبقاتهم، تناولوا الموضوع على أساس أنه وراثية، والمطلوب تحديد الوريث الشرعي؛ فشعراء الدولة العباسية رأوا في الخلفاء العباسيين الأجدر لتولي الخلافة، والأولى بها، طالما أنهم هاشميون. أما شعراء العلويين، فذهبوا، في أغلبهم، إلى ضرورة وضع الخلافة في آل علي، ولم يكن لهم أسباب مقنعة في ذلك. والغريب أن أية فئة من الفئات الفكرية، لم تنظر إلى الموضوع من ناحية شرعية، حتى شعراء الزهد أنفسهم. ومن الممكن أن تكون فكرة الخوارج عن الخلافة هي الأكثر قبولاً لدى الناس؛ لأنها تجعلها حقاً عاماً للمسلمين، ولكن الخوارج انشغلوا بقتال الدولة وتكفير خصومهم، فتلقوا ضربات شديدة منذ العصر الأموي، وما إن حل العصر العباسي، حتى لم يكن لهؤلاء وزن يذكر في الحياة السياسية، وجل نشاطهم عدة ثورات متفرقة لم يلبث أن قضى عليها العباسيون⁽¹⁾.

أما فيما يتعلق بالخصائص الفنية، فإن هذه الأشعار مثلت أبرز الخصائص الفنية للعصر العباسي لسببين: الأول، اشتراك أعلام الشعراء العباسيين في تناول الموضوع، والثاني، أن هؤلاء الشعراء وظفوا ثقلهم الأدبي، وأخرجوا كل ما بجعبتهم من أفكار، وعواطف. ومن أبرز الخصائص الفنية لهذا الشعر، جانب التصوير؛ إذ فزع الشعراء إلى التصوير لتوضيح الفكرة، تارة وللإقناع أخرى. وتميزت الصور عندهم بأنها كانت مثالية أحياناً، حيث عرض الشعراء الصور المتكاملة للخليفة، وبالغوا في التصوير. وقد وجدنا ازدواجية في الصور في بعض الأحيان؛ حيث تردد الشاعر بين المدح والهجاء على نحو ما وجدناه عند السيد الحميري، من شعراء الشيعة.

وقد تنوعت أساليب التعبير؛ فوجدنا أسلوب التقرير، وأسلوب الاستنكار، كما اتخذ بعضهم الاحتجاج العقلي أسلوباً للإقناع. وقد تنوعت مصادر الأفكار؛ فمنها مستمد من مصادر دينية شرعية مشتقة من الكتاب والسنة، وبعضها مشتق من المذاهب الكلامية، أو من التيارات الفكرية.

وبعد هذا العرض، نسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

(1) الرسالة. ص 130.

فهرس الآيات القرآنية

الرقم	الآية	رقمه ا	السورة	الصفحة
1	وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي	142	الأعراف	4
2	وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ	75	الأنفال	22
3	يَتَّيَّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنصَرُوا لِلَّهِ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ	7	محمد	32
4	كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥١﴾ فَزَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ	50/ 51	المدثر	36
5	هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ ۖ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۖ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ	63	الأنفال	64
6	وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً	30	البقرة	74
7	يَسْأَلُونَكَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ	26	ص	74
8	وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصۜطَةً	69	الأعراف	75
9	وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلِيفَةَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ	165	الأنعام	75

75	يونس	14	ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ	10
76	البقرة	247	وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ	11
76	النساء	83	وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ	12
76	النساء	59	يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ^ط	13
76	الحجر	88	وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ	14
76	الشعراء	215	وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ	15
82	البقرة	124	إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا	16
84	المدثر	38	كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ	17
90	الحجرات	13	إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنكُمْ ^ج	18
132	غافر	64	اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ	19
132	الأعراف	11	وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجُدُوا لِآدَمَ	20
132	الحشر	24	هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِيُّ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ ^ط الْحُسْنَىٰ ^ع	21
145	آل عمران	6	هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ^ج	22
145	الانفطار	8	فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ	23

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

- (1) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: **الجامع الصحيح المختصر**. تحقيق مصطفى ديب البغا. 6 أجزاء. ط3. دار ابن كثير. بيروت. 1987م.
- (2) الترمذي، محمد بن عيسى: **الجامع الصحيح سنن الترمذي**. تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون. 5 أجزاء. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- (3) ابن جماعة: **تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام**. طبعة أوروبا.
- (4) الجزيري، عبد الرحمن: **الفرقه على المذاهب الأربعة**. 5 مج.
- (5) أحمد بن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. 6 مج. مؤسسة قرطبة. القاهرة.
- (6) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن محمد: **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين. 4 أجزاء. ط1. دار الكتب العلمية. بيروت. 1995.
- (7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ت عبد القادر أحمد عطا. 9 أجزاء. مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- (8) السيوطي، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **تفسير الجلالين**. ط1. دار الحديث. القاهرة.
- (9) الشوكاني، محمد بن علي: **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**. 5 أجزاء.
- (10) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**
- (11) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**. 4 أجزاء. دار الفكر. بيروت. 1401هـ.
- (12) مسلم، أبو الحسين بن الحجاج: **صحيح مسلم**. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. 5 أجزاء. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

ثانياً: المصادر الأدبية والتاريخية

- 1) الأصفهاني، أبو الفرج: كتاب الأغاني. ت سميير جابر. ط2. دار الفكر. بيروت.
- 2) أمين، أحمد: ضحى الإسلام. 3 مج. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1997م.
- 3) أنيس، إبراهيم: موسيقا الشعر العربي. ص210. بيروت: دار القلم. 1965م.
- 4) البحتري: ديوانه. جزآن. مطبعة الجوائب.
- 5) ابن برد، بشار: ديوانه. شرح محمد الطاهر تعليق محمد شوقي أمين. 4 أجزاء. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. 1957.
- 6) البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي: المثل والنحل. قدم له وحققه ألبير نصري نادر. دار المشرق. بيروت.
- 7) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: ديوانه. بشرح الخطيب التبريزي. ت محمد عبده عزام. 4 أجزاء. ط5. دار المعارف. القاهرة.
- 8) الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين. ط1. دار صعب. بيروت. 1968.
- 9) الجاحظ، عمرو بن بحر: الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون. ط3. المجمع العلمي العربي الإسلامي. بيروت. 1969م.
- 10) ابن جعفر، قدامة: نقد الشعر. ت محمد عبد المنعم خفاجي. دار الكتب العلمية. بيروت.
- 11) ابن الجهم: ديوانه. ت خليل مردم بيك. ط2. دار الآفاق. بيروت. 1959.
- 12) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. ت حامد أحمد الطاهر. ط1. دار الفجر للتراث. القاهرة. 2004م.
- 13) الخزاعي: دعبل بن علي: ديوانه. ج-عبد الصاحب عمران الدجيلي. ط2. دار الكتاب اللبناني. بيروت. 1972 م.
- 14) أبو دلامة: ديوانه. تحقيق إميل بديع يعقوب. ط1. دار الجيل. بيروت: 1994م.
- 15) ابن الرومي: ديوانه. شرح أحمد حسن بسج. 3 أجزاء. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- 16) السيد الحميري: ديوانه. ت شاعر هادي شكر. دار الحياة. بيروت.
- 17) السيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. بيروت. 1989م.

- (18) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك. 5 أجزاء. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1407هـ.
- (19) أبو العتاهية: ديوانه. جمعه أحد الأدباء اليسوعيين. مطبعة الآباء اليسوعيين. بيروت. 1886م.
- (20) ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء: البداية والنهاية. مكتبة المعارف. بيروت.
- (21) المرزباني، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران: معجم الشعراء ، ومعه المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وأسابهم وبعض شعرهم. لأبي القاسم الحسن بن بشر الأمدي . تصحيح وتعليق الدكتور ك ف- ترانسكو . ط1. مكتبة القدس . موقع الوراق. -دار الكتب العلمية.بيروت .لبنان . ط2. 1982م.
- (22) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. ط2. مطبعة السعادة .مصر . 1958م.
- (23) ابن المعتز: طبقات الشعراء. تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج. دار المعارف .مصر
- (24) ابن منظور: أبو نواس في تاريخه وشعره ومبازله وعبثه ومجونه. ت عمر أبو النصر. 1969م
- (25) ابن منظور: لسان العرب. دار صادر. بيروت.
- (26) النمري، منصور : جمعه وحققه الطيب العشاش . مطبوعات مجمع اللغة العربية .دار المعارف للطباعة ، دمشق . 1981م.
- (27) أبو نواس: ديوانه. ط1. المطبعة العمومية. القاهرة.
- (28) مروان بن أبي حفصة: ديوانه. تحسين عطوان. ط1. القاهرة: دار المعارف.
- (29) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك : الوافي بالوفيات. اعتناء هلموت -بتير . دار النشر فرانز شتايز .شتوتغارت. ط2. 1963م.

ثالثاً: المراجع

- 1) أمين، أحمد: ضحى الإسلام. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1997م. 3 مج.
- 2) أنيس، إبراهيم: موسيقا الشعر العربي. بيروت: دار القلم. 1965م.
- 3) البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأعصر العباسية. دار الجيل. بيروت. 1988.
- 4) الجارم، علي ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة. ط1. دار المعارف. مصر. 1969م.
- 5) جامعة القدس المفتوحة. علم البلاغة.
- 6) جامعة القدس المفتوحة: مصادر الدراسة الأدبية واللغوية. 2007م.
- 7) جامعة القدس المفتوحة: مناهج النقد الأدبي عند العرب. ط1.. عمان 1997م.
- 8) جامعة القدس المفتوحة: نصوص شعرية (2). 2006.
- 9) حسين، طه: حديث الأربعاء. دار الكتب المصرية. القاهرة. 1937.
- 10) الحفني، عبد المنعم: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية. ط 2. مكتبة مدبولي. 1999.
- 11) حمدان، ابتسام أحمد: الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي. مراجعة أحمد عبد الله فرهود. ط1. دار القلم العربي. حلب. 1997.
- 12) الخضري، محمد بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية. ط1. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت. 1995م.
- 13) خفاجي، محمد عبد المنعم ومحمد سعدي فرهود، وعبد العزيز شرف: الأسلوبية والبيان العربي. ط 1. دار المصرية اللبنانية. القاهرة. 1992.
- 14) خفاجي، محمد عبد المنعم: الآداب العربية في العصر العباسي الأول. ط1. دار الجيل. بيروت. 1992م.
- 15) خليف، يوسف: تاريخ الشعر في العصر العباسي. دار الثقافة للطباعة والنشر. القاهرة. 1980.
- 16) درويش، العربي حسن: الشعراء المحدثون في العصر العباسي. الهيئة المصرية للكتاب. القاهرة. 1979.
- 17) الرافي، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب. ج3. ط1. دار الاستقامة. 1940.

- (18) الزيات، أحمد حسين: تاريخ الأدب العربي. ط14. مكتبة الأنجلو المصرية. 1955.
- (19) الشايب، أحمد: أصول النقد الأدبي. ط 8. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- (20) صبح، علي علي: البناء الفني في الصورة الأدبية. المكتبة الأزهرية للتراث. 1996.
- (21) صبح، علي علي: الصورة الأدبية تأريخ ونقد. ط1. القاهرة: دار قباء للطباعة. 2000م.
- (22) ضيف شوقي: العصر العباسي الأول. ط2.. القاهرة: دار المعارف.
- (23) ضيف، شوقي : الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ط11. دار المعارف. القاهرة.
- (24) ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. ط2. دار المعارف. القاهرة.
- (25) العقاد، عباس محمود: الحسن بن هانئ دراسة نفسية وتحليل. مطبعة الرسالة. القاهرة.
- (26) عتيق، عبد العزيز: علم العروض والقافية. دار النهضة العربية. بيروت. 1987.
- (27) علي، أحمد يوسف: مفهوم الشعر عند العباسيين. رسالة دكتوراة مخطوطة، كلية الآداب .
جامعة الزقازيق. 1984م.
- (28) فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية. ط6. 3 أجزاء. دار العلم للملايين.
بيروت. 1997.
- (29) القاسمي، ظافر: نظام الحكم في التشريع والتاريخ الإسلامي (الحياة الدستورية). ط 2. دار
النفائس. بيروت. 1977م.
- (30) قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن. ط10. دار المعارف. القاهرة.
- (31) متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وأشهر رجاله. الهيئة العامة
للكتاب. 1984م.
- (32) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة. من منشورات الندوة العالمية للشباب
- (33) موسى، محمد يوسف: نظام الحكم في الإسلام. ط2. دار المعرفة. القاهرة. مصر. 1964م.
- (34) النوري، محمد جواد وعلي خليل حمد: فصول في علم الأصوات. ط1. مطبعة النصر. نابلس.
1991.

An-jah National University

Faculty of Higher Studies

**Caliph in Abbasid's Poetry in the Second
and Third Centuries Hijrah**

Prepared by

Sahera Abdel Havis Muhammad Hamdan

Supervised by

Dr. Abdel Khaleg Eisa

This Thesis has been submitted as a completion of the requirements that lead to a Master degree in Arabic Language and Literature from the Faculty of Higher Studies at An- Najah National University, Nablus - Palestine.

2010

Caliphate in Abbasid's poetry in the Second and

Third Centuries Hijrah

Prepared by

Sahera Abdel Haviz Muhammad Hamdan

Supervised by

Dr.Abdel Khaleq Eisa

Abstract

This study examined the Abbasid caliphate, in the Abbasid poetry In the second and the third centuries (Hijrah). To this end, the researcher the Abbasid state. The researcher, after analysis, noticed that these poets had exaggerated their praise of the caliph and bestowed him with a halo of holiness, However, the Shiite poets, portrayal of the caliph was influenced by their attitude towards the Abbasid caliphate. And due to the diversity of the Shitte sects, their positions. Also varied. Some of them supported others opposed it and still others remained neutral. As for the poets of asceticism, these had withdrawn themselves for the pleasures of worldly things and devoted their life, to the Other Day The image of the caliphate in their poetry was influenced by their attitude toward this world and their asceticism in it. The poets of buffoonery and atheism expressed their support for the sake of gaining and covering of their crossing of the red lines.

The study also dwelt on the factors which had influenced the image of the caliph. It specifically examined the religious and ideological factors and their impact on the concept of this image. This image crossed between the Sunnis and

the Shiites and even among the Shiites themselves. Other parties, however, had other attitudes.

In addition to the religious and ideological factors, the study tackled the political factors, and the subsequent political parties and trends, to illustrate the image. The study also examined the impact of the social and ethnic factors and the sequent ethnic mixture and diversity of classes and the effect of all that on the caliphate. It was found, thorough these factors combined, that the image had developed according to the effect of these factors in the psyches of these poets. The study ended with the study of the concept of artistic image, the style, the language and the ideas as exemplified in the poetry of these poets. In the light of these findings, the researcher provided several important conclusions.